أسرار الأهرامات

إعداد وترجمة

المهندس

الأستاذ

أسرار الأهرامات



ترجمة وإعداد

المهندس محمد آصف طراف

الأستاذ بسام درويش

قام بتنضيد وترتيب هذا الكتاب مكتب s.m للخدمات الطباعية

حلب العبارة أمام سينما حلب هـ ٢٢٢٦٨٤٧

إهداء

إلى من سهرا الليالي ٠٠٠٠٠ ولم يدخرا جهداً في تعليمي وتوجيهي

إلى أمي وأبي ٠

وإلى رفيقة دربي ٠٠٠٠٠ زوجتي ٠

محمد آصف طراف ٠

مقدمة الكتاب

يدعوكم هذا الكتاب إلى بلد رائعة تقع على ضفاف النيل... إلى أقدم وأضخم صروح أثرية ترتفع على وجه البسيطة في عنان السماء بين الصحراء ذات الرمال الفضية المائلة إلى الصفرة والنهر المقدس بمياهه ذات اللون الزيتوني الداكن... إلى جبال الفراعنة كما وصفها العرب... إلى الأهرامات .

ملايين الناس جاءوا إلى هنا من مختلف بقاع الأرض غير عابئين بالوقت والمال لرؤيتها .منهم رحالة اليونان القدماء، الأباطرة الرومان، الخلفاء العرب، علماء الفلك، الباحثون عن الكنوز، المغامرون، العارفون بالكتابة الهيروغليفية والسياح. جميعهم وقفوا أمام الأهرامات مشدوهين. سائلين أنفسهم أسئلة لا تحصى.

من الذي جاءته فكرة تكديس هذه الجبال الحجرية ؟.

ما هي أهميتها ولأي غرض بنيت؟.

كيف استطاع الناس إشادتها منذ آلاف السنين؟.

الجميع يعلم أن الأهرامات – هي مدافن الملوك المصرين وشيدت لحفظ أجسادهم المحنطة وأشياءهم الثمينة، ومن المعلوم أن الذين شيدوها هم رعايا هؤلاء الملوك، بالإضافة إلى ذلك أصبحنا نعرف الطريقة التي بنيت بها ، لقد كتب هيرودوت عن كل ذلك، ومنه حصلت أوروبا عن أول معطيات تفصيلية عن الأهرامات وقد أقر بصحتها علماء العصر الحاليين، لكن هذا تطلب وقتاً طويلاً لأن العصور الوسطى أحاطت الأهرامات بستار من الألغاز والأساطير.

فمثلاً هناك فرضيات تقول بأن الأهرامات عبارة عن خزائن تحفظ فيها الحبوب والكنوز الفرعونية وقد بنيت من قبل سيدنا يوسف عليه السلام كما جاء في التوراة، أو أنها أرشيف الكهنة المصرين ما قبل الطوفان أو مراصد قديمة، أو حواجز لمنع رمال الصحراء من التقدم أو قلاع حدودية أو ملاجئ سرية.

منذ ذلك الحين وحتى الآن هناك من يشك بأن هذه الأهرامات من عمل البشر.

حتى الوقت الراهن لم تتم الإجابة على جميع الأسئلة المتعلقة بالأهرامات، فمثلاً لم يتم تحديد عدد الأهرامات بدقة مع أنه قد يبدو من السهل أن تذهب إلى موقعها وتقوم بإحصائها. ولكن عددها الأصلي لم يصلنا أبداً. هذا من ناحية، من ناحية أخرى لم تحفظ كل الأهرامات كما حافظت أهرامات الجيزة على نفسها. لقد تبقى من بعضها أكوام حجرية وفخارية ليس لها شكل، حتى أن الكثير من العلماء لم يعترف بأنها أهرامات، البعض الآخر منها اختفى تماماً تحت الكثبان الرملية (في عام ١٩٥٢ م، اكتشف عالم الآثار المصري زكريا غنيم إحداها على بعد ٢٠ كم من القاهرة في منطقة صقارى).

بالإضافة إلى ذلك لم تكن جميعها ذات شكل هرمي صحيح كما اعتدنا على تصورها، يوجد بينها أهرامات مدرجة إحداها ذات حروف منكسرة بشكل غير مألوف، والكثير منها لم يكتمل بناءه.

بالمحصلة إذا ما طلب منا ذكر العدد الكلي للأهرامات سنجيب: أنها تتراوح بين ٧٠-٨٠ هرماً نصفها - أهرامات فرعونية حقيقية، أي مدافن الملوك المصريين والباقي يخص التوابع ففي بعضها تم دفن زوجات وأفراد الأسر الحاكمة وفي البعض الآخر كانت تمارس مختلف الطقوس والشعائر الدينية.

في أكثر الحالات أصبحنا نعلم أسماء الذين أمروا ببناء هذا الهرم أو ذاك. أحياناً لا نستطيع سوى تخمين أسم صاحب الهرم، ولكن هناك أهرامات بقيت أسماء أصحابها مجهولة.

أحياناً نستطيع أن نعرف الغرض من بناء الهرم والتغييرات التي أدخلت عليه خلال مرحلة البناء بالإضافة إلى الغرف والممرات الواقعة تحت الأرض والتي أحيطت بسرية مطلقة في الأزمان الغابرة.

توجد بعض الأهرامات التي لا نستطيع تحديد أبعاد قاعدتها أو ارتفاعها بدقة.

بغض النظر عن نقص المعلومات يمكننا الآن أن نقدم لهيرودوت معطيات أكثر (عن الأهرامات ومالكيها) من تلك التي حصل عليها من المصريين منذ ٢٥٠٠ عام .

هناك أسئلة أخرى يطرحها الناس "كيف استطاع المصريون القدماء أن يحددوا بشكل دقيق المسافة بين الأرض والشمس؟ علماً بأنه إذا أخذنا أكثر الأهرامات ارتفاعاً (مقدراً بالأمتار) وضربناه بمليار نحصل تقريباً على المسافة بين الأرض والشمس".

"إذا أخذنا ضلع قاعدة الهرم وقسمنا طوله على ضعف ارتفاع الهرم فإننا نحصل العدد π".

من أين حصلوا على هذه المعلومات ؟!.

"كيف نشرح الحقيقة القائلة بأنه انطلاقاً من الأبعاد الهندسية للهرم الأكبر يمكن حساب تواريخ جميع الحروب والكوارث؟".

بعض الناس يقولون: من يصدق أن هذا الهرم بني ليكون فقط قبراً لأحد الملوك؟!.

قديماً، اعتبرت الأهرام إحدى عجائب الدنيا السبعة، وفي الواقع أنه في الوقت الراهن تبقى هي أعجوبة العجائب. صحيح أننا نشيد في الوقت الراهن أبراجاً تلفزيونية ارتفاعها أكبر من ارتفاع أي هرم وملاعب هائلة الأبعاد ولكن لم تشيد في هذا العصر أية منشأة تتمتع بهذه الكثافة من الصخور والأحجار.

فمثلاً من الأحجار التي بني منها الهرم الأكبر يمكن أن نبني جداراً على امتداد الساحل المتوسطي لمصر من السلوم وحتى غزه بعرض ١م وارتفاع ٢,٥م.

إذا أخذت حجارة أضخم ستة أهرامات ورصف بها طريق بعرض ستة أمتار فإن طوله سيكون ١٢ ألف كيلو متر وهو أكبر من المسافة بين واشنطن وموسكو.

أما عمر الأهرامات فهو خيالي. لقد تم البدء في بناء أول هرم في بداية القرن السابع والعشرين قبل الميلاد وتم الانتهاء من بناء آخر هرم تقريباً في أواخر القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

إلى الوقت الذي بدء فيه أوائل اليونان بتأسيس أثينا كان عمر الهرم الأكبر حوالي ألف عام.

وإلى الوقت الذي أسست فيه روما كان قد مضى على بناءه حوالي ألفي عام.

وعندما فتح العرب مصر كان قد مضى على بناءه أربعة آلاف عام.

"أيها الجنود ينظر إليكم أربعون قرناً من الزمان" هتف نابليون بحماس أمام جنده قبل المعركة التي خاضها ضد المماليك عند الأهرامات. (أخطأ نابليون بخمسة قرون).

والقضية لا تنحصر فقط في عمر الأهرامات وضخامتها ، فإذا نزلنا في هرم خوفو (خيوبس) سنرى هناك مدفناً مساحته أكثر من خمسين متراً مربعاً وارتفاعه حوالي ستة أمتار مبطناً من الداخل بألواح غرانيتية هائلة ذات سطوح مصقولة مركبة فوق بعضها البعض بحيث أنه لا يمكن إدخال دبوس بين اللوح والآخر .

في هرم أونيس غير الكبير وعلى جدران الغرف الواقعة تحت الأرض توجد كتابات هيروغليفية على امتداد عشرات الأمتار المربعة ملونة بألوان كحلية ذهبية وهي لم تتكدر أو تصبح عاتمه حتى يومنا هذا، وإذا نظرنا إلى الأهرامات من الأعلى من على متن طائرة مروحية سنقتنع بأنها لم تكن في وقت من الأوقات مسورة أو محاطة بمعابد.

الجدار المحيط بهرم (جوسير) يلمع جزؤه المنكشف بعد الحفر ببياض آخاذ أما الجزء غير المكشوف فأثره مرئي بشكل دقيق على الرمال وهذا أمر غير مفهوم، هذا الجدار يحصر مساحةً قدرها ١٥٠٠٠ متر مربع.

إن التعرف بالمخطط الهندسي لأهرامات الجيزة يبين دون أدنى شك أن محاورها ذات اتجاه واحد، وأن أكبر انحراف عن اتجاه الشمال الحقيقي لا يتجاوز ٠,١ من الدرجة مع العلم أن المصريين القدماء لم يعرفوا البوصلة كما أنهم لم يعرفوا الروافع أو البكرات أو حتى الأدوات الحديدية .

الفصل الأول

أعاجيب حجرية على ضفاف النيل

الجزء الأول

أوربا تتعرف على الأهرامات

طبيعي أن المصرين اعتادوا على أهراماتهم كما أعتاد الصينيون على سورهم العظيم، ولكن كان على الأوروبيين أن يكتشفوا الأهرامات مثلما اكتشف لهم ماركو بولو الصين وكور تيس_مكسيكو، لقد قام هيرودوت باكتشاف الأهرامات لهم.

لا يوجد هنا أي وجه للمقارنة: لأن هيرودوت لم يعمل مثل ماركو بولو ولم يحتل أراضٍ غريبة مثل كورتيس، لقد كان هيرودوت أول مؤرخ في العالم "أبو التاريخ".

كانت ولادته في كاليكارناس إحدى الحاضرات الكبيرة في اليونان (تقع هذه القرية الآن في تركيا وهي بودروم) عام ٤٨٤ قبل ميلاد السيد المسيح ومات في فوربي الواقعة جنوب شبه جزيرة ابنيون عام ٤٢٥ قبل الميلاد.

في شبابه طمح إلى لعب دور سياسي بارز، وعلى رغم من أنه من الطبقة الأرستقراطية فقد شارك في محاولة خلع الطاغية ليكماميد الحاكم في بلده والمدعوم من قبل الفرس، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل. بعد أن أعدم قادة هذه الحركة (ومنهم جد هيرودوت الشاعر المشهور بانياسيد) نفي هيرودوت إلى جزيرة ساموس. عندما انتهى حكم الطاغية في كاليكارناس عاد إلى بلده ولكن ليس إلى النشاط السياسي، بل كرس نفسه لعمل لم يسبقه أليه أحد "لكي لا يطوي النسيان الأحداث الماضية مآثر كانت أو أعمال بربرية ..." قرر تدوينها وهكذا ظهر كتابه "التاريخ" بأجزائه التسعة.

مع أن هيرودوت كان أول مؤرخ لكنه فهم أنه لا يمكن تدوين أية أحداث إن لم يزر هذا البلد الذي وقعت فيه. من خلال البحث في مؤلفاته يمكن القول أن هيرودوت زار نصف الأرض سيراً على الأقدام. قبل كل شيء زار آسيا الصغرى من بحر ايجه وحتى نهر الفرات ومن البحر الأسود وحتى شواطئ سوريا، ومن المحتمل أنه زار القرم وبابل القديمة وجزءً من الدولة الآشورية والثغور اليونانية الواقعة في ليبية حالياً وجنوب إيطاليا وبالطبع اليونان نفسها حيث عاش لفترة طويلة في اثينا. في حوالي عام ٤٥٠ قبل الميلاد أي قبل ظهوره في اثينا زار هيرودوت مصر، حيث قطعها من مصب النيل (عندها لم تكن هناك الإسكندرية أو بور سعيد) وحتى جزيرة الفنتين قرب أسوان، في تلك الحقبة كانت تقع هناك آخر قلعة حدودية مصرية، بالأصح آخر قاعدة جنوبية للجيش الفارسي لأنه في عام ٥٢٥ قبل الميلاد ضمت مصر بالقوة إلى الإمبراطورية الفارسية.
لقد تركت مصر في نفس هيرودوت انطباعاً خاصاً أقوى من أي بلد آخر زاره.
لقد انبهر هذا المؤرخ بكل شيء: الثقافة القديمة، الحقول المفلوحة بشكل رائع والمرفودة بمجموعة من قنوات الري، أسطول النيل الكبير، المجموعات الهائلة لمختلف أنواع الحيوانات والأسماك، المناخ، حبُ السكان للنظافة.
أكثر ما أدهشه هو تقديس الحيوانات وتحنيط الجثث والأكثر من ذلك الصروح المبينة وخاصة الأهرامات، كما أبدى إعجابه بالقصر الهائل المؤلف من ١٥٠٠ حجرة تحت الأرض ومثلها فوق الأرض والذي أطلق عليه أسم " المتاهة " (في واحة الفيوم).
"لقد رأيت هذه المتاهة وهي فوق كل وصف".
"مهما كانت هذه المتاهة مدهشة بضخامتها يوجد ما هو أكثر إثارة وهي بحيرة ميريد التي بنيت هذه المتاهة على ضفافها. يبلغ محيط هذه البحيرة ٣٦٠٠ ستاديا وهو ما يساوي طول المنطقة الساحلية لمصر، من الواضح أنها بحيرة اصطناعية نفذتها أيدٍ إنسانية.

في منتصف هذه البحيرة ينتصب هرمان يرتفعان فوق سطح الماء مقدار ٥٠ أورغا وهو نفس عمق الجزأين المغمورين من هذين الهرمين. يوجد بالقرب من كل هرم تمثال حجري هائل الضخامة لإنسان على كرسي، الآن لا نستطيع الجزم بوجود هذين التمثالين لأنهما دمرا بأيدٍ بشرية على ما يبدو.

ومنذ ذلك الوقت لم يظهر أي كتاب عن الأهرامات ولكن على الرغم من ذلك لم يكن هيرودوت أول يوناني أو غريب يزور مصر.

حسب الأساطير اليونانية وصل هرقل إلى مصر ولم يخضع للملك بوسيريد بل قتله، كما توقف في مصر مينيلاي مع هيلانه بعد احتلال تروي وبقي فيها لعدة سنوات كما زارها اليونانيون أنفسهم وبالدرجة الأولى الفلاسفة والساسة مثل فالس، اناكسيمندر، ديموقريط وسولون، وصلوا إلى هناك للتعرف على الجهاز الحكومي لمصر ولتعلم الحكمة على أيدي كهنتها. اعتباراً من نهاية القرن السابع قبل الميلاد كان لدى التجار اليونانيين في دلتا النيل مستوطنة خاصة بهم "نافاكراتيس".

من كتابات هيرودوت يمكننا أن نستنتج أن الأهرامات كانت معروفة في ذلك الوقت، فهو لم يعتبر أنه من الضروري تعريف القارئ بها أو يشرح شيئاً عنها، بل بدء كتابته بما يلي: "عندما يطوف النيل تبقى المدن فقط فوق الماء كالجزر في بحر ايجه حيث تتحول البلد بأسرها إلى بحر، عندها ينتقل الناس بواسطة السفن فوق الأرض وليس فوق مجرى النهر فقط فمثلاً على الطريق بين نافاكراتيس وممفيس يكون مسار السفن من الأهرامات نفسها".

فقط بعد ذلك يأتي وصف هيرودوت المشهور للأهرامات، أبعادها، تاريخها، وبناءها:

"وهكذا في عهد الملك رمسيس قالت الكهنة أنه في ظل القوانين الجديدة أصبحت مصر ذات ازدهار عظيم، إلا أن خليفته خوفو (خيوبس) أوصل البلاد إلى كوارث مظلمة. قبل كل شيء أمر بإغلاق جميع المعابد وحرّم الأصنام وأجبر كل المصرين على العمل لحسابه. كان عليهم جر الأحجار الهائلة من الجبال

العربية إلى النيل لتنقل على ظهر السفن ومن ثم جرها إلى ما يسمى بالجبال الليبية. لقد قام بهذا العمل مائة ألف شخص بشكل مستمر مع تبديلهم كل ثلاثة أشهر. لقد عمل الشعب البائس عشر سنوات في رصف الطريق الذي ستجر عليه الصخور العملاقة، وهذا العمل غير كبير بالنسبة لبناء الهرم نفسه، لأن طول الطريق بلغ ٥ ستاديا وعرضه ١٠ أورغات.

لقد أستمر بناء هذه الطريق عشر سنوات بالإضافة إلى غرف تحت أرضيه أقيمت في الهضبة التي بنيت عليها الأهرامات. في هذه الغرف بنى خوفو مدفنه على جزيرة حيث أوصل مياه النيل بقنوات خاصة، أما بناء الهرم نفسه فأستمر عشرون عاماً. إنه هرم رباعي الوجوه عرض كل وجه ٨ بليفرات وارتفاعه نفس المسافة، وهو عبارة عن أحجار مكدسة ومصقولة بشكل جيد ومتراصة إلى بعضها البعض، يبلغ طول الحجر ٣٠ قدماً على الأقل".

إن واحدات القياس التي استخدمها هيرودوت لم تكن دائماً ذات قيمة ثابتة في مختلف المدن اليونانية وإن بقيت تسميتها ثابتة.

على فرض أنه أستخدم النظام الأثيني عندها سيكون:

١ ستاديا = ١٧٧,٦ متر.

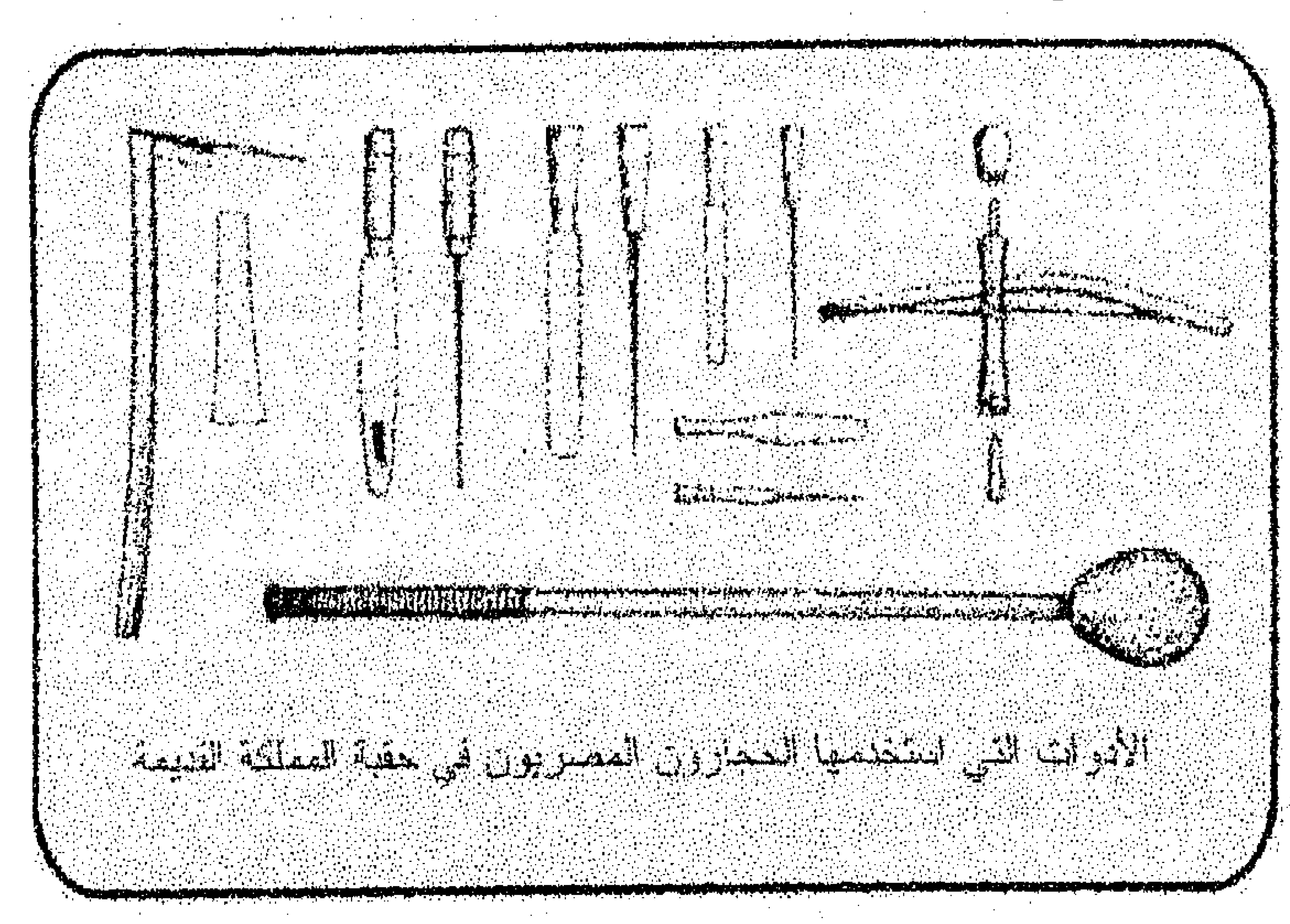
١ بليفر = ٢٩,٦ متر.

١ اورغا = ١,٨ متر.

ويكون طول الطريق ٩٠٠ متر وعرضه ١٨ متر، بالطبع لا يمكننا التحقق من هذه المسافة لأن الطريق لم تعد موجودة الآن.

يبلغ طول القاعدة وفق حسابات هيرودوت ٢٣٦,٨ متر وهذا يقابل الواقع إلى حد مدهش، أما ما يخص ارتفاع الهرم فمعطيات هيرودوت تثير الشكوك، فإذا كان يقصد ارتفاع كل وجه (من منتصف ضلع القاعدة وحتى القمة) فإنه يكون قد أخطأ بمقدار ٤٦ متراً وإذا كان يقصد ارتفاع الهرم وهو الأكثر احتمالاً فإنه يكون قد أضاف ٨٥ متراً، الآن يبلغ ارتفاع هذا الهرم ١٣٧,٣ متر، لكن قمته مقطوعة وبقي

مكانها سطح مساحته ١٠ أمتار مربعة، لهذا السبب الارتفاع الأساسي للهرم أكثر من ذلك ويبلغ ١٤٦,٧ متر. من الواضح أن هيرودوت أخذ هذه المعلومات من محدثيه علماً بأنه كان من الممكن أن يأخذها من كتابات فالس الذي زار مصر قبله بخمسين سنة "وحسب ارتفاع الأهرامات بالاعتماد على طول ظلها".


الأدوات التي استخدمها الحجارون المصريون في حقبة المملكة القديمة

لنستعرض الآن الجانب التقني من وصف هيرودوت لبناء الأهرامات " لقد بنى الهرم السابق كما يلي: في البدء يبنى الهرم على شكل درج مع حواف ناتئة . بعد أن وضعوا الأحجار الأولى (القاعدة) رفعوا الأحجار الأخرى بواسطة سقالات مجمعة من عوارض قصيرة ...وهكذا رفعوا الأحجار من الأرض إلى أول درجة من الدرج، وهناك وضعوا حجراً على سقالة أخرى منصوبة على الدرجة الأولى وبمساعدتها رفعوا الحجر إلى الدرجة الثانية.

كان عدد صفوف الأدراج يساوي عدد وسائط الرفع (سقالات)، يحتمل أنه كانت هناك سقالة رفع واحدة تنتقل دون جهد إلى الدرجة التالية بعد رفع الحجر.

لقد أُخبرتُ عن الطريقتين لذلك قمت بعرضهما.

بهذا الشكل تم في البدء الإنتهاء من بناء قمة الهرم وبعدها شيدوا الوسط ثم أنهوا بناء آخر الدرجات على الأرض.

لقد سأل هيرودوت مرافقيه عن كلفة الأهرامات "هناك كتابات مصرية على الـــهرم تشير إلى كميات الفجل والبصل والثوم التي أكلها العمال ، ووفقاً لما ترجم له أحـــد المرافقين أن ذلك كله كلف ١٦٠٠ تالانت من الفضة"، كل واحد تالانت يساوي فـــي النظام الأثيني أو الإيجي من ٣٥,٩ إلى ٣٧,٦ كغ، أي أن المصاريف تراوحت بين ٤٠٣٠٠ و ٦٠١٠٠ كغ من الفضة وهي تساوي في حينها مـــن ٤٠٠٠ – ٦٠٠٠ كغ من الذهب.

يمكن معرفة القيمة الحقيقية لهذه المعادن إذا علمنا أنه في زمن هـــيرودوت كـــان يمكن شراء ٣٠٠٠ خنزير أو بناء سفينة حربية مقابل تالانت واحد من الفضة.

يتابع هيرودوت "بقي خوفو ٥٠ سنة ملكاً على مصر وبعد وفاته خلفه أخوه خفـــرع (خيفرين). الذي حكم البلاد لمدة ٥٦ عاماً لقد فعل مثل أخيه إذ أنه بنى هرماً ولكـــن لم يصل حجمه حجم هرم خوفو، لقد قست أبعاده بنفسي لم يوجد تحته غـــرف ولا تصله قناة بنهر النيل لقد أمر بجلب أحجار آخر صف من أثيوبيا لأنها كـــانت ذات ألوان متعددة؛ لقد بنى الهرم أخفض من هرم خوفو بأربعين قدماً، كـــلا الـــهرمين يقعان في نفس التلة. بالنسبة لطول قاعدة الهرم، فقد كانت معطيات هـــيرودوت ذات دقة مدهشة وهو يساوي حسبما ذكر ٢٢٤,٨ متر أي كان الخطأ لديه أقل مـــن ٥% مقارنة بالحسابات الحديثة.

إذا تحدثنا عن ارتفاع الهرم فإن حساباته تقريباً صحيحة وهو يساوي ١٤٣,٧ مـــتراً بيـــنما هو في الواقع أقل بثلاثة أمتار من هرم خوفـــو (خيوبس) الذي سموه فـــي ذلك الحين الهرم الأكبر، هذا الفارق في الارتفاع غير ملحوظ بـــالعين المجـــردة. بالإضافة إلى ذلك بُنيَ هرم خفرع على أعلى نقطة من التلة ، حالياً إذا نظرت مـــن إحدى شرفات الجيزة سيبدو هرم خفرع أعلى من هرم خوفو. يعود الســـبب فـــي خداع البصر هذا إلى أن قمة هرم خفرع بقيت كما هي.

"بعد ذلك أصبح منقرع أبن خفرع ملكاً على مصر – حسب قول الكهنة – وهو أيضاً ترك وراءه هرماً أصغر بكثير من هرم أبيه، هذا الهرم أيضاً رباعي بنـــي حتـــى

نصفه من الحجر الإثيوبي، طول ضلع القاعدة أقصر بـــ ٢٠ قدمـاً" هـيرودوت أنقص طول ضلع قاعدة الهرم أكثر من ٢٠ م. بعد ذلك يذكّــر هـيرودوت بـهرم ملكي واحد فقط أمر ببناءه ابن منقرع شيبسيسكاف (اسيخيس) "لكي يتمـيز عمـن سبقه من الملوك خلد نفسه بهرم من القرميد الفخاري نقش على أحد حجارتـــه (لا تضعني تحت الأهرامات الحجرية ، كما الرب زيفـس فـوق الأربـاب الآخريـن أستحق أن أكون فوقها ، لقد غطسوا في البحيرة ومن الوحل الـذي علـق عليـهم صنعوا القرميد وهكذا أقاموا لي النصب)". لقد أَطْلَعَ الكهنة هيرودوت علـى هـذه الكتابة.

لقد بحثنا ملياً في أخبار هيرودوت عن الأهرامات في المنـاطق الأخـرى مثـل : صقارى، داشور، ميدوم، ومناطق أخرى، الإحتمال الأكبر أنه لم يرها، وهو لم يـر أيضاً أبو الهول، يحتمل أنه في ذلـك الوقت كان مطموراً كله بالرمال.



الملك خفرع
باني ثاني أكبر هرم

لقد استرعى اهتمام هيرودوت الهرم المركزي من بين الأهرامات الثلاث المنتصبة أمام الهرم الأكـبر ،"لقـد وصل خفـرع إلـى درجـة مـن الانحطاط - حسب قول الكهنة - أنه عندما أصبح في ضائقة مالية أرسـل ابنته لبيت الدعـارة لتعمـل هنـاك وتجمع النقود.

ـــ لقد نفَّذتْ الابنة مشيئة أبيها لكنـها فكرت هي نفسها بإقامة نصب لها: حيث طلبت من كل زائر يأتي إليها أن يهديـها حجراً واحداً على الأقل لبناء مدفن لها ، ومن هذه الأحجار بني الهرم الذي يتوسـط الأهرامات الثلاث المنتصبة أمام الهرم الأكبر ـــ حسب قول الكهنة المصرين " .

مضى أكثر من أربعمائة عام قبل أن يقف أوروبي آخر عند أسفل الأهرامات وقد وصلت أخباره إلينا لقد تواجد الكثيرون في مصر ولكن كتاباتهم لم تصل إلينا، المعروف بالنسبة لنا هو ديودور الصقلي الذي كتب عن الأهرامات وهو مؤلف لأربعين كتاباً " المكتبة التاريخية " بقي منها خمسة عشر فقط.

كان ديودور يونانياً من مدينة اجيريا الصقليه ولد سنة ٨٠ قبل الميلاد ومات سنة ٢٩ قبل الميلاد يختلف ديودور عن هيرودوت بأنه قرأ أكثر مما ارتحل، ولكن بفضل كتبه وصلت إلينا مجموعة روايات واستشهادات ما كنا سمعنا عنها بدونه.

لقد زار ديودور مصر لأنها قريبة من صقلية ولم يكن هناك فارقاً لغوياً لأن اللغة الحكومية في مصر وقتها كانت اليونانية لقد اختلفت هذا البلد كثيراً عما كان عليه في زمن هيرودوت، لقد طرد الفرس من مصر وأصبح حاكمها الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ قبل الميلاد . بعد موت الإسكندر عام ٣٣٢ قبل الميلاد انتقل الحكم إلى أحد قواد جيشه بتوليمي (الذي حكم في البدء باسم الإسكندر وابتداءً من عام ٣٠٥ ق.م استأثر بالحكم) ثم تولى على الحكم ثلاثة عشر فرداً من سلالته وفي عام ٤٨ ق.م وصل سيزار (وتقلد العرش المصري باسم الإمبراطورية الرومانية) وفي علم ٣٠ ق.م وبعد انتصار أوغست على أنطونيو وكيلوباترا ضم مصر إلى أراضي الإمبراطورية الرومانية، ولكن ما في مصر لم يتغير وكذلك الأهرامات.

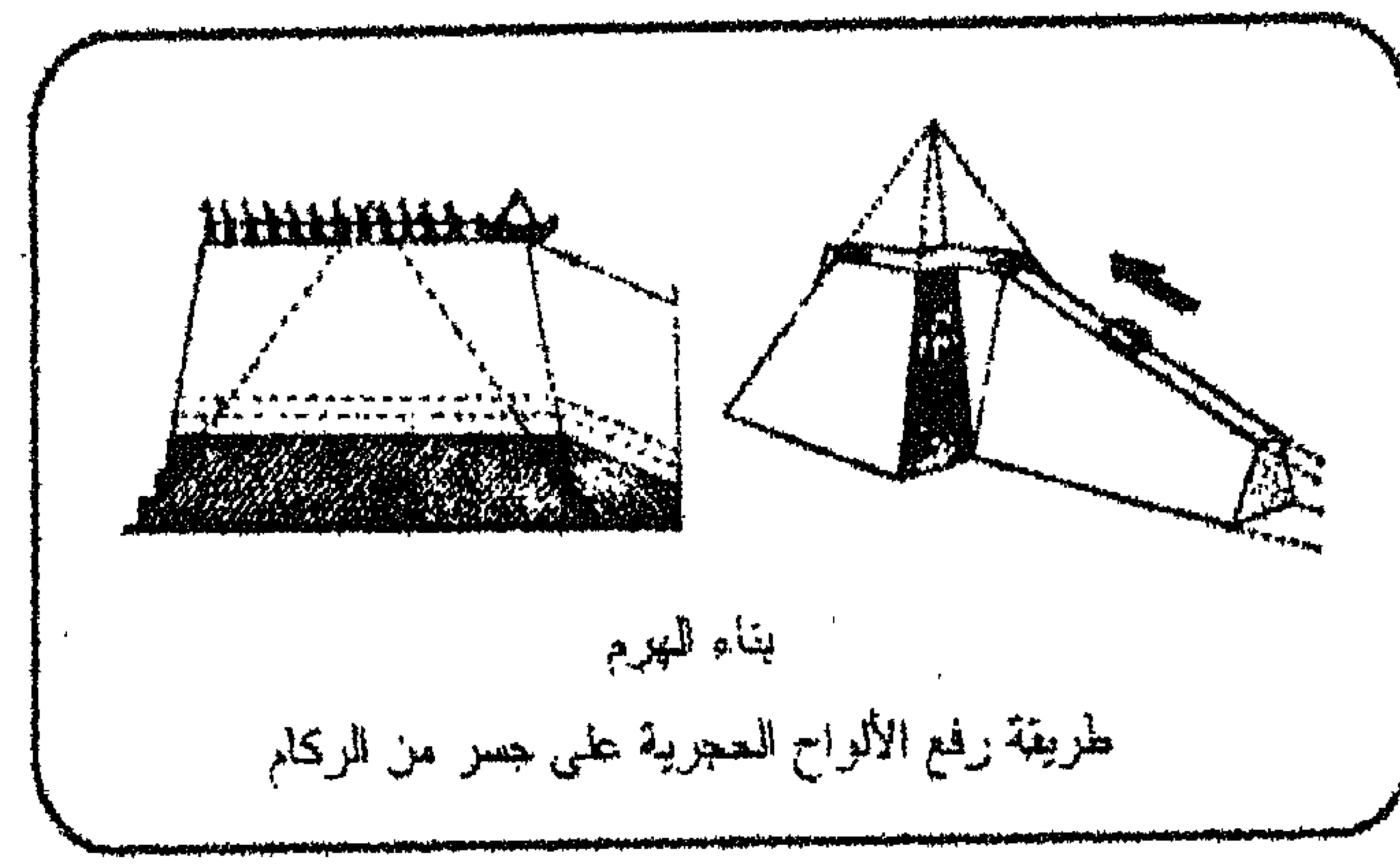
"يبلغ طول قاعدة الهرم الأكبر ٧ بليفرات أما ارتفاعه فأكثر من ٦ بليفرات"ـ هكذا بدء ديودور وصفه للأهرامات .إن معطياته غير دقيقة فقد أنقص طول القاعدة ٢٢٥ متراً وأضاف للارتفاع حوالي ٣٣ متراً، رغم ذلك فإن ديودور يضيف شيئاً جديدا. بدلاً عن القمة المدببة التي حطمت كانت هناك مساحة غير كبيرة.

"...لقد كان يتقارب باتجاه القمة تدريجياً وكان الوجه الواحد مكون من ستة مدرجات وهو مبني من الحجر القاسي الذي يصمد في وجه السنين ، لهذا السبب مضى أكثر من ألف عام حتى الآن {في الحقيقة مضى أكثر من ٣٤٠٠ عام إلى ذلك الحين} ولا تزال الأحجار محافظة على شكلها ولم يلحق بها أذى، يقولون بأن

هذا الحجر جيء به من الأراضي العربية البعيدة وتم بناء هذا الصرح باستخدام جسر من الركام لأن وسائل الرفع لم تكن قد اخترعت آنذاك". بالمقارنة مع هيرودوت قام ديودور هنا بخطوة جيدة فهو أول من ذكّر بعمر الأهرامات مع أن خطأ التقدير كان كبيراً. ذكر هيرودوت فقط أسماء الحكام الذين أمروا ببناء الأهرامات ولكنه لم يشر إلى زمن حكمهم. المعلومة الأخرى الممتعة التي ذكرها ديودور هي حديثة عن الجسور المستخدمة لدفع الأحجار نحو الأعلى.

"الأكثر دهشة أنه مع ضخامة هذه الصروح لا يوجد حولها سوى الرمال فليست هناك أية آثار متبقية لجسور من الركام أو أحجار مكسرة، لذلك يبدو وكأن هذه الصروح لم يبنيها الإنسان تدريجياً بل وكأن إله واحداً قد رفعها فجاءةً على هذه الرمال الشاسعة، مصريون آخرون يحدّثون عن ذلك قصصاً وأساطير مدهشة.

بما أن هذه الجسور مكونة من الأملاح والبوتاسيوم فإن الماء الذي سلط عليها من النهر قد أذابها ولم يترك سوى البناء نفسه، ولكن في الواقع هذا غير صحيح، لأن نفس الأيدي التي بنت أرجعت هذا الركام إلى المكان الذي أخذت منه هذه الأحجار ولأنه كما يقولون أن ٣٦٠٠٠٠ شخص اشتغلوا في أعمال البناء لمدة عشرين سنة".



بناء الهرم

طريقة رفع الألواح الحجرية على جسر من الركام

يذكر ديودور بشكل مقتضب هرمين كبيرين في الجيزة مع اسميهما ولكن بدل خيوبس (خوفو) يكتب (هيمس)، وهو يكرر نفس القصة عن استبداد خوفو وفضائل وعدالة منقرع التي أوردها هيرودوت، إلا أنه يعرض فكرة طريفة: "يفترض أن يندهش المرء من المهندسين

المعماريين أكثر من الملوك أنفسهم لأن المعماريين وضعوا في الأهرامات فكرهم وإبداعهم بينما وضع فيها الملوك ثروتهم التي ورثوها عن الأسلاف والذين جمعوها بدورهم من عامة الشعب".

لقد سعى ديودور إلى معرفة تفاصيل محددة عن الأهرامات لكنه سمع أكاذيب مختلفة حدثه بها بعض المترجمين على مدى يوم كامل لقاء بعض النقود.

"على أية حال لا يوجد رأيا مشتركا بين المؤرخين أو بين المصرين أنفسهم عن نشأة الأهرامات – يثبّت هو مواقع الأشياء التي لم تتغير على مدى ألف عام حسب تقديره – هناك من يعتقد أنها من عمل الملوك المذكورين وهنالك من يعتقد أنها من عمل غيرهم فمثلا يقولون أن الهرم الأكبر شيده أرميا الثاني – أمامسيس – والثالث إينار . يؤكد البعض أن الهرم الأخير بني كضريح لرودوبيس". هنا يتميز ديودور عن هيرودوت بأنه عرَّف برودوبيس على أنها "عشيقة أحد عمال الملك ، ولشدة حبه لها،أمر ببناء هرم لها من خزينة المملكة".

آخر أوروبي زار الأهرامات هو اليوناني سترابون من مدينة بونت (٦٥-٢٥ قبل الميلاد) وكان رحالة عظيم مثل هيرودوت، الكتب السبعة عشر "الجغرافيا" تشهد على صحة تسمية أبو الجغرافيا. لقد كتب عن الأهرامات القليل وبشكل أساسي ما كتبه مواطنيه ومع ذلك أضاف شيئا جديدا، "... واحد منها فقط أكبر بقليل من الآخر – ورد في كتابه السابع عشر – في الأعلى وقربيا من المنتصف بين حرفي الوجه يوجد حجر يمكن تحريكه، إذا ما رفع هذا الحجر يفتح ممر متعرج إلى الضريح". بالفعل يوجد مثل هذا الممر وهو يؤدي إلى الردهات الداخلية ولكن ليس على مستوى منتصف الهرم بل يقع على بعد عدة أمتار من القاعدة، بنفس الوقت وعلى مستوى منتصف الارتفاع توجد قناتين مائلتين للتهوية: واحدة على الوجه الشمالي والثانية على الوجه الجنوبي للهرم وكلتاهما تؤديان إلى حجرة المدفن. يفترض بعض المؤلفين أن سترابون نزل من إحدى هاتين القناتين إلى داخل الهرم، إلا أن ذلك بعيد عن الصحة بتصورنا . وهكذا حتى عام ٧٧٦ ق.م (أولى الألعاب الأولمبية) أو حتى عام ٧٥٣ ق.م (تأسيس

روما) لم ينزل أحد في الأهرامات من غير المصرين ولم يصعد عليها أحد، وحتى الرحالة المذكورين شاهدوا فقط أهرامات الجيزة. أول أوربي نزل في عمق الهرم كان من روما واسمه غاي بليني الصقلي الأكبر٢٣-٧٩ م.

كان إنساناً عظيماً ذو اتجاهات فكرية عديدة، كان مهتماً بالسياسة، بالمعادن، بالرسم، بعلم النبات والحيوان، بالأمور الحربية، بالطب، بالشعر، بالجغرافيا والتاريخ.

وصل إلينا مؤلفه (التاريخ الطبيعي) في ٣٧ كتاب.

نحن نعرف تماماً متى نزل بليني في الهرم وهو يذكر ذلك في الكتاب السادس من (التاريخ الطبيعي) لقد انتبه العلماء إلى هذه الملاحظة فقط منذ مائة سنة، "في داخل الهرم الأكبر توجد قناة بعمق ٨٠ ذراعاً تؤدي إلى نهر كما يفترض". حالياً الآلاف من الزوار لا يستطيعون رؤية هذه القناة دون مساعدة الدليل، مع أنه توجد لمبة نيون مضاءة فوق الفتحة. هذا يعني أن بليني كان شديد الملاحظة، بالإضافة إلى ذلك هو أول من ذكر أبو الهول "إنه عمل فني مدهش، ولكن كيف يمكن ملاحظته وهو محاط بالصمت، إذ أن السكان المحلين يعتبرونه إلهً.

كما يعتقدون أنه دفن تحت أبو الهول الملك خارمايس وأن أبو الهول قد جلب من مكان بعيد. في الواقع هو منحوت من حجر أصم ضخم وأما وجه هذا التمثال الأعجوبة بغض النظر عن تأليهه فكان على شكل فهد أحمر". لقد أنبهر بليني بالأهرامات كعمل من صنع الإنسان ... "وهكذا ننوه بشكل مقتضب عن الأهرامات المصرية بأنها شواهد على الغرور الفارغ الناجم عن الغنى الفاحش لملوك هذه البلاد، والحقيقة كما يقول الكثيرون تم بناء الأهرامات انطلاقاً من القناعات التالية : إما سعي الحكام لإخفاء كنوزهم عن الوارثين والأعداء لأنهم سيصرفونها في الحالتين أو العزم على تأمين العمل للناس. إنها آثار التغطرس الأرعن للملوك والعديد منها بقي دون إتمام".

"كم هي مدهشة وغريبة هذه الأهرامات، أعجب ما فيها أصغرها فهو هرم مثير للدهشة شيدته رودوبيس للتقليل من انبهارنا من الفراعنة".

يبدو أن بليني لم يلتزم الصمت حيال هذه المرأة إذ ذكـر وفقـا لمـا سـمعه أن رودوبيس كانت في البدء عبدة ثم مديرة أعمال لكاتب الأساطير اليوناني ايزوب، بعد ذلك يضيف : "في الحقيقة الأكثر إثارة للدهشـة هـو أن المـرأة وبفضـل اختصاصها استطاعت جمع مثل تلك الثروة".

يعرض بليني المراجع الثقافية التي استخدمها خلال شـرحه عـن الأهرامـات فبالإضافة إلى المؤلفين الذين نعرفهم يسمي سبعة آخرين وكلهم يونانيون، بينـهم الفيلسوف الآثيني وعضـو الحكومـة ديمـتري فـاليرس والمـؤرخ دوريس من سـاموس، الفيلسـوف انتيسـفين وأرسطو.

"جميع هؤلاء المؤلفيـن ـ يكتب بلينـي فـي الخاتمة ـ يعبرون عن عدم سـرورهم مـن الحكام الذيـن شـيدوا هذه الأهرامات كذكرى لشخصهم، حقا إنها عادلة تلك الصدفة التي أدت إلى نسيان أسماء الذين بنوا تلـك الصروح التي لا تصدق لأنفسهم".

مقطع في هرم منقرع
وهو يبين الأنفاق والسراديب التي أخترقها اللصوص

الحقيقة أن تلك الأسماء غير منسية، ما نسي هو لفظها الأصلي، وبعـد انقضـاء مائة سنة عرفت القراءة اليونانية لهذه الأسـماء: خيوبـس (خوفـو)، خفريـن (خفرع)، ميكرين (منقرع)، إلا أن أسماء الفراعنه الآخرين وأصحاب الأهرامات الأخرى الموجودة إلى الآن نسيت، ولكن ليس إلى الأبد: إذ أنه في الوقت الحـالي وبفضل الاختصاصين بحضارة مصر القديمة أصبحت أسماء معظمهم معروفة.

أحد المؤلفين القدماء ترك لنا وصفا دقيقا للأهرامات ألا وهو فيلون البيزنطي، الذي لا نعرف شيئا عنه تقريبا: لا ميلاده، ولا وفاته، ولا الأعمال التي مارسها.

بعض العلماء ينسبون فترة حياة فيلون البيزنطي إلى القرن الثالث والثاني قبل الميلاد، عندما كانت مدينة استنبول تدعى آنذاك بيزنطة، البعض الآخر ينسبه إلى وقت متأخر. لقد وصلنا من نتاجه كتاب واحد فقط "عن عجائب الدنيا السبعة" حتى هذا الكتاب لم يصلنا بالكامل بل وصلنا نصفه تقريبا. في هذا الكتاب يوجد جزء يحتوي على خمسين سطرا حول العجائب في الجيزة عنوانه "الأهرامات قرب ممفيس".

لم يكن فيلون البيزنطي رحالة أو مؤرخا، إنه ينتمي إلى مجموعة الكتاب الذين يكتبون ما عرفوه نقلا عن الآخرين وهؤلاء يوجد منهم الكثير في العصر الحالي.

على أية حال يقول في مقدمة الكتاب صراحة عن كل ما وصف بأنه "شاهده روحانيا فقط".

"بفضل المستوى العلمي الذي عوضه عن ضرورة الترحال وسمح له بالتعرف على المعابد المشهورة في بلده من الكتب". للأسف لم يذكر فيلون أسماء الكتب التي استقى منها المعلومات عن الأهرامات وعلى ما يبدو أن بعض التفاصيل وضعها من مخيلته.

"لقد شط في كتاباته عدة مرات – قال عنه السويسري ، اوريللي الذي وجد كتابه عام ١٨٠٦ م – أما العجائب التي حدث عنها قراءه فقد بالغ ومجد أكثر مما وصف بدقة".

"الأهرامات الواقعة قرب ممفيس – عبارة عن صروح يفوق بناؤها الطاقات البشرية – أما وصفها فهو لا يصدق – يبدأ فيلون الجزء المخصص عن مصر – فهي جبال من الحجر على جبال من الحجر، والعقل غير قادر على فهم كيفية رفع هذه الألواح الحجرية الهائلة إلى مثل هذا الارتفاع وبأي وسائل بنت الأيدي البشرية هذه المنشآت العملاقة. إنها تنتصب على قاعدة صخرية مربعة ومسواة بشكل اصطناعي وترتفع تدريجيا إلى الأعالي".

وعن الهرم الأكبر يقول "يصل ارتفاعه إلى ٣٠٠ قدم أما المحيــط فيســاوي ٦ ستاديا، أما أحجار البناء فهي مركبة ومصقولة بدقة كمالو أن الهرم نحــت مــن صخرة واحدة. لقد استخدمت في البناء أحجار من أنواع مختلفة: ففي مكان تــوى المرمر الأبيض وفي مكان آخر الحجر الأثيوبي الأسود وخلفه الحجر الأحمــر أو الحجر الدموي اللون وبعده حجر مبرقش أو حجر يضيء باخضرار مــن شــبه الجزيرة العربية. بعض الأحجار تذكر بالسماء اللاذوردية الساطعة وبعضها ذات لون أصفر متدرج أو ارجواني"، وهو ينهي وصفه بالكلمات "الناس الذين يبنــون مثل هذه الصروح يرتقون إلى درجة الآلهة والآلهة تتحدر إلى الناس".

الأبعاد التي أوردها فيلون غير صحيحة فعلى سبيل المثال أنقص ارتفاع الــهرم إلى ٨٨,٨ م، ولكن الخبر المدهش الذي أورده عن القاعدة الصخرية المسواة فهو صحيح تماما وقد أكدته أحدث الدراسات.

بعد ذلك العصر هبطت ظلال العصور الوسطى على الأوربيين والمصريين.

الجزء الثاني

الخليفة المأمون والمؤرخون العرب

لقد أصبح عام ٦٤٢ م بداية حقبة جديدة في تاريخ مصر: لقد فتحها العرب، قام عمرو بن العاص قائد جيش الخليفة عمر بن الخطاب عام ٦٤٠ م باحتلال مدينة بيلوسي (فارما) الواقعة على الطرف الشرقي لدلتا النيل، بعد ذلك الحق الهزيمة بالقوات البيزنطية عند القاهرة حالياً، بعد ١٤ شهراً من الحصار زحف على العاصمة الإسكندرية، وفي عام ٦٤٢ م في ٢٩ تشرين الثاني غادر الأسطول البيزنطي ميناء الإسكندرية إلى الأبد وأصبحت مصر أرضاً عربيه.

قبل الفتح العربي كانت مصر لمدة ألف عام جزءً لا يتجزأ من الأراضي اليونانية – منذ أن تسلم الاسكندر عام ٣٣٢ ق.م التاج المزدوج لمصر العليا والسفلى في معبد الإله بتاح.

لقد كانت سلالة بتوليمي الملكية يونانية – مكدونية، والمساعدون يونانيون. لقد شكل اليونانيون الجزء الأكبر من السكان في مصر. كانت الإسكندرية واحدة من أكبر المراكز الثقافية اليونانية. كان الحكام الرومان في مصر يصدرون المراسيم باللغة اليونانية، رغم كل ذلك بدت مصر يونانية فقط من الخارج وفي الحقبة التي حكم خلالها الرومان بدت رومانية.

قبل كل شيء لم يتغير السكان كعرق: لقد كانت المجموعة الأساسية من السكان من المصريين الذين ليس لهم وطناً سوى مصر، بغض النظر عن التأثيرات الجديدة حافظوا على إيمانهم بنمط الحياة التقليدي.

لقد سكن العرب مصر ووضعوا لمساتهم الخاصة على جميع معالمه. لقد عمل العرب على تطبيع المصريين وحدث ذلك دون إجبار.

كان المصريون يميلون إلى المسيحية التي بدأت بدخول بلادهم في منتصف القرن الأول الميلادي حيث وجدت هنا تربة خصبة ـ بسبب التعاليم المسيحية عن

الحياة الآخرة بعد الموت ــ بين الكثير من المصرين وبشكل أساسي بين الفقــراء والفلاحين من غير الملاكين الذين بقوا يؤمنون بالآلهة القديمة.

لم يختلط المصريون المسيحيون أو الأقباط بالعرب وحافظوا على لغتهم وديانتهم، ما تبقى من المصريين دخل الإسلام وانصهر مع العرب في بوتقة واحدة.

لقد سيطرت اللغة العربية بالتدرج وبعد احتلال الأتراك لمصر (عام ١٥٧١ بعــد انتصار السلطان سليم الأول في المعركة التي جرت قرب القاهرة) انقرضت اللغة القبطية نهائيا.

ولكن بقيت للذكرى مجموعة من الكتب الدينية باللغة القبطية، هذه الكتب هي آخر أحقاد المصرين القدماء.

وهكذا ظهر شعب جديد عند الأهرامات التي لم تتغير مع كل التحــــولات التـــي طرأت، فبعد اوغسطين وفيسباســـيان وادريـــا وأبـــاطرة آخريـــن مـــن الـــروم والبيزنطيين أصبح يتردد إلى الأهرامات الخلفاء البغداديون ومعـــهم المؤرخـــون والكتاب العرب. جميعهم انبهروا بالأهرامات معترفين بأنها أعجوبة من العجائب، وبما أنهم لم يتعرفوا على كتب المؤرخين الأوربيين ولم يحصلوا على إيضاحـــات كافية من الأقباط بدؤوا يفكرون.

معلوم أن للعرب خيال خصب فهم أصحاب الروايات الأسطورية الرائعة. ليــــس لدينا أي شيء ضد الخيال والأساطير إذ أننا نهتم في هذه الحالة بشهادات شـــهود العيان والوقائع المدونة في كتب المؤرخين.

"هيرودوت العرب" يدعى رائد المؤلفات التاريخية وأحد أبرز الشخصيات العلمية ألا وهو ابن المسعودي الذي ولد في نهاية القرن التاســـع وتوفـــي ســـنة ٩٥٦ م الموافق ل ٣٤٥ هجرية.

كما هيرودوت وضع المسعودي مؤلفاته في عدة مجلدات حيث أهتم إلى جـــانب التاريخ بالجغرافيا والأثنوغرافيا، كما أن اهتماماته لم تنحصر بالعالم العربي.

في عمله هذا وصف لنا المسعودي بشكل دقيق الأهرامات، وذلك من خلال مشاهداته والأخبار العربية القديمة عن بناءها ولكن للأسف دون معرفة المصادر الدقيقة لهذه الأخبار.

"سوريد بن شالوك بن سيرمون بن ... إلخ أحد ملوك مصر القديمة قام ببناء هرمين كبيرين قبل الطوفان الأكبر. من غير المعلوم كيف سمي هذان الهرمان لاحقا من قبل رجل اسمه شداد بن عاد علما بأنهما لم يبينا من قبل قوم عاد لأنهم لم يكونوا قادرين على فتح مصر كونهم لم يمتلكوا القوة التي امتلكها المصريون.

إن ما دعا سوريد إلى بناء الأهرامات هو الحلم الذي شاهده قبل ٣٠٠ عام من الطوفان. لقد رأى الأرض مغمورة بالمياه والناس بلا حول ولا قوة يتخبطون فيها ويغرقون، ورأى النجوم تضل طريقها مضطربة وتسقط من السماء بضجيج هائل. مع أن هذا الحلم ترك في نفس الملك أثرا كبيرا إلا أنه لم يحدِّث به أحدا، ولحدسه بالأحداث الكارثية دعى إليه الكهنة من مختلف مناطق بلاده وقص عليهم ما رأى سراً". قال له هؤلاء أنه ستحل على البلاد كارثة عظيمة وبمرور سنوات كثيرة ستعود الأرض لتعطي الخبز والبلح، "عندها قرر الحاكم بناء الأهرامات، أما نبوءة الكهنة فأمر برسمها على الأعمدة والألواح الحجرية الكبيرة".

في الردهات الداخلية للأهرامات خبئ الحاكم الكنوز والأشياء الثمينة مع أجسام أسلافه، كما أمر الكهنة بترك كتابات تشهد على حكمته وعلى تطور العلوم والفنون في بلاده، بعدها أمر ببناء ممرات تحت أرضيه تصل إلى مياه النيل، لقد ملء جميع الردهات الداخلية للهرم بالطلاسم والأصنام وأشياء أخرى ذات تأثير سحري وكتابات بيد الكهنة تحتوي على جميع فروع المعرفة وتسميات وخواص النباتات الطبية ومعلومات عن الحساب والقياسات،جميع هذه الأشياء ظلت محفوظة لمن يسيطيع فك رموزها". بعد ذلك يعطي المسعودي وصفا لأهرامات النيل الثلاث، أي أهرامات الجيزة. لم يورد أي أبعاد لكنه أعطى بعض التفاصيل الأخرى الممتعة.

أما الهرم الأول ويقصد هرم خوفو فتوجد فيه "قاعات ذات أعمدة مبنية من ألواح حجرية متصلة فيما بينها بالرصاص"، في الهرم الغربي (يحتمل هرم خفرع) توجد "ثلاثة عشر ردهة للطقوس الدينية والطلاسم من الياقوت الأزرق، وللأسلحة التي لا تصدأ وحاجيات أخرى مصنوعة من الزجاج الذي لا ينكسر"، في الهرم الثالث "الملون" (أي هرم منقرع، لأن القسم السفلي منه يحتوي على أنواع من الغرانيت الزهري) توجد "أجسام الكهنة في توابيت من الغرانيت الأسود وبالقرب من كل جسد يوجد كتاب دونت فيه أسرار اختصاص الكاهن ونشاطه خلال حياته".

"لقد عين الحاكم على كل هرم حارسا واحدا: كان حارس الهرم الشرقي تمثالا منحوتا من الغرانيت مزودا بسلاح يشبه الرمح وكان يختبئ في جبهة التمثال ثعبانا متأهبا للإنقضاض على أي شخص يقترب من الهرم ليتلف على رقبته ويخنقه ثم يعود إلى مخبئه، كان حارس الهرم الغربي مصنوعا من الأونيكس الأبيض والأسود جالسا على كرسي ومسلحا برمح وكان يرسل شرارا من عينه مع صوت مدو يموت على أثره حالا كل من يقترب من مدخل الهرم، بالنسبة للهرم الملون كان حارسه تمثالا على قاعدة يتمتع بقوة تستطيع أن تصرع وتقتل أي شخص، بعد الانتهاء من البناء وضع الحاكم الأهرامات بأمرة الأرواح وأمر بتقديم الأضاحي لها، وهكذا حرم الحاكم دخول الغرباء إلى الأهرامات عدا الذين يستحقون الحصول على هذا التكريم".

على ما يبدو كان نظام الحراسة المذكور يعمل في زمن المسعودي، "لقد شوهدت روح الهرم الشمالي على شكل شاب غير ملتح ذو أسنان طويلة وجلد مصفر، روح الهرم الغربي كانت على شكل امرأة عارية تجذب إليها الناس وترسل فيهم الأمراض ويمكن رؤيتها في منتصف النهار تماما وعند الغروب، أما روح الهرم الملون فكانت على هيئة شيخ يطوف حوله ويضرم النار في وعاء يشبه مشعلا في معبد مسيحي".

في خاتمة أخباره يقول المسعودي أن سوريد كتب بحروف عربية على الأهرامات الكلمات التالية: "أنا سوريد بنيت هذه الأهرامات على مدى ٦٠ سنة فليحاول من يأتي بعدي أن يدمرها خلال ٦٠٠ سنة علما أن التدمير أسهل من البناء، لقد قمت بإكساء الأهرامات بالحرير فليحاول من يأتي من بعدي أن يكسيها بالقماش الرخيص".

لقد كرر أكثر من ستة مؤرخين عرب هذه القصة وبعضهم نقلها حرفيا والبعض الآخر قام بتزيينها. لعل أكثر التفاصيل خيالية هي تلك التي أوردها إبراهيم وصيف شاه في كتابه "تاريخ مصر وعجائبها" الذي صدر في القرن الثاني عشر. إلا أن أخبار الأهرامات لم تأتً إلينا عن طريق المؤرخين فقط، لقد وصلنا أقدم خبر عنها عن طريق عالم الفلك البلخي أي عن طريق شخص اعتاد على المراقبة والتفكير بعقلانية.

اسمه الكامل أبو معشر جابر بن محمد بن عمر البلخي، عرف في أوربا تحت اسم (أبو ماهر). في عام ١٤٨٨ م وفي مدينة اوركسبورغ ظهرت النسخة اللاتينية لمؤلفه "الألوان الفلكية" وبعد عام ظهرت كتبه "عن الأحداث العظيمة" وفي عام١٥٠٦ م طبع في مدينة فينبسا مؤلفه "المقدمة في علم الفلك". ولد أبو معشر في مدينة البلخ وتوفي في بغداد سنة ٢٧٢ هجرية أو ٨٨٦ ميلادية.

رسم للهرم يعود إلى مؤلف عربي مجهول من القرن الثامن

وصلتنا مقالة له عن الأهرامات من كتابه "ألف وآلاف غيرها":

" الرجال الحكماء الذين تنبؤا قبل الطوفان بقصاص السماء بالماء أو النار وأنه لن يبقى بعد ذلك مخلوق حي على وجه الأرض، قاموا ببناء مجموعة من

الأهرامات الحجرية في مصر العليا على قمم الجبال علها تكون ملاذا من الكارثة التي تهددهم. تميز هرمان منها بالارتفاع الشاهق أما البقية فقد وصل ارتفاعها إلى أربعمائة قدم ومثلها طولا وعرضا. بلغ طول وعرض كل حجر من ثمانية إلى عشرة أذرع وهي مرصوفة إلى بعضها البعض بشكل لم يترك معه أي فراغ. كتب على هذه الأهرامات من الخارج "لقد بنينا، لكن من يعتبرنفسه قويا فليدمرها، مع أن التدمير أسهل من البناء".

بالطبع هنالك الكثير مما ورد لا ينطبق على أرض الواقع فمثلا المسعودي يقول أن الرصاص كان يربط بين أحجار الأهرامات ، لكن المصرين القدماء لم يعرفوا الرصاص أو الحديد في ذلك الوقت. في المراجع المصرية لم توجد أسطورة واحدة حول الطوفان العالمي (علما أنها وردت عند أربعين من الأمم) وهذا غير مثير للدهشة لأن الرواسب التي يلقي بها نهر النيل كانت تجلب لهم الحياة وقد اعتبروا أن بلادهم هي (هدية النيل).

لقد دفع حب الذهب كولومبوس إلى اكتشاف أميركا ودفع الكيميائيين لتسليم أرواحهم إلى الشيطان في سبيل تحويل المعادن البخسة إلى ذهب.

يذكر التاريخ أن أول حاكم دخل الأهرامات للحصول على النفائس كان الخليفة المأمون بن هارون الرشيد. في عام ٨٣١ م وصل المأمون إلى مصر، كانت الأهرامات معروفة له من خلال أحاديث والده الذي زارها عدة مرات وأنبهر بها.

لقد سمع المأمون أساطيرا كثيرة حول الكنوز المخبأة بها، لذلك قرر الحصول على هذه الكنوز، وفي عام ٨٢٠ أو ٨٣١ م بدأ العمل.

عبثا حاول مستشارو القصر تنبيهه إلى أن الأهرامات تقع تحت حراسة الأرواح التي تقتل أي شخص يحاول الدخول إليها، وعبثا حاول قواد جيشه إقناعه بعدم وجود مدخل للأهرامات ، لكنه أغلق أذنيه في وجه الاختصاصين في تدمير الحصون المعادية، الذين قالوا أن اختراق الأهرامات فوق الطاقة الإنسانية.

"إن الله عظيم، قادر حكيم: لقد أعطاني مقادير الحكم وسوف يحميني في هذه الدار وفي الدار الآخرة، سوف تتحقق كلمات القرآن الكريم التي وردت في سورة الأعراف حيث قال تعالى:

"... ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون".

لقد اختار المأمون أكبر هرم لاعتقاده بأنه يحوي على أكبر كنز، لم يكن هناك مدخلا، لقد سد بالطوب في العصور الرومانية أو كان مفتوحا وسدته الرمال.

عندما لم ينجح في العثور على المدخل أمر المأمون بجلب الأسلحة الخارقة للجدران، وبعد تفكير غير طويل قرر العمل في الجهة الشمالية!، من الصعب القول إن كان هذا صدفة أم أن المستشارين الحربين أقنعوه بالعمل في الظل، على أية حال كان هذا الاختيار موفقا إلى حد غير عادي.

بعد أسابيع من العمل المضني تبين أن الأرواح تحمي الأهرامات بالفعل إذ لم يستطيعوا اختراقها إلى أن قال أحد العاملين في الأحجار بأن الخل المغلي يأكل الحجر.

أمر المأمون بجلب كل احتياطي الخل والحطب بالإضافة إلى المراجل اللازمة، لقد اختفى الذباب من المنطقة المجاورة للأهرامات لوقت طويل وكذلك الأرواح التي تحرسها على ما يبدو.

لقد تصدعت الأحجار المصقولة، التي كانت تلبس الهرم، ووضعت المخول في الشقوق وهكذا سار العمل على ما يرام ، لقد سقطت الألواح الحجرية من ارتفاع عشرة أمتار على الأرض محدثة دويا هائلا، في النهاية فتحت في الهرم ثغرة على شكل قمع كما لو أنها حدثت من جراء قنبلة وهكذا نجحت الفكرة المطروحة.

لكن هذا العمل المضني لما كان جلب الحظ للخليفة المأمون لولا الصدفة البحتة، لقد حوّلوا العمل إلى عدة أمتار إلى اليسار ولولا ذلك لما استطاعوا أبدا النفاذ إلى داخل الهرم. لقد نزع العمال من الهرم أكثر من ٢٠٠ لوح من الأحجار، التي

يزن كل منها عدة أطنان باستخدام التقنيات الحربية التي كانت مستخدمة آنذاك بما فيها السلاح الكيمائي مثل الخل.

كلما نزعوا لوحا ظهر خلفه لوح آخر، وفجأة لم يسقط أحد الأحجار إلى الخارج، بل سقط إلى الداخل، وكانت تلك لحظة عظيمة.

يمكننا أن نتخيل قلق الجنود وفرح المأمون عندما دوى صوت الحجر الساقط، وهكذا اتجهت كل الوسائط الخارقة للجدران إلى هنالك، حيث أحدثت فتحة وأدلي بحبل إلى الداخل وهبط أحد المتطوعون إلى عتمة الهرم مع مشعل.

لم يكتب أحد عما وجده ذلك الشخص في الهرم، ولم يعرف ما رآه الخليفة المأمون عندما دخل بنفسه إلى هنالك.

من المحتمل أن هذه الفتحة كانت تؤدي إلى الدهليز الكبير الذي كان يؤدي بدوره إلى قلب الهرم حيث يوجد ضريح خوفو.

وهكذا وصل الخليفة المأمون إلى تلك الردهة بطريق أقصر من تلك التي كان يسلكها خوفو نفسه ليتفقد المكان الذي سيرقد فيه جثمانه.

لم يذكر أي مرجع من مراجع المؤرخين في تلك الحقبة ما وجده المأمون داخل الهرم، كان القيسي (القرن الثاني عشر) أقرب المؤرخين إلى ذلك العصر وقد كتب ما يلي: "... لقد عثر في ممر ضيق على تابوت يشبه تمثال رجل منحوت من الحجر الأخضر، عندما أحضر هذا التابوت إلى الخليفة وفتح الغطاء، ظهر تحته جثمان رجل في درع وخوذة من الذهب المرصع بالأحجار النفيسة، كان قابضا بيده على سيف مرصع وعلى جبهته توهجت ياقوتة حمراء بحجم بيضة الدجاج، وقد أخذ الخليفة هذه الياقوتة لنفسه".

يؤكد القيسي "لقد رأيت هذا التابوت بأم عيني وهو يشبه التمثال ،حيث أوقف عند باب قصر الخليفة عام ٥١١ للهجرة (١١١٧-١١١٨ م) ".

بالطبع لم يعجب الخليفة المأمون ما وجده بعد تلك الجهود المضنية وهو سوف يري هذه الأهرامات.

لقد ظل الناس لمائة عام يتحدثون عن حرب المأمون مع الأهرامات.

لقد دخل المأمون إلى الهرمين وكتب عن ذلك ما يلي: "في الهرم الأول الغربي وجد ثلاثين ضريحا من الغرانيت الملون مملؤة بالأحجار الكريمة، أدوات الزينة الفاخرة، تماثيل رائعة الجمال وسلاح بديع دهن بمادة تحميه من الصدأ إلى حين الحياة الأخرى. في الهرم الآخر وجدت كتابات للكهنة على ألواح غرانيتيه، كانت تبين ما يعرفه كل كاهن في الحكمة والنشاطات التي مارسها خلال حياته. لكل هرم حرس خاص يقوم بحراسة الكنوز ويحمي الهرم من أي تدخل غريب".

لم يستطع الخليفة تحمل الفشل ولم يتمالك نفسه من الحنق، لذلك قرر مسح الأهرامات من على وجه الأرض، وبدأ بالهرم الثالث "منقرع" كونه أصغر الأهرامات.

- لنعطي الآن الكلمة للمؤرخ المشهور ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦ م).

يذكر ابن خلدون بولع هارون الرشيد أبو المأمون بالتدمير وذلك في كتابه " "زمن المماليك" حيث يكتب:

"أقسم بالله سوف أدمر هذا البناء" ــ صرخ هارون الرشيد أمام قصر الشاه الفارسي ــ وهاهو يبدأ بتدمير القصر، حيث جمع لهذا الغرض عددا من العمال الذين استخدموا المعاول. لقد أحرقوا البناء بالنار وصبوا فوقه الخل، إلا أن كل ذلك لم ينفع وبقي البناء منتصبا، وللهروب من السخرية والخزي أرسل الرشيد إلى يحيى بن خالد (مستشاره الذي كان في السجن آنذاك) يسأله إذا كان عليه أن يرجع عن عمله أم لا، أجابه يحيى "يا أمير المؤمنين تابع ما بدأت به كي لا يقول أحدهم أن أمير المؤمنين وقادة العرب ليس لديهم القوة على تحطيم ما بناه غير العرب".

وافقه الرشيد على هذا ومع ذلك لم يستطع هدم القصر.

هذا ما حصل مع المأمون أيضا عندما حاول هدم الأهرامات المصرية. فمع أنه أرسل مجموعة من العمال لهذا الغرض، إلا أنه لم يلاق النجاح.

توزع العمال وبدؤوا بتحطيم الحجر تلو الآخر إلا أنهم وصلوا إلى الممر الفاصل بين الجدارين الخارجي والداخلي.

لم يدخلوا أكثر من ذلك ولم يستطيعوا هدم الهرم.

يقال أنه نتيجة لتلك الجهود المبذولة ظهرت فتحة يمكن رؤيتها إلى الآن. هنالك من يقول أن المأمون وجد بين الجدارين كنزا مخبأ.

بعض الكتاب وعلى وجه الخصوص الطبيب البغدادي المشهور عبد اللطيف البغدادي (١١٦١ – ١٢٣٠ م) ينسبون محاولة هدم الأهرامات إلى خليفة آخر، إلى الملك العزيز ابن صلاح الدين.

لقد كان عبد اللطيف البغدادي معاصرا للملك العزيز، لذلك تعتبر أخباره صادقة وموثوقة إلى حد كبير.

"قام عدة رجال مقربين من الملك العزيز وهم أناس معدومي العقل والتفكير السليم بإقناعه بضرورة هدم الأهرامات. وهكذا أرسل الفاعلين وعمال المقالع من أجل هدم الهرم الأحمر (أي منقرع) بإشراف بعض السادة المقربين والوجهاء.

قاموا بتنظيم معسكر للعمال الذين أتي بهم من مختلف أنحاء البلاد واستمر العمل ثمانية اشهر دون توقف وقد كلف ذلك الكثير من المال. بكثير من الجهد والعناء وباستخدام المعاول والمخول استطاعوا كل يوم أن يحركوا حجرا أو اثنين ثم كانوا يجرونها بالحبال إلى أسفل، في أحد الأيام عندما أقتلع حجر عملاق ووقع نحو الأسفل سمع دويه لعدة كيلو مترات عن الهرم واهتزت الجبال كما لو أن زلزالا قد وقع.

بالنهاية استنفذ العمال كل قواهم وتركوا العمل متفهمين عدم جدواه. بغض النظر عن الجهد المبذول ترك هذا العمل أثرا غير ملحوظ، وهو عبارة عن فتحة تلاحظ فقط عن قرب.

وهكذا كان الخليفة المأمون أول شخص يدخل إلى الهرم بعد فتح العرب لمصر.

إن المؤرخ القيسي الذي أعطى اهتماما خاصا لخلفاء العصر العباسي دون حديثا لأحد معاصري تلك الحقبة وهو الذي نزل داخل الهرم الأكبر بعد فتحه مباشرة، أي في النصف الأول من القرن التاسع.

"وجد هناك غرفة مربعة الشكل ذات سقف على شكل قبة يوجد خلفها ممر بعمق عشرة أذرع وكان عرضه يكفي لمرور شخص، في كل زاوية من زوايا الغرفة يوجد باب وجميع هذه الأبواب تؤدي إلى ردهة واسعة تمددت فيها أجساد الموتى، كان كل جسد ملفوف بعدة طبقات من القماش الذي أصبح قاتما من القدم. لقد بقيت أجساد جميع الموتى محفوظة بشكل كامل، كان على رؤوسهم شعر لم تكن فيه أية شعرة بيضاء، لذلك تولد انطباعا بأن هذه مجموعة من الناس كانوا من الشبان.

توضعت أجسادهم بشكل متراص الواحد تلو الآخر وعندما حاول رفعها تبين أنها خفيفة كالهواء. قال أيضا بأنه كانت هناك أربعة دهليز مملؤة بالجثث الإنسانية وأن المكان برمته كان ممتلئا بالوطاويط.

وقد لاحظ أيضا أنه دفنت بها حيوانات مختلفة، وقال أيضا أنه وجد قطعة من القماش بطول ذراع مصنوعة من مادة قطنية ورقية بيضاء كالثلج مطرزة بالحرير ملفوفة بشكل عمامة وعندما فتحها وجد فيها نورسا ميتا لم تفقد منه ريشة واحدة وكأن الروح قد فارقته للتو.

من الغرفة المذكورة ذات القبة كان يمكن الصعود إلى أعلى حجرة في الهرم عن طريق ممر عرضه خمس خطوات ولكن دون درج، كان هذا الممر يؤدي إلى معبر ضيق دفن في نهايته الفرعون.

لا يمكن أن يلام هذا الشخص على أن هذا الخبر غير واضح، بالفعل توجد غرفة مربعة ذات سقف على شكل قبة، صحيح أنه لا يوجد فيها أية أبواب في الزوايا، ولكن توجد ممرات تؤدي إلى دهليزين ضيقين جدا. بالفعل كان يمكن من هذه الغرفة الوصول إلى أعلى غرفة في الهرم أي مرقد الفرعون خوفو، وكان وصف المومياء متقنا ومعبرا للغاية.

في هذا الخبر يوجد شيء خاص مثير للدهشة وهو ما ذكره عن ممر بعرض خمسة خطوات دون درج.

وهو أول تذكار عرفناه عن السرداب الكبير الذي يعتبر واحدا من أكثر معالم هرم خوفو إثارة للدهشة.

أخيرا يوجد أيضا خبر صحيح يعود إلى أحد زوار أهرامات الجيزة . كتب هذا الخبر المؤرخ عبد اللطيف في كتابه "روايات عن مصر". في نهاية القرن الثامن عشر ترجم هذا الكتاب وطبعه المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي.

"بنيت الأهرامات من حجارة هائلة طولها من عشرة إلى عشرين ذراعا وارتفاعها من ذراعين إلى ثلاثة وكذلك عرضها، إلا أن ما يذهل هو الصقالة والإتقان ، التي نحت وركب بها الحجر.

لقد ركبت هذه الألواح الحجرية متراصة بحيث أنه لا يمكن أن يمر دبوس بينها أو حتى شعرة.

هذه الألواح يتصل بعضها بالآخر بواسطة خليط لا تتجاوز سماكته الورقة، لا أعرف ما هو هذا الخليط وتركيبه مجهول بالنسبة لي.

الأحجار مغطاة بكتابات قديمة لا يستطيع أحد قراءتها في أيامنا هذه، في مصر كلها لم أقابل شخصا يستطيع قراءة هذه الكتابة أو يعرف مثل هذا الشخص.

توجد مجموعة هائلة من الكتابات وإذا أراد شخص ما أن ينقل الكتابات الموجودة على سطوح الهرمين الكبر ين لتوجب عليه ملئ أكثر من عشرة آلاف صفحة".

بغض النظر عن الأساطير التي كتبها العرب عن الأهرامات فقد أعطوا معلومات صادقة وأمينة جدا عن نشأة هذه الصروح الهائلة مجردة من الخيال.

لنقرأ كلمات ابن خلدون التي كتبها في القرن الرابع عشر أي قبل مائة عام فقط مِن تلك الحقبة التي صور بها الفينيسيُّون الأهرامات على أنها "مخازن يوسف (ع) " كما ذكر في الكتاب المقدس.

"أعرف بأن كل منجزات الشعوب القديمة ظهرت فقط بفضل العمل الدؤوب والجهد اليومي لمجموعات من العمال، فقط لهذا السبب كان من المستطاع بناء هذه المعالم والصروح، لذلك لا يجب اعتبار أشياء كهذه مقدسة لأن المسألة تتلخص في كون أسلافنا أقوى منا.

إن الكائنات الإنسانية تختلف عن بعضها البعض ولكن ليس بمقدار المعالم والصروح التي تركتها.

لقد استخدم المتحدثون هذا الموضوع من أجل ملئ تاريخهم بالمبالغات، هم لم يفهموا أنه فقط بفضل التنظيم الاجتماعي الرفيع والعمل اليومي الدؤوب تم بناء هذه المعالم العملاقة.

أما هؤلاء المحدثون فيعزون القدرة على إنشاء هذه الأبنية إلى قوة الناس القدماء التي استمدوها من أجسامهم ولكن الأمر ليس كذلك".

لزمن طويل لم يستطع العرب الإخبار بأي جديد عن الأهرامات، لكن ما نقلوه ليس بقليل وتبين أن أخبارهم كانت ثمينة للغاية.

الجزء الثالث

المغامرون والجنود والباحثون عن الكنوز

في الألف الأول بعد فتح العرب لمصر نادراً ما زار الأوربيون الأهرامات، لم تنقطع اللقاءات بين مصر وأوربا بشكل نهائي، إلا أنها كانت نادرة في البدء.

لقد واظب البيزنطيون على هذه الزيارات، حيث استأنفوا تجارتهم مع مصر بعد طردهم منها بقليل ولكن بشكل أساسي من خلال الموانئ السورية ،حيث تحاشوا السفر إلى مصر بشكل مباشر.

لاحقاً وفي مجرى النيل أصبحت تظهر سفن التجار الفينيسيين والجنويين، الذين حملوا إلى أوطانهم إضافةً إلى البضائع ومختلف الأدوية أنباءً عن مصر، إلا أنّ هذه الأنباء كانت سطحية جداً وغير صادقة إلى حد بعيد.

بشكل عام في تلك الحقبة قليل من ذهب إلى أبعد من الإسكندرية، حتى أنّ الصليبيّون لم يزحفوا إلى عمق الأراضي المصرية.

لقد كانت الغزوات الصليبيّة مغامرة سيئة لأوربا في الشرق الأوسط. في البدء لم تمسّ هذه الغزوات مصر، كان هدفها المعلن رسمياً تحرير الأرض المقدسة من الكفّار.

هؤلاء الكفار كانوا الأتراك السلاجقة الذين احتلوا هذه الأرض عام ١٠٥٥ م ثم أخذ الصليبيون القدس منهم عام ١٠٩٧ م.

بعد ذلك في نهاية القرن الثاني عشر استرد الأيوبيون الذين حكموا مصر جزءاً كبيراً من سورية وفلسطين.

في عام ١٢٠٢ م نظم البابا انوكينتي الثالث حملة صليبية ضدهم. لقد كان هدف هذه الحملة وهي الرابعة احتلال الإسكندرية، ولكن نتيجةً لدسائس الفينيسيين تحرك الصليبيون باتجاه القاهرة وحاصروها بشكل مخيف.

في عام ١٢١٩ م زحفت الحملة الصليبية الخامسة نحو الأراضي المصرية واحتلت مدينة دمياط الواقعة عند الفرع الشرقي لنهر النيل إلاّ أنهم سرعان ما طُردوا منها بعد فترة من الزمن وفي عام ١٤٢٩ م قامت الحملة الصليبية السابعة بقيادة ملك فرنسا لودفيك الرابع حيث وقع في الأسر أثناء سير المعارك وافتدى نفسه بمبلغ هائل من المال وانسحبت فلول هذه الحملة نحو عكّا.

في هذه الأثناء دخل مصر عدة آلاف من الأطفال الأوروبيين. يعود السبب في ذلك إلى الرهبان الذين نشروا فكرةً مجنونة مفادها أنّ الأطفال ينجون في الحرب ضد الكفار أكثر من الرجال الآثمين.

في عام ١٢١٢ م اجتمع ١٥ ألف طفل بقيادة ستيفان من مرسيليا وعمره ١٢ عام للسياحة باتجاه الشرق، جزء من الأولاد لقي مصرعه أثناء عاصفة بحرية، أما الباقي فقام الفلاحين ببيعهم إلى تجار العبيد المصريين.

بنفس الشكل تقريباً انتهت الحملة الثانية المؤلفة من عشرين ألف طفل قادهم كلاوس من مدينة كيلن. لم يعد أحد منهم إلى أوربا أبداً، وحتى لو رأوا الأهرامات المصرية لم يصل عنهم أي خبر.

في نهاية القرون الوسطى كان كتاب "رحلة منويل" عن مصر أكثر الكتب انتشاراً في أوروبا، كان مؤلف هذا الكتاب على الأغلب الطبيب جان دي بورغون الذي عاش في نهاية القرن الرابع عشر والذي كما يعتقد عدد من العلماء أنّه من المحتمل أن يكون قد زار مصر.

" الأراضي المصرية طويلة وضيقه وهي تقع على ضفاف نهر النيل، الذي يلقي بها الطمي أثناء فيضانه. لا يسقط المطر أو الثلج ولا يتشكل الندى أو الرعد أو البرق فوق الأراضي المصرية والطقس دائما صحو".

إضافة إلى أسماء المدن والمناطق التي وردت بدقة كبيرة وأن "الناس هنالك يؤمنون بمحمد" وأنه "يوجد أيضاً مسيحيون" وهم "يتزينون باللونين الأحمر والأسود مثل المغاربة" يمكن أن نقرأ أيضاً " يوجد في الصحراء المصرية الكثير

من سكان الصحراء المقدسين والنسّاك الزاهدين ، ومثلهم غالباً ما يرى العديد من الأشياء العجيبة".

بينها على سبيل المثال: "إحدى الأشياء على شكل إنسان ذو قرون حادة كبيرة"، وهي "شبيهة بالرجل من الأعلى وحتى الصرّة ومن الأسفل شبيهة بالماعز".

هناك يمكن رؤية "الطائر الوحيد على وجه البسيطة ألا وهو العنقاء". هذه الإمكانية تحدث مرة واحدة كل خمسمائة عام، فبعد أن يحترق الطائر يتحول إلى رماد ومن ثم يُبعث طائراً حياً.

"قال لي الكهنة، الذين يعرفون اللغة القديمة نقلاً عن مخطوط يقول: هكذا كان يحدث وسوف يحدث".

يتواجد أيضاً "طائر أسطوري ذو تاج ذهبي وجناحين ذات لون ناري". المؤلف نفسه يؤكّد أنه "رآهما بأم عينيه مرتين"، إلا أنه لم ير الأهرامات أبداً أو يسمع عنها، نفس الشيء حصل مع مارتن كابا تنيك، الذي تواجد بالفعل في مصر في نهاية عال ١٤٩١ م وبداية ١٤٩٢ م.

في كتابه "رحلة من بلاد التشيك إلى القدس والقاهرة" يذكر المؤلف أنه صعد على قلعة السلاطين الكائنة في القاهرة.

"من هناك فقط وليس من أي مكان آخر رأيت مصر أوضح ما يكون، حيث وقفت على حائط ونظرت إلى البلاد الممتدة وسط الأراضي الرملية المنبسطة ولم توجد هناك أية هضاب أو غابات... وكان ذلك في منتصف النهار تقريباً حيث كانت السماء صافية تماماً".

من هذا المكان بالذات وحتى في ظروف الطقس السيئة يمكن رؤية أهرامات الجيزة ,أبو صير, صقارى والداشور، ولكن لسبب ما لم يلاحظها المؤلف.

في الواقع إن أول كتاب علمي عن مصر والأهرامات هو كتاب "كوسموغرافيا" لسبستيان ميو نستير، الذي صدر عام ١٥٤٤ م. الكاتب ألماني الجنسية ناسك سابق ومؤيد للإصلاحات.

مع أنه لم يتواجد بنفسه في مصر إلا أنه كعالم جغرافي حصل على معلومات كافية عنها من الكتابات القديمة ووضع أول رسم حديث للأهرامات، "الهرم عبارة عن برج رباعي الحروف يرتفع عالياً، وابتداء من القاعدة وبزيادة الارتفاع يصبح البرج أضيق".

"هذه الأهرامات أو الأبراج شُيّدت في مصر كما قال سولون بأيد بشرية وهي تنتصب على هضبة صخرية تقع إلى الشمال من ممفيس. أحد الأهرامات كما كتب سترابون طول محيطه ١٠١٥ خطوة، مع أنه يوجد العديد منها في الأراضي المصرية، إلا أنه لا يوجد أثمن من هذه الأهرامات الثلاث، التي انتشر مجدها في أرجاء المعمورة وقد اعتبر اثنين منها من عجائب الدنيا السبعة".

بالتمحيص خلف ميونستر تبين أنه رسم الهرم حسب وصف شاهد عيان.

في عام ١٥٤٦ م طبع هذا الرسم المعماري الألماني سبستيانو سيرليو في كتاب عن معالم هندسة البناء القديمة.

لأول مرة رسم أبو الهول وقد تميز هذا الرسم عن وصف بلِيني أنه لم يرى فيه أعجوبة، بل امرأة ذات ابتسامة غامضة سُرِّحَ شعرها حسب موضة تلك الأيام وكانت ذات صدر بارز.

في الواقع نحن لا نعلم من أين لسيرليو بهذا الوصف.

لقد وصلتنا أخبار أكثر من عشرة أشخاص مغامرين تواجدوا في منطقة الأهرامات في مرحلة اكتشاف العالم الجديد وقد عادوا إلى أوربا حاملين معهم أوصافها.

في هذه الأيام يسافر الناس أثناء العطلة الصيفية إلى مصر، يتوجب عليهم أخذ اللقاحات الضرورية، الحصول على جواز سفر، الجلوس بالطائرة، وخلال أربع ساعات ونصف من الطيران يصلون القاهرة من مدينة براغ.

في تلك الأيام كان يجب السفر من أوروبا على متن سفينة شراعية علماً أن القراصنة كانوا يجوبون البحر، كان جواز السفر السيف على الخصر ولاحقاً المسدّسات.

لم يكن هناك فنادق، لذلك كان أفضل شيء قضاء الليلة في حفرة رملية أو مدفن ما.

كان المكان المحيط يعج باللصوص والأفاعي، كان وباء الطاعون منتشراً في كل مكان وكان ينبغي الابتعاد قدر المستطاع عن المؤسسات الحكومية، وعوضاً عن الكرم العربي الذي ضُربت به الأمثال أصبح أي أجنبي منذ عهد الحملات الصليبية يقابل بالنفور والكراهية.

هؤلاء الذين سافروا إلى مصر في ذلك الوقت كانوا من صنف فاسكو دي غاما, كبرال, ماجلان. أول هؤلاء الزائرين القدماء للأهرامات كان الحاخام بنيامين تودلسكي، الذي وصل إليها عام ١١٧٣ م وذلك خلال ترحاله في أماكن اليهود، لكنه لم يكتب عن الأهرامات أي شيء مثير.

الوصف البارز للأهرامات جلبه إلى أوربا البارون الفرنسي دانكلور، الذي كان شاهداً عام ١٣٩٥ م على نزع التلبيسة الخارجية للأهرامات.

"قالوا لي أنه منذ أكثر من ألف عام يُستحصل على الحجارة من هنا، حيث تبنى بواسطتها أجمل مباني القاهرة، يأخذ السلطان لنفسه ثلثي الدخل ويأخذ العمال الثلث المتبقي". في عام ١٤٨٦ م وخلال زيارته إلى الأرض المقدسة وصل إلى الأهرامات الألماني بريد نباخ من مدينة مانهاتم. لقد رفض فكرة أنها مخازن يوسف (ع) لأن "هذه المنشآت من الحجر الأصم ولكن يوجد مساحات فارعة في داخلها وكما يقولون هي عبارة عن مدافن الحكام القدماء".

لقد زار كثيرون الأهرامات واستمتعوا جميعاً برؤيتها وأكثر ما فعلوه هو استكشافها من الخارج.

أول أوربي من العصر الحديث زار مصر ودخل إلى عمق الهرم هو بيلون ــ بروفسيور من جامعة السوربون ــ "أكبر هرم من بين الأهرامات الثلاث كانت حالته أسوء من الهرمين المتبقيين – كتب في ريبورتاج عن الردهات الداخلية عام

١٥٥٢م – بعبور مسافة كبيرة من خلال ممر مائل وصلتَ إلى دهليز عمقه حسب بليني ٨٦ ذراع وهو يؤدي إلى نهر النيل، الآن هذا الدهليز مملوء تقريباً بالأحجار والركام" بعد ذلك عبر "سائراً إلى جهة اليمين" ثم انحرف إلى اليمين ودخل مرّةً أخرى "إلى حجرة تقع في مركز الهرم تماماً" حيث أخافته صفقات أجنحة الخفافيش "طول هذه الغرفة ست خطوات وعرضها أربع، ملبسة بحجر مصقول، يوجد فيها ضريح كبير طوله ١٢ قدم وعرضه ستة أقدام مصنوع من المرمر الأسود، دفن بداخله حاكم قديم".

لم يدخل إلى هرم خفرع ... "ليس لهذا الهرم مدخلاً ولا يستطيع أحد دخوله، قمته حادة ويقال أنه كان ملبساً بالمرمر وهو عبارة عن مدفن أيضاً".

عند معاينته لهرم منقرع كتب: "لقد حُفظ هذا الهرم بشكل رائع كما لو أنه قد بني للتو".

وهكذا في منصف القرن السادس عشر وبفضل بيلون أصبح مستوى معرفتنا للأهرامات كما كان عليه منذ ١٥٠٠ سنة في عهد بليني

أمّا ما يخصّ المعطيات عن أبعاد الأهرامات فنعود مباشرة إلى هيرودوت لأن معطياته لم يتحقق منها أحد، الخبر الجديد الوحيد هنا هو الشكل الخارجي للأهرامات وهذا ما تؤكده مشاهدة دانكلور، الأهرامات تفقد تدريجياً كسوتها الناعمة.

في عام ٦٤٠ م بنى عمرو بن العاص عاصمته الجديدة الفسطاط، أما القائد جوهر من الحقبة الفاطمية فقد بنى على أنقاض هذه المدينة عام ٩٦٩ م مدينة القاهرة.

لقد احتاج البناؤون إلى مواد لبناء القصور، المهاجع العسكرية والمساجد، البيوت السكنية والمنشآت الدفاعية.

لقد جلبوا في البدء حطام المدينة القديمة لاستخدامه في البناء وعندما نفذ حان دور "جبال الفراعنة ".

لقدكانت لتلبيسة أهرامات الجيزة مكانة رفيعة، ففي القرن الرابع عشر زينت بـــها مدرسة السلطان الواقعة تحت القلعة. في أيامنا هذه وحتى ليلا يمكن التعرف على هذه التلبيسة من بين الأحجار الأخرى:ففي ضوء آلاف اللمبات المعلقة على شكل ضفائر تشع هذه التلبيســـة كضـــوء الشـــمس فـــي منتصف النهار.

حقل الأهرامات قرب ممفيس

ليس بالشيء الكثـــير مـــا عرفنـــاه مـــن الـــزوار اللاحقين للأهرامات، ولكن رواياتـــهم كـــانت مثـــيرة للغاية.

فـــي عـــام ١٥٨١ م زار الأهرامات جـــان بـــالين مبعوث ملك فرنسا هـــنري الثالث، لقد بدا له المدخـــل الرئيسي إلى الهرم الأكـــبر صغـــيرا، أمـــا كميـــــة الوطاويط فـــــي ممـــرات الهرم فبدت له هائلة، بحيث أن لهب المشاعل كان ينطفئ بطيرانها، الذي لايكـلى، " في هذه الظلمة المدلهمة، لم تكن هناك أية قيمة للهبوط إلى أي دهليز أو ممـــر مائل ".

لقد انبهر بالين كثيرا بالتوابيت الحجرية: عندما دق على أحد التوابيـــــت "دوى صوت مثل صوت الجرس"، " لم يكن هناك مدخلا لهرم خفرع ولم تكتشف أيـــة قاعات داخلية فيه لقد كان السطح الخارجي للهرم صقيلا بشكل جزئي وهـــو دون

أدراج، أي لا يمكن الصعود إلى قمته المنتهية برأس مدبب "، بشكل عـام كـان بالرين منبهرا بالأهرامات " لقد كانت أكثر روعة من آثار روما القديمة ".

أما الإنكليزي جورج سانديس فكان على العكس إنسانا متماسكا، إذ أنه لم ينبهر إلا لشيء ذو قيمة خاصة، " هذه المعالم البربرية الثلاث – هي آثـار الغـرور والعجرفة الكاذبة "، يكتب جورج كلمات بليني في كتابه "رحلات" الصادر عـام ١٦٦٠ م .

لقد توقف جنودنا الانكشاريون أمام المدخل وأطلقوا عدة مرات الرصاص نحـو الداخل من طبنجاتهم وبعضهم بقي في الجوار لحمايتنـا مـن غـارات العـرب المتوحشين.

لكي يصبح المسير سهلا خلعنا أحذيتنا والجزء الكبير من ثيابنا حيث قيل لنا أننـا سنواجه هناك حرا مخيفا. كان دليلنا مغربي وكان يسير في المقدمة وكل واحـد منا أضاء أمامه مشعلا. كان ذلك الطريق خطرا، فقد كنا نتعثر، نصطدم بـأي شيء وكنا نتوقف بعد كل عدد من الخطوات وكانت جلودنا مسلوخة مـن الحـر أثناء المسير النهاري.

في البدء هبطنا حوالي مائة قدم ولكن ليس على درج، بل على منحـدر مـائل: لنصل إلى مدخل ممر آخر. أحد باشوات القاهرة كانت له اهتمامات بخفايا الهرم، أرسل كما يقولون عدد من المساجين المزودين بمشاعل ومؤونة لكي يستكشـفوه، يقول أن أحدهم خرج من الهرم ليجد نفسه على بعد ثلاثين ميلا في الصحراء، إلا أن تلك مجرد أقوال ليدهشوا الناس ".

بعد ذلك هبط سانديس بمشعله وراء المغربي إلى ردهة سفلية، إلا أنه لـم يجـد هناك ما يثير الدهشة، ومن هناك عبر ممر متباعد وصل إلـى البـهو الكبـير، وهنالك تماما نسي مبادئه: " كان ذلك الممر بارتفاع وعرض لا يصدقان كما لـو أنه مصمم من أجل العمالقة. ابتداءً من منتصف الممر تتسع الجدران تدريجيـا، وهو يمثل إنجازا معماريا مدهشا.

شُكِّلَ هذا الممر من ألواح من المرمر ذات حجم وتراص يعطيان انطباعا كما لو أنه منحوت في الصخر. في نهاية الممر وصلنا إلى غرفة واسعة عرضها عشرون قدما وطولها أربعون وهي ذات ارتفاع هائل، كان حجم الألواح الحجرية المشكلة للغرفة من الضخامة بحيث أن ثمانية ألواح غطت العرض كله وستة عشر لوحا الطول.

كان هناك تابوتا حجريا فارغا دون غطاء منحوتاً من قطعة حجرية واحدة ويحدث صوتا كالجرس فيما لو نقر عليه " كما يوجد في الحجرة جثمان مؤسس الهرم.

" بالطبع بنيت هذه الصروح بهدف الغرور فقط، إذ أن المصرين القدماء كانوا يؤمنون بأنه بعد موتهم تبقى الروح حية، وبعد مرور ثلاثين ألف سنة تتحد من جديد مع الجسد فيبعث الجسد ويعيش من جديد بقدر ما عاشه في الجيل الماضي ".

إن آخر معلومة أذهلتنا: ليس فقط لأن الكاتب غير نظرته في حجرة المدفن بل لأنه بشكل غير متوقع ودون أن يورد أية مصادر ذكر شيئا يشبه ما توصل إليه الاختصاصيون في الحضارة المصرية بعد عدة مئات من السنين ... فكيف حصل ذلك ؟.

أيعقل أن التصورات القديمة عن الحياة بعد الموت والتي لم يعرف عنها هيرودوت إلا اليسير بقيت حية ومتوارثة شفهيا في تراث السكان المحيطين بالأهرامات ؟ وحتى في تراث السكان ذوات القوميات والأديان المختلفة ؟.

لا يوجد لدينا جواب على هذا السؤال، مع ذلك يمكننا الإجابة على سؤال آخر يطرحه الآن زوار هرم خوفو عندما يقارنون أبعاد التابوت الحجري والممر المؤدي إلى البهو الكبير.

لقد نحت التابوت من قطعة غرانيتية واحدة لا يمكن إدخالها عبر الممر المؤدي إلى البهو فكيف أدخل إلى هناك ؟. على هذا السؤال أجاب بيرتو ديلافالي عام

١٦١٦ م: " لم يكونوا ليستطعوا إدخال التابوت إلى البهو إلا في مرحلة بناء الهرم ".

منذ نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر نشأت عند الرحالة الرغبة أكثر فأكثر في معرفة الأهرامات.

قام طبيب قنصلية فينيسيا برونسبيرو البيني لأول مرة بالتحقق من أبعاد الهرم الواردة في التاريخ القديم ومنه وصلنا الخبر التالي: في عام ١٥٨٤ م وبناء على نصيحة أحد المنجمين قام إبراهيم باشا بتوسيع مدخل الهرم الأكبر للبحث عن الكنوز فيه.

الوصف التفصيلي للأهرامات وضعه الرحالة الألماني باومغارتن والفرنسي سابري دي بريفيه الذي كتب يقول أن "الفواصل بين الألواح الحجرية في غرفة الدفن كانت ضيقة إلى درجة أنه لا يمر من خلالها رأس دبوس ".

اليسوعي الألماني فان سليب، الذي ارسله الوزير الفرنسي كولبير إلى مصر من أجل البحث عن المخطوطات القديمة، قام بتحضير أولى ترجمات الأخبار العربية عن الأهرامات.

الوجيه البولوني الليتواني الأصل رازيفيل، الذي زار مصر عام ١٥٨٢-١٥٨٤ م تفحص الهرم الأكبر ابتداء من الغرف الواقعة في الأسفل وحتى القمة، حيث دقق ما قرأ عنه سابقا، بالإضافة إلى ذلك ترك كتابا قال فيه: " حتى هذا الوقت بقي سبعة عشر هرما " .

قام الإنكليزي إدوارد ملتون عام ١٦٦١ م بقياس الهرم الأكبر وهو أول من زار أهرامات داشور. في كتابه " آثار ومعالم الماضي المشاهدة أثناء التجوال في مصر " المطبوع في أمستردام ألحق رسومات للأهرامات.

مشهد خيالي: ينتصب الهرم تلو الآخر كالخيم في معسكر مزدحم، وبعض هذه الأهرامات رفيع إلى درجة لا تميزه عن كومة من الركام.

ولكن ها قد وصل إلى الأهرامات العالم جون غريفس، بروفيسور في علم الفلك من جامعة اوكسفورد. في عام ١٦٣٨ م قاس بعناية أهرامات الجيزة الثلاث

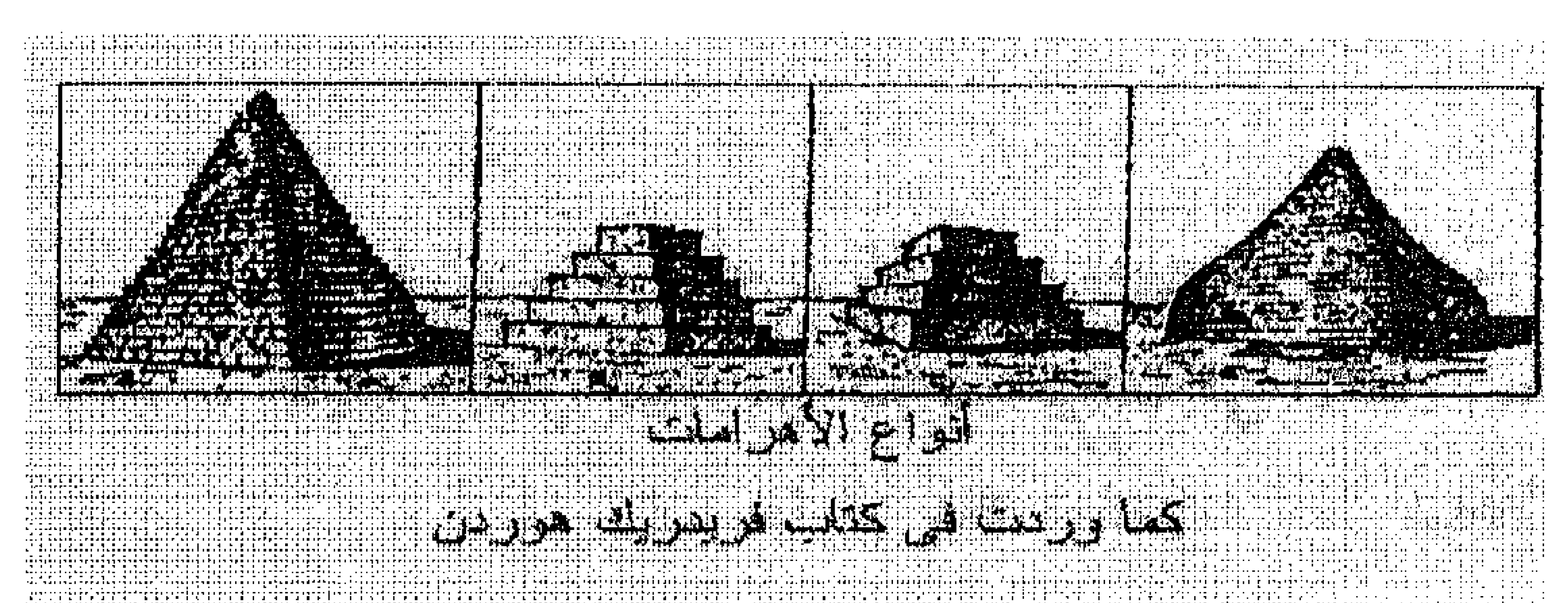
وبخطأ لا يتجاوز ستة عشر جزءاً من القدم واثني عشر جزءً من الدرجة، إلا أننا لن نقدم هنا هذه المعطيات لأننا سنقدم لاحقاً معطيات أكثر دقة.

هناك نتيجتان لعمله بقيتا إلى الآن محط الاهتمام.

النتيجة الأولى: **أن الأهرامات بناها المصريون القدماء وليس اليهود** كما اعتقدت في ذلك الوقت كل أوربا، ذُكر في الكتاب المقدس أن اليهود خلال السبي المصري " جلبوا وشووا القرميد " ولكن " من المستحيل نسب هذه الكلمات إلى الأهرامات كونها مبنية من الحجر ".

النتيجة الثانية: وصل إليها بعد دراسة معطيات كتب اليونانيين والرومانيين عن مراسم دفن المصرين القدماء. حسب هذه المعطيات اعتقد المصريون أنه طالما أن الجسد الميت لا يتعرض للعبث، فإن روحه تبقى حية ".

مضت مائتان من السنين حتى تأكد العلماء من صحة هاتين النتيجتين استناداً إلى المصادر المصرية.


أنواع الأهرامات
كما وردت في كتاب فريدريك هوردن

مضت سنوات طوال بعد جون غريفس قبل أن يصل عالم آخر إلى مصر. ظهر هنا أكثر فأكثر الرحالة وأناس من مختلف الاختصاصات والاهتمامات، ابتداءً من خدَّام الكنيسة والتجار وانتهاءً بالدبلوماسيين وضبَّاط الاستطلاع.

لقد انشغل هؤلاء الرحالة بموضوع نشأة الأهرامات ووظيفتها.

المؤرخ الهولندي المشهور بيرزوني صاحب كتاب " تاريخ روما " وخلافاً لحجج غريفس ،صرح في عام ١٧١١ م أن الأهرامات بنيت بأيد اليهود. قبل ذلك بوقت ليس طويل (عام ١٧٠٩ م) افترض مواطنه إغمونت أن من أمر ببنائها هو الملك نمرود أو الملكة دالوكا.

هناك أيضا كتاب آخرون مثل الفرنسي تيغنينو، الذي قال: " أن التابوت الموجود في الهرم الأكبر مع أنه فارغ، فإنه يعود إلى الفرعون رمسيس الثاني، الذي غرق في البحر الأحمر أثناء مطاردته لليهود ".

المستشرق الدانمركي فريدريك نوردن ضابط في البحرية ومؤلف كتاب " رحلة إلى مصر والنوبة " (عام ١٧٣٧ م)، انطلاقا من كونه لم يستطع مشاهدة أية كتابة عن الأهرامات قال بأنها بنيت ولم تكن الكتابة قد اخترعت بعد.

أما الرحالة البريطاني توماس شو الذي زار مصر عام ١٧٢١ م استنتج أن " التصميم الداخلي للهرم الأكبر لا يصلح للدفن وهو على الأغلب عبارة عن معبد".

إلى الآن لم يتم أي تقدم ملحوظ في معرفة الأهرامات.

كتب بينو دي مايه عملا تفصيلياً عن البنية الداخلية للأهرامات ووظيفتها، وواضح أنه لم يبخل بالوقت على دراستها، إذ أنه كان قنصل فرنسا في القاهرة بين عامي ١٦٩٢-١٧٠٨ م.

لقد درس نوردن المذكور سابقا حطام الأبنية الواقعة في جوار أهرامات الجيزة وأوضح أن هذا الحطام هو بقايا المعابد، التي كتب عنها هيرودوت ، فوق ذلك زار أهرامات صقارى وهو أول من أشار إلى أنها لا تملك دائما شكلا هندسيا منتظما.

لعب الفرنسي كلود سيكار (١٦٧٧-١٧٢٦ م) دورا معروفا في دراسة الأهرامات وهو المشهور باكتشافه لمدينة فيف عاصمة المملكة الجديدة.

الخطوة التالية الكبيرة أو بالأصح القفزة الكبيرة في هذه المسألة أنجزها ريتشارد بوكوك مؤلف كتاب "رحلة في مصر" الذي طبع في لندن عام ١٧٥٥م.

كان ريتشارد بوكوك (١٧٠٤-١٧٥٦ م) حقوقياً، إلا أنه كرجل مستقل وغني سرعان ما بدل باروكة القاضي بقبعة الرحالة واتجه عام ١٧٣٧م إلى مصر وعند عودته انتُخب عضواً في الجمعية الملكية وانتهى به المطاف إلى أن اصبح أسقفاً.

لقد جذبته أرض الفراعنة بمعالمها وألغازها فقطع هذه الأرض من الشمال إلى الجنوب حتى وصل إلى مدينة فيف " لقد احتوت بيوت هذه المدينة على كنوز نفيسة ".

بقيت لمئات السنين بين الركام، وفي القرن السابع قبل الميلاد دمرها الآشوريون، بعد ذلك أُعيد بناؤها جزئياً ولكن في مرحلة الحروب الداخلية خلال القرنين الأول – الثاني قبل الميلاد دمرت ثانيةً.

لقد عاين بوكوك بقايا معبدها ثم توجه إلى الضفة الغربية لنهر النيل، إلى بيبان الملوك، وادي الملوك، وهو ركن يقع في أقصى الغرب مسكون برأي الفلاحين بالأرواح والمخلوقات المخيفة، ولا يمكن أن يشعر أحد بالطمأنينة هناك سوى لصوص الصحراء.

في الواقع لم يكن ذلك ركناً وإنما فالقاً (انشقاقاً) بين الجدران الشاقولية المطمورة بالرمال.

استطاع بوكوك أن يتفادى طلقات انهالت عليه من المدافن المتناثرة وعندما رد على النار بالمثل اكتشف طريقاً يؤدي إلى أربعة عشر ضريحاً.

لقد هز خبره هذا، العالم، إذا أنه اكتشف المقبرة المشهورة لمدينة فيف، التي قال عنها سترابون أنها مقبرة سرية للفراعنة تحت الأرض.

عندما كتب بوكوك أنه " من حيث الجهد المبذول على بناءها يمكن أن يقارن بعضها بالأهرامات ".بدا ذلك غير قابل للتصديق، أما الآن فيمكن لأي شخص التأكد من ذلك إن أمكنه زيارتها ومقارنتها بالأهرامات.

وبالمناسبة مقبرة توت عنخ آمون المشهورة تم اكتشافها فقط في عام ١٩٢٢ م وترتيبها الثانية والستون وهي واحدة من المقابر الصغيرة والمتواضعة، عنها سنتحدث لاحقاً.

نقول هنا أنه في عام ١٧٣٨ م عاد بوكوك سعيداً من وادي الملوك بعد أن درس المناطق المجاورة له وأمر بنقله على متن مركب صغير إلى القاهرة.

يحتمل أنكم لاحظتم أن كل من زار الأهرامات ابتـداء مـن هـيرودوت جـذب انتباههم إلى (أهرامات الجيزة الثلاث، مع أن البعض ذكر أنه توجد أهرامـات أخرى إلا أنه لا أحد سوى ميلتون ونوردن قد تعرض لوصفها.

أورد بوكوك في كتابه وصفا لثمانية عشر هرما مـع الرسـومات التوضيحيـة: أهرامات الجيزة الثلاث، أهرامات أبو صير الثلاث، الهرم الكبـير فـي ليشـت وتسعة صغار بالإضافة إلى هرمين من نوع مختلف في صقارى وداشور.

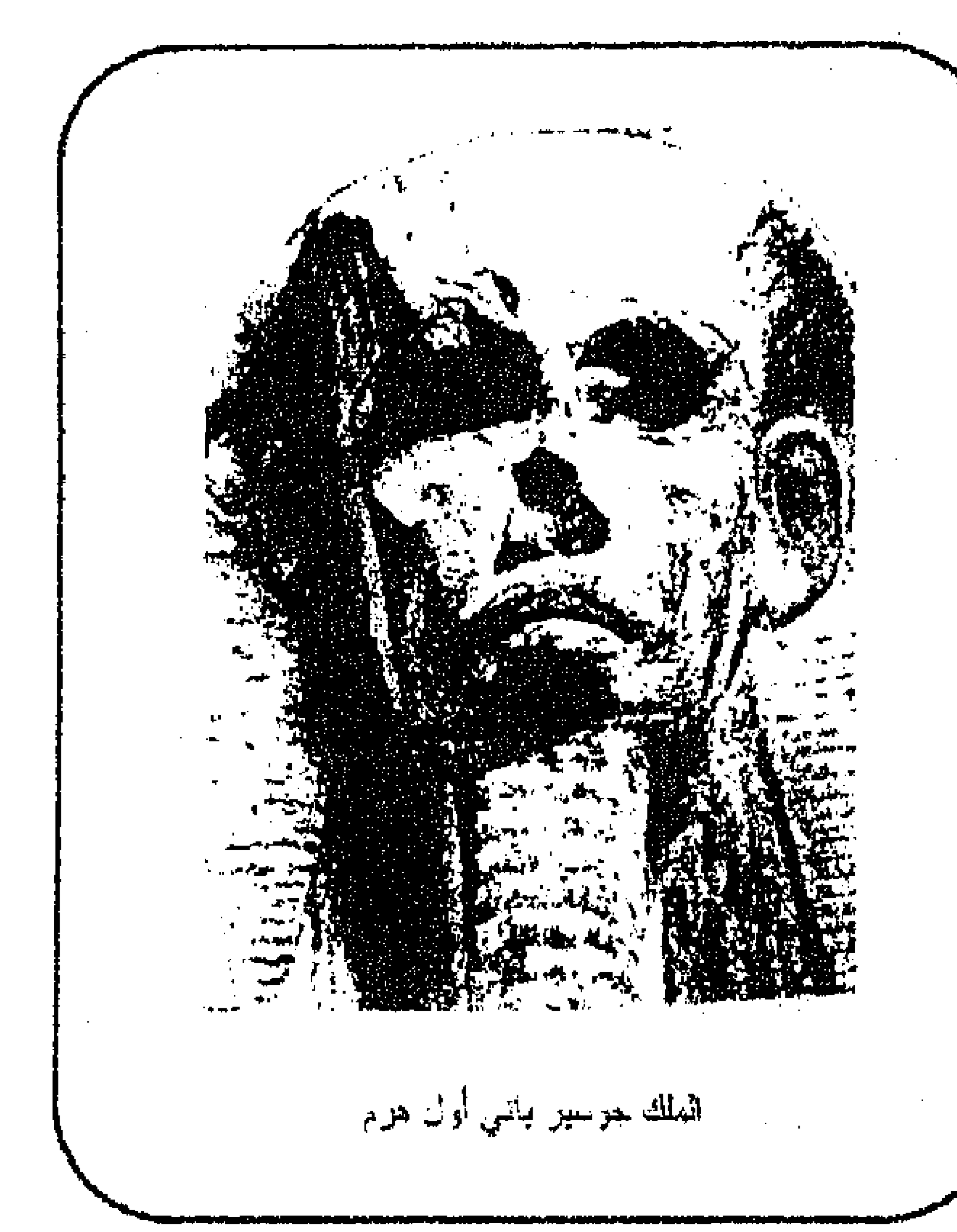
مع أن نوردن كتب مقالة غير سيئة عن هرم صقارى وميلتون عن هرم داشور، إلا أن بوبوك اعتبر لفترة طويلة مكتشفهم الأول. لقد كان عدد نسخ كتب سـابقيه قليلا وأصبحوا في عداد النسيان في حين أن كتابه الـذي يمتـاز بلغتـه الحيـة والرسومات التوضيحية الرائعة انتشر على مستوى جماهيري كبير واسع النطاق.

إلى ذلك الحين كان يعتقد في أوربا أن جميع الأهرامات تتشابه كقطرتـي مـاء ولكن فجاءة تبين أنه يوجد ثلاث نماذج من الأهرامات على الأقل.

نشأ جدال حول هرم صقارى هل هو هرم بالفعل؟! بعض العلماء في نهاية القرن الماضي لم يريدوا أن يعترفوا به هرما.

إن هرم صقارى بالفعل غـير عـادي، على سبيل المثال قاعدته ليست مربعـة كما هو الحال في الأهرامات الأخـرى ولكن ذلك لا يلحظ من النظرة الأولى .

أما شكله العام فليس هرمـا بـالمعنى الدقيق للكلمة، بل متدرجا، كما لو أنـه ينبثق من الأرض بدرجات.



الملك جوسير باني أول هرم

الآن نحن نعلم أنه أقدم هرم مصري، تم بناؤه بأمر من أول فرعون في الأسـرة المالكة الثالثة "جوسيير" وكان ذلك في بداية القرن السابع والعشرين قبل الميلاد، كما أننا نعرف أن المهندس الذي أنشأه يدعى "امحوتيب" .



إمحوتيب مهندس هرم جوسير

تمثال برونزي (عام ٢٦٠٠ ق.م)

صحيح أن بوكوك لم يعرف ذلك لكنه شرح مطولا عن ذلك الهرم.

" غير بعيد عن قرية صقارى يوجد هرم يسميه العرب المدرج، لم أستطع أن أقيسه كليا، لكن يبلغ طول قاعدته من الجهة الشمالية ثلاثمائة قدم ومن الجهة الشرقية ١٧٥ قدم، ووفقا لحساباتي يبلغ ارتفاع هذا الهرم ١٥٠ قدما، وهو يملك ست درجات عرض كل منها ١١ قدما وارتفاعها٢٥ قدما، الطبقة الخارجية من الهرم من الحجر المنحوت، تحتوي كل درجة على ٢٠ لوح حجري متوضعة بعضها فوق بعض ".

لم تكن قياساته دقيقة تماما، حيث أنقص ٥٠ قدما من ارتفاع الهرم و٧٥ قدما من طول الجبهة الضيقة وحوالي ١٠٠ قدما من طول الجبهة العرضية للقاعدة.

يعود السبب في ذلك إلى أن جوار الهرم عبارة عن حواجز رملية، نتوءات صخرية ومخفضات مختلفة وفي مكان قرب الهرم تؤدي هذه المنخفضات إلى الجحيم تماما (لعمقها الكبير).

النوع الثاني من الأهرامات، التي وصفها بوكوك- " هرم ذو حروف منكسرة " في داشور.

على ما يبدو أن المهندس المعماري فكر في بناء هرم ذو ارتفاع شاهق ولكن بعد أن بنى ثلث الهرم قرر فجاءة تسريع العمل فجعل الوجوه أكثر ميلا. إنه واحد من أضخم الأهرامات إذا يبلغ طول ضلع قاعدته المربعة ١٨٥,٥ متر وارتفاعه٩٢,٢ متر (طبعا هذه الابعاد أدق من أبعاد بوكوك).

بالإضافة إلى ذلك هو واحد من أكثر الأهرامات التي حفظت بشكل جيـــد، إذ أن تلبيسته المنفذة من الحجر الكلسي والتي سحرت بوكوك سلم جزء كبير منها حتى أيامنا هذه.

بني هذا الهرم بأمر من أبي خوفو الملك سنوفر وذلك في بداية القـــرن الســـادس والعشرين قبل الميلاد.

أصبحنا نعلم أن أسبقية اكتشاف هذين الهرمين لا تعود إلى بوكوك، ولكن لا أحـــد ينكر أسبقيته في اكتشافه للهرم الآخر الكبير. لقد وجد في الجيزة بقايا " طريـــق من الحجر المصقول " يصل من الهرم الأكبر إلى النيل وهو طريق لـــم يحـــدث عنه هيرودوت أبدا.

في الوقت الحالي نعرف من هذه الطريق فقط أجزاء مزينة بالنقوش، أما بــــاقي معالمه فقد اختفت. إن معظم المعلومات التي نعرفها عن هذه الطريق وصلت إلينا عن طريق بوكوك الذي ورد في كتابه " رحلة في مصر " واحد وستون قياســـا للهرم الأكبر وذلك بالأقدام والبوصلة والدرجات والدقائق، إلا أنه بقي هناك مـــا يقاس بعد بوكوك، فهاهو كارستن نيبور قد وصل إلى ذلك الهرم في ربيع عـــام ١٧٦٢م.

كارستن نيبور (١٧٣٣-١٨١٥ م) بخلاف جميع سابقيه أخذ قياسات الأهرامـــات باحتراف فاختصاصه كان مساحا للأرضـــي إذ أنـــه بالإضافـــة إلـــى المـــزواة (تيودوليت) كان يحسن استخدام الإسطرلاب.

في عام ١٧٦١ م أرسل نيبور مع خمسة من العلماء الشباب برحلة إلى الجزيـــرة العربية والبلدان المجاورة لها من قبل فريدريك ملك الدانمارك.

لم تكن الرحلة موفقة في البداية، فبسبب عدم وجود الهواء لم يستطيعوا الخروج من كوبنهاغن، بعد ذلك قذفت عاصفة بسفينتهم إلى شواطئ أيسلندا.

بعد ذلك أصبح الوضع أكثر سوء: إذ أن المشاركين في هذه البعثة تخاصموا في استنبول وكانوا على وشك حل الخلاف باستخدام الزرنيخ والمسدسات.

انتهت هذه الحملة بشكل كارثي: قتل أعضاء البعثة الواحد تلو الآخر عدا نيبور، الذي عاد وحيدا في عام ١٧٦٧ م إلى كوبنهاعن متأثرا بعذابات لا تحتمل . عاد من مصر واليمن عن طريق بومباي– البصرة – بغداد – الموصل –استنبول – بوخارست –وارسو.

على الرغم من ذلك لم يتيسر له تنفيذ واحدة من قياساته الرئيسية وبالذات " فهم العلاقة المتبادلة بين المد والجزر في البحر الأحمر مع خروج اليهود من مصر كما ورد في الكتاب المقدس ".

عندما بدء نيبور برحلته كانت لديه درجة ملازم متواضعة (لم يكن لديه لقباً علميا ولم يكن من المقربين إلى الملك، بل كان ابنا لأحد الفلاحين).

كمساح للأراضي، كان عليه أن يدقق الخرائط ويكملها.

بعد وصوله إلى القاهرة قادما من الإسكندرية وضع خارطة تفصيلية للقاهرة مع جميع المساجد، الأسواق، الشوارع، الأبار، القنوات، القصور والمقابر، ثم اتجه بصحبة مرافقين عرب إلى الجيزة. اعترض طريق نيبور شيخ من المنطقة، وبعد تلميح مباشر إلى المال أخذ منه الإسطرلاب (بسبب هذه الأدوات تعرض نيبور قبلا إلى مضيقات: عندما ينظر الفضوليون إلى الإسطرلاب ويرون شكلا مقلوبا كانوا يظنون أن أمامهم ساحر ظهر ليقلب بيوتهم رأسا على عقب)، " طبعا أنا لن أسامحه على ذلك فقد وضع الإسطرلاب في شال كان في عنقه وكونه لم يكن قابضا بشكل جيد على لجام الفرس سقط مباشرة على الأرض. لقد وجدت نفسي في وضع خطر للغاية لأن الشيخ الشاب جرحت كرامته، حيث شعر وكأن أحد ما رماه من على ظهر الفرس بحضور الناس الذين أتوا من القرية على صوت الجلبة، ومما زاد الطين بلة هو أن هذا " الأحد ما "هو من الإفرنج، دون أي

إبطاء سحب الشيخ مسدسه ووجهه إلى صدري في هذه اللحظة شعرت أن الموت قريب جدا مني، لكن تبين لي أن السلاح لم يكن محشوا أبدا. العرب المحيطون حاولوا تهدئة الشيخ وفي النهاية رضي بقطعة نقدية وانتهى الموضوع ".

عاد إلي الإسطرلاب وأصبح الطريق إلى الأهرامات مفتوحا.

في الواقع كل القياسات المجراة على الأهرامات والأعمال الأخرى لم تتم دون حوادث، دائما كانت هناك جماعات من الفلاحين حول نيبور، منهم من اجتمع ليحطم أدواته، البعض الآخر صب عليه اللعنات. أسوء ما في الأمر أن الشرطيين في اللباس الشعبي لم ينفكوا في طلب النقود منه.

في إحدى المرات منعه أحدهم بكل بساطة من رسم كتابة هيروغليفية مهددا بأنه إذا لم يذهب سيضربه بالسوط.

نصحه أحد مرافقيه العرب الذي كان على دراية بالعادات المحلية أن لا يتلاسن معه، لم يستطع نيبور أن يهدأ خلال طريق العودة إلى البيت، "هل تستطيع أن تمنع الكلب من النباح عليك؟-سأله مرافقه- إذا رفسك حمار، هل يصبح وضعك أفضل إذا رفسته؟".

نحن نذكر ذلك لنصور لكم الظروف التي عمل خلالها العلماء في مصر آنذاك، ولكن رغم كل شيء قاموا بعملهم.

صعد نيبور إلى هرم خوفو ونزل في داخله وقاس ما لم يقسه أحد. صعد إلى هرم خفرع غير عابئ بالنتوء، الذي تشكله تلبيسة قمة الهرم، والذي لا يمكن أن يتجاوزه حتى متسلقي جبال الألب البارعين.

من طريقة رصف الألواح الحجرية الخارجية، استنتج أن تلبيس الأهرامات تم من الأعلى إلى اسفل كما هو مذكور عند هيرودوت. صعد نيبور أيضا على هرم منقرع وعلى توابعه-أهرامات زوجات الفراعنه-وقاسها كلها بدقة، كانت نتائجه باهرة. أكبر فرق بين قياساته وقياسات الوقت الحاضر كان في تحديد ارتفاع هرم خفرع، حيث بلغ لديه ٤٤٠ قدما دنمركيا أي ١٣٨,١م والفرق بين هذا القياس والقياس الحقيقي ٨٠ سم فقط.

اكتشف نيبور في هذه الصروح العملاقة أمرا لم ينتبه إليه سابقيه، وهو تحجـر رخويات بحار الحقبة الديفونية على الألواح الحجرية للأهرامات، لقد كانت هـذه المستحثات دائرية الشكل كقطعة من النقد ،

" نقود الفراعنة " هكذا يسمونها السكان المحيطين في الوقت الحاضر. تساءل نيبور " كم من السنين يجب أن تمر حتى تتشـكل هضـاب هائلـة مـن تلـك العضويات؟ كم من الوقت كان يجب أن يمر حتى تجـف الأرض المصريـة إذا كان مستوى الماء ينخفض بشكل بطيء كما هو خلال الألف سنة الأخيرة؟ وكـم من الوقت كان يجب أن يمر حتى تظهر هذه المجموعة من الأهرامـات، التـي نراها حتى الآن في مصر؟ حتى أننا لا نستطيع أن نحدد في أي قرن بني الـهرم الأخير".

عن أبحاثه كتب نيبور مؤلفا " وصف رحلة في شبه جزيـرة العـرب والبلـدان المجاورة حسب المشاهدات الذاتية والمعطيات المجموعة في المكان " نشره فـي كوبنهاغن باللغة الألمانية عام ١٧٧٤-١٧٧٨ م.

وصلت ترجمة هذا الكتاب إلى جنرال فرنسي أنهكه الملل وخرج عن طوره مـن الكدر، ذلك لأنه لم يستطع أن يقدم شيئا، كم أنجز الإسكندر المكدوني فـي مثـل سنه؟!.

ما هو الممتع في ايطاليا بعد كامبو-فورميو؟ وباريس؟ "إن أوربـا كومـة مـن الخلدان!. فقط في الشرق، حيث يعيش ٦٠٠ مليون نسمة يمكن إنشاء إمبراطورية عظيمة وإنجاز ثورة كبيرة ".

مصطحبا معه كتاب نيبور في حقيبة ميدانية ومترئسا أسطولا مؤلفـا مـن ٣٢٨ سفينة اتجه إلى مصر في شهر أيار من عام ١٧٩٨ م.

كان هذا الجنرال نابليون بونابرت.

لقد فتحت حملة نابليون حقبة جديدة في دراسة مصر القديمة وبالتالي الأهرامات.

لقد ولت مرحلة الباحثين عن المعرفـة لتحـل محلـها مرحلـة الاختصـاصين الحقيقيين، " لقد كان هؤلاء من أعظم الناس في دراسة تاريخ مصر القديمـة "،-

كتب في عام ١٩٣٣ م القاضي هوفارد كارتير المطلع دون شك على تاريخ مصر القديمة عن طريق جيوفاني باتيستا " الثعلب الوحيد في الصحارى المصرية " أو " جني المقابر الفرعونية " كما وصفوه.

بالطبع لم تكن بواعث بحث جيوفاني حميدة، أما أساليبه فلا تخلو من العنف، أما سيرة حياته فيشك في أنها كان يمكن أن تدفع أية مؤسسة علمية إلى إسناد أي بحث علمي يتم تحت إشرافه.

ولكن هل يتقدم العلم إلى الأمام فقط بفضل الناس الذين يعتنقون مبدأ " لا منفعة، لا شهرة "؟.

لولا جيوفاني لحرم علم مصر القديم من مجموعة من المواد القيمة وحرم المتحف البريطاني من أفضل المعروضات المصرية. لقد أحضر من مصر كل ما يمكن إحضاره، ولكن يجب ألا ننسى أنه في تلك الظروف كان يمكن أن يضيع جزء كبير مما أحضره جيوفاني ليس فقط من مصر ولكن من البشرية وإلى الأبد.

ولد جيوفاني عام ١٧٧٨ م في بادو في أسرة حلاق فقير، وعندما بلغ السادسة عشر درس الآلات المائية في روما، ولكن بسبب دسيسة سياسية ما أو قصة حب التحق بالدير. بقي هناك مدة قصيرة وفي زمن نابليون التحق بالجيش بإرادته أو مكرها لكنه سرعان ما غادر قطعته (دون علم القيادة) ولكي يكون بمأمن انتقل للعيش في لندن. في البدء عاش جيوفاني من القليل الذي كسبه بعدما ذاع صيته كطبيب ذو تأثير سحري ثم عمل بالسيرك لاعبا دور " أقوى إنسان على وجه الأرض " خلال ذلك الوقت استطاع أن يخترع مضخة ماء ذات إنتاجية غير عادية.

عندما قرأ في مكان ما أنه في مصر يستخرجون الماء بالطريقة نفسها منذ عهد الفراعنة، قرر السفر إلى مصر ليعمم اختراعه هناك، وصل إلى الإسكندرية على متن مركب قديم ومنها سار إلى القاهرة ومضخته على ظهره، من البديهي أنه كان شخصا ذو قدرة كبيرة لأنه قابل محمد علي بالذات وهو شخص ذو مواهب.

لبس بزة ضابط تركي وخدم حتى وصل إلى مرتبة خديوي، إلا أنه لم يحصل على الكثير عند محمد علي.

الله وحده يعلم كيف تعرف على الشيخ إبراهيم (على الأصح الرحالة السويسري جون بوركهارت) الذي قدمه إلى القنصل البريطاني هنري سولت، أمن هذا الأخير عملا لجيوفاني وبفضل هذا العمل أصبح اسم جيوفاني يكتب بالأحرف العريضة في علم تاريخ مصر القديمة.

لقد قضى جيوفاني في مصر خمس سنوات فقط " حيث قلبها خطوة خطوة " (كما قال عدة مرات).

ثم توجه إلى السودان الفرنسي (مالي حاليا) ليبحث في أصول العرق الأسود-إلا أنه لم يكتب شيئا عن هذه الرحلة، ففي عام ١٨٢٣م عثر عليه مقتولا في الأدغال الواقعة قرب كفاتو غير البعيدة عن تمبوكتو.



جيوفاني باتيستا بيلتسوني (١٧٧٨-١٨٢٣)
(ثعلب المقابر المصرية)

لقد اقترح القنصل البريطاني على جيوفاني عام ١٨١٥ م أن يبحث عن الآثار المصرية، التي توجد هنا بكثرة والتي يدفع مقابلها الذهب في أوربا. ويمكن أيضا ألا يتم جمع الآثار عن طريق الشراء، بل يمكن العثور عليها في المدافن والقبور الفرعونية فيكون الربح في هذه الحالة أكبر.

نتيجة مباحثات الرجلين تم التوصل إلى اتفاق يكون بموجبه جيوفاني وكيل الآثارات المصرية لدى

المتحف البريطاني، أما سولت فتعهد لجيوفاني بالدفع لقاء كل قطعة يرسلها إلى لندن بالجنيه الإسترليني .

وهكذا اتجه جيوفاني إلى وادي الملوك الذي كتب عنه بوكوك أموراً مخيفة ولاحقاً جيمس بروس.

دون أن يعير انتباهه لقطاع الطرق والأرواح الشريرة نزل جيوفاني إلى القبور المفتوحة من قبل وبحث في حجرات الدفن عن الكنوز. في الواقع وفي معظم الحالات كان جيوفاني راضياً عن البقايا التي وجدها من مخلفات اللصوص الذين سبقوه، لقد كان اكتشافه المميز في قبر سيت الأول (أبو رمسيس الثاني)، حيث وجد في مدفن واقع في ممر طوله ١٠٠ متر مطمور بالتراب في كثير من أجزاءه تابوتاً حجرياً مدهشاً من الألباستر (رخام شفاف) ولكن للأسف كان فارغاً فأرسله جيوفاني إلى متحف لندن، ولكن المتحف البريطاني رفض شراءه لثمنه المرتفع فاشتراه لاحقاً السير البريطاني جون ساون ليضيفه إلى مجموعته وهو يوجد هناك حتى الوقت الراهن.

في معبد الكرنك قص رأس تمثال رمسيس الثاني الضخم (اشتراه المتحف البريطاني)، بالإضافة إلى اكتشافاته الكثيرة والمشهورة أرسل عدة مسلات (وقعت إحداها أثناء الشحن في النيل لكنهم انتشلوها). مع كل ذلك لم يكن جيوفاني راضياً: إذ أنه لم يجد ذهباً أو حجارة كريمة، فقد كانت الأهرامات برأيه (مخابئ كنوز الفراعنة)، لقد أصيب بخيبة أمل كبيرة عندما علم أن كنوز الهرم الأكبر استولى عليها الخليفة المأمون.

لذلك كان الأمل كبيراً بالهرم الذي يليه الواقع على بعد ٢٠٠ متر إلى الغرب من الهرم الأول في جدران هذا الهرم لم يكن هناك أية فتحة أو مدخل، هذا يعني أن أحداً لم يكن قبله هنا على عكس ما كان في وادي الملوك.

بدء جيوفاني بالعمل وكتب لاحقاً عن ذلك " إن عملي هذا يملك أهمية كبيرة، لقد أردت اختراق إحدى الأهرامات المصرية الكبيرة، إلى سر من أسرار إحدى إعجوبات الأرض، كنت أعرف أنني لو فشلت سأكون أضحوكة العالم أجمع. لقد

تفحصت سطح الهرم بالكامل شبرا بشبر وحجرا بحجر تحركـــت مـــن الوجـــه الشرقي إلى الغربي وعندما وصلت إلى الوجه الشمالي بدا لي أن الجدار مختلـف قليلا " في النهاية وجد جيوفاني تجويفا صغيرا كان بداخله لوح حجـــري غـــير مثبت.

" قام أقوى شخص في العالم " بخلخلته من الأطراف وضربه بــــالإزميل حتـــى فصله عن بقية الألواح ورماه إلى الأسفل، ثم استخدم عمالا عرب، وبعـــد عـــدة أسابيع من العمل العنيد والشاق هيأ فتحة للدخول إلى ممر غطي بالركام والغبار. على ضوء الشموع نظف العمال الممر وبدء بالهبوط إلى الداخل مترا بمتر، لقـد كان جيوفاني واثقا أن الممر يؤدي مباشرة إلى الكنز.

لكن الطريق هنا مسدودة بلوح حجري، كان ينبغي اجتياز هذا العائق من الأسفل، " عندما بدء أحد العمال بالحفر هوى لوح حجري يزيد ارتفاعه عن ســـتة أقـــدام وطوله عن أربعة إلى الأسفل بدوي هائل، لقد هوى العامل المسكين إلى الأســـفل وتوجب بذل عـــدة محـــاولات حتـــى استطعنا انتشاله. اللوح الذي وقـــع حرر الكثير من الألـــواح الأخـــرى وعمليا شعرنا أنه يجب علينا مغادرة الهرم "، وحتى لا يتم اتهامه بالجبن يضيف جيوفـــاني " لـــم ينطـــوي الخطر على الحجارة الهابطة علينـــا من فوق، بل في أن ممر الخـــروج كان يمكن أن يسد، وهكـــذا ندفـــن أحياء ". وهكذا تـــهيئ جيوفـــاني للانسحاب، لقد اعتبر أن الممر الـــذي



يدخل جيوفاني إلى حجرة الدفن في هرم خفرع

أخذ الرسم من كتابه

اكتشفه حفره أحد ما قبله وهذا الدخول إلى الهرم ليس الأول (في الوقت الحـــالي نعتقد أن هذا الدهليز فتحه اللصوص منذ القدم ولاحقا سده مرممي الآثار القدمـــاء

في الحقبة السايسكية)، لذلك قرر جيوفاني البحث عن المدخل الأصلي للـــهرم.
وهكذا بدء ثانية بتفحص الحجارة واحدة تلو الأخرى إلى أن وجد انخفاضا فـــي إحداها – وكان عبارة عن لوح غير مثبت، يقع هذا اللوح على ارتفاع عدة أمتـار من قاعدة الوجه الشمالي للهرم وفي المنتصف تقريبـــا(هنـــا كـــان جيوفـــاني محظوظا) بعد عدة أسابيع من العمل المضني وصل إلى الممر الأصلي.

" عندما انتزعنا ثلاثة ألواح حجرية فتح أمامنا معبر ارتفاعه أربعة أقدام يـــؤدي إلى الأسفل، إلى الهرم: طول هذا الممر ١٠٤ قدم وخمسة بوصات، وكان يميـــل بزاوية قدرها ٢٦ درجة ".

وهكذا تبين أن ديودور وكل من قال أنه لا يوجد لـــهذا الـــهرم مدخـــلا كـــانوا مخطئين.

كانت نهاية هذا الممر مغلقة بلوح من قطعة واحدة من الغرانيت وكما تبين لاحقـا كان عرضه مترا وارتفاعه مترين، " لم تكن إزالته أمرا ســـهلا – عـــاملان لـــم يستطيعان زحزحته، كان يجب إرسال عدد أكبر من الرجال إلى هنالك، بالإضافة إلى ذلك كان الحجر أعلى من الممر والكتل الحجرية المحيطة به كـــانت تثبتـــه بشكل ممتاز ". نحن لا نعرف بأي شيء حفز عماله لشحذ القوى من جديد، مـــن المحتمل أن يكون قد قاسمهم الكنوز التي وجدها أو أنه كان قدوتهم في العمل.

في النهاية أزالوا هذا اللوح باستخدام المهدات التي كان صوتها يدوي في المكـان باعثا الفزع في الأرواح الشريرة، ومن خلال الفتحة المتشكلة زحف جيوفاني إلى داخل حجرة الدفن، " مع أن المشعل الذي كان في يدي مكونا من عدة شـــموع ذات نور ضعيف،إلا أنني كنت قادرا على رؤية المحتويات الأساسية. أول نظـرة أرسلتها كانت نحو الطرف الغربي من الحجرة، إذ كنت آمل في إيجـــاد تـــابوت حجري هنالك كما هو الحال في الهرم السابق، لكن خيبـــة أمـــل كبـــيرة كـــانت بانتظاري إذ لم أجد هناك أي شيء على الإطلاق... فقط عندمـــا اقـــتربت مـــن الحائط الغربي دهشت عندما وجدت تابوت حجريا . كان التابوت مغطى بطبقـــة

من التراب والحجارة ". بيديه العاريتين قام جيوفاني بإزالة التراب عن التـــابوت وتأكد بنفسه أنه كان فارغا.
بالطبع يمكن أن نتصور خيبة الأمل التي كانت مرسومة على وجه جيوفاني.
في ذلك اليوم ٢ آذار ١٨١٨ م كان يجب أن يصبح أحد أغنياء العالم لكنه منـــي بأكبر فشل في حياته. لقد وجد كتابات عربية على الحائط عمرها مئات الســـنين تبين أسماء الأشخاص الذين سبقوه إلى المكان: محمد أحمد، أحمد، أحمان، محمد علي... لقد صبره أنهم بدورهم وجدوا التابوت فارغـــا " إن هـــؤلاء اللصـــوص المصرين القدماء كانوا بالفعل محترمين في عملهم ".
بعدها اتجه جيوفاني إلى مصر العليا وفي عام ١٨٢١ م نظم معروضا لغنائمه في لندن في البيكاديللي.
من أجل هذا المعرض كتب حديثا عن " الأعمـــال والاكتشـــافات الجديـــدة فـــي الأهرامات، المعابد، المدافن، خلال الحفريات في مصر والنوبة ". كـــان حديثـــا مليئا بالغرور والمصطلحات العلمية غير المستخدمة في مكانها ولكنها ذات وقـــع جميل عند القراءة، وهي ملفتة للانتباه وجذابة أكثر من كتب العديد من العلمـــاء الذين فتح أمامهم جيوفاني الطريق إلى هرم خفرع.
لم يبد جيوفاني اهتماما بهرم منقرع، إذ من الواضح أنه أيضا مدفنا وليس مخبئـــا للكنوز.
لقد بقي هذا الهرم غير مدروس حتى عام ١٨٣٧ م عندما هبط إلى داخله العقيـــد البريطاني فير، وكانت هذه الواقعة ذات قصة معقدة وممتعة.
ينتمي ريتشارد وليام هوفارد فير (١٧٨٤-١٨٥٣ م) إلى أسرة عسكرية وقد كـــان أباه وجده جنرالان وأحد أحفاده أصبح جنرالا أثناء الحرب العالمية الثانية.
لقد حصل فير على تعليم جيد كلاسيكي وخاص وكان يتمتع بالميزات الضروريـــة للإنسان المقاتل.
لم تكن لديه روح النكتة المعروفة لدى الإنكليز. وصل فير إلى مصر عام ١٨٣٥ م مخلفا وراءه ٣٥ عاما من الخدمة العسكرية، لقد وصل من سوريا بمهمة كـــان

يفضل ألا يتكلم عنها دون مناسبة. في القاهرة لفتت انتباهه الأهرامات فذهب لمشاهدتها، " يحتمل أن هذه مدافن-فكر فير-، الطرقات تحت الأرض حفرت من أجل إيصال التوابيت ثم سدت بحجارة كبيرة على الأقل في بعض الأماكن أما الممرات الطويلة فوظيفتها الوصول إلى التوابيت أو إلحاق الأذى بها. بما أن هذه الممرات كانت مسدودة بألواح حجرية هائلة، يمكن أن نستنتج أن الأهرامات لم تستخدم من أجل المراقبات الفلكية، ولا من أجل الأسرار المقدسة للكهنة ولا من أجل أية أهداف دينية أخرى" لقد كان فير منبهرا بالأهرامات لكنه اختلف عن سابقيه في أنه أقترب منها كضابط استطلاع يقترب من قلعة ويريد أن يعرف عنها كل شيء حتى يضمن هجوما ناجحا. في أول أيام وصوله إلى مصر بنى فير صداقات تبين أنها كانت نافعة جدا. كان من بين معارفه الجدد القنصل البريطاني سلاون، المهندس البريطاني هيللوي، الذي خدم عند محمد علي مديوا للأعمال الاجتماعية باولو بناء من مالطة بالإضافة إلى زميله في الجيش العقيد كامبل. كما تعرف على مالك السفن والتاجر الجنوبي كافيليا.

كان شخصا مشغولا: عاش في مصر لمدة طويلة، كان يجمع الرمال من حول أبي الهول وكان مردود ذلك غير سيئ وكان يبيع القطع القديمة التي يجدها في المدافن المنتشرة، علاوة على ذلك كان باحثا مشهورا في الهرم الأكبر كونه هبط في أيام شبابه إلى الدهليز المشهور ونظفه حتى القاع ووجد هنالك حبالا استخدمها عام ١٧٦٥م القنصل البريطاني ديفيسون للهبوط وبرهن أن هذا الدهليز لا يؤدي إلى النيل أو إلى الصحراء حيث سار نصف دورة كبيرة ليعود أدراجه إلى قاعة المدخل، تعرف فير على أشخاص آخرين لكن أسماءهم كانت مرتبطة بالسياسة أكثر من ارتباطها بتاريخ مصر القديمة، "لقد كان علي أن أعود من مصر إلى إنكلترا عبر إيطاليا ومنطقة رينس وفكرت في ذلك الوقت أكثر من مرة بالمشاركة بعمليات البحث في الأهرامات".

كم قلنا سابقا لقد أثارت الأهرامات الحماس في نفسي وبسببها بقي في مصر حوالي السنتين، بجهود وكيل القنصل سلاون استطاع أن يحصل على توقيع

محمد علي على فرمان مؤلف من خمسين سطرا " كعلامة على المودة والتعاون يسمح... بدراسة الأهرامات للسادة: سلاون كامبل وفير خادمي ملك بريطانيا العظمى ولهيلم الرابع ".

لقد شكل الأشخاص المذكورين جمعية حيث ساهم كل منهم بمبلغ أولي وقدره ٢٠٠ تالير من أجل مصاريف الاستثمار، وقد تم تعين كافيا قائدا للأعمال، إلا أنه سرعان ما فقد كل من كلاوس وكامبل الاهتمام بهذا العمل وبذلك أصبح كل شيء على عاتق فير.

قبل كل شيء ركز فير انتباهه على حجرة الدفن في الهرم الأكبر، ما جذبه هو الآثار التي تركها ديفيسون الذي نفذ خلال البحث إلى حجرة واقعة فوق سقف حجرة المدفن .لقد كانت هذه الحجرة ضيقة وفارغة لكنها سمحت باستنتاج ما يلي: إن الهرم ليس كتلة حجرية صماء بل كان مفرغا من الداخل بشكل جزئي.

لاحقا دعت متطلبات الخدمة فير إلى السفر إلى مصر العليا فأوكل العمل إلى كافيلي.

" عندما ذهبت أول صباح إلى الهرم الأكبر ومن ثم إلى الهرم الآخر، اعتقدت أنني سأجد كافيلي وعماله، ولكن لم يكن هنالك أثر لهم، إلا أنني وجدتهم يعملون في ثلاثة مدافن تقع بين أبي الهول والهرم الثاني باحثين عن المومياء. أعلمني كافيلي أن جزء من العمال واصل العمل ليل نهار في الجهة الجنوبية " لحجرة دفيسون " والجزء الآخر فتح الهرم الثالث.

... بعد حديث طويل كنت خلاله أبدي انطباعات عدم الرضا ورغبة في إرجاع العمال ثانية إلى الهرم . أفهمته أنه في حال عدم رغبته سأجعل العمل في دراسة الهرم وبنيته الداخلية في يدي... عبر كافيلي عن رأيه بأن المقابر والمومياء هي أيضا موضوع دراسة علمية مثيرة وملفتة للانتباه، لكن طالما أنه بدأ بالحفريات فلن ينهيها ".

عندما تبين أن كافيلي يسعى من وراء هذه الحفريات إلى تعويض المال المدفوع لتمويل دراسة الهرم بالإضافة إلى تزويره أوراق بطرق مختلفة ليدفع له المال،

نشأ بين العقيد والقبطان حوار آخر قام العقيد بموجبه بإعفاء كافيلي من منصبه " مع إظهار الاحترام العميق له " .

" من الطبيعي أنني قبل الذهاب إلى إنكلترا أردت اكتشاف شيء ما "ــ يكتب فيرــ المهندس هيللوي الذي أتى إليه فير نصحه بأخذ مساعدة جون بيرينغ وهو مهندس أيضاً.

لقد مال فير إلى التعاون مع المالطي باولو الذي تعرف عليه وعلى بعض البريطانيين الذين كانوا يرغبون بالعيش في مصر.

وهكذا تكونت لديه غرفة عمليات اختار لقيادتها المهندس بيرينغ، أما عدد العمال المطلوب فقد أمنه بغير جهد حيث كان لديه المال كافياً.

بدون تأجيل أعطى الأمر بالتقدم نحو قلب الهرم الأكبر، كما قلنا لفت انتباهه في هرم خوفو لغز " حجرة ديفيسون " و " دهليز التهوية " (على الأقل كانت هذه هي وظيفتها المفترضة)، الذي يقود إلى الأعلى شمالاً وجنوباً. افترض فير أن الدهاليز تقود إلى سطح الهرم وبالفعل بعد عدة أيام وجد بيرينغ في منتصف الوجهين الشمالي والجنوبي فتحة،إلا أنه لم يستطع أن يبرهن أن هذه الفتحة هي ملتقى هذين الدهليزين لأنهما كانا مطمورين بالرمال ،لذلك أمر فير بتوسيع تلك الفتحة و تنظيفها. " خلال ٢٤ ساعة تيسَّر التقدم لست بوصات فقط ".

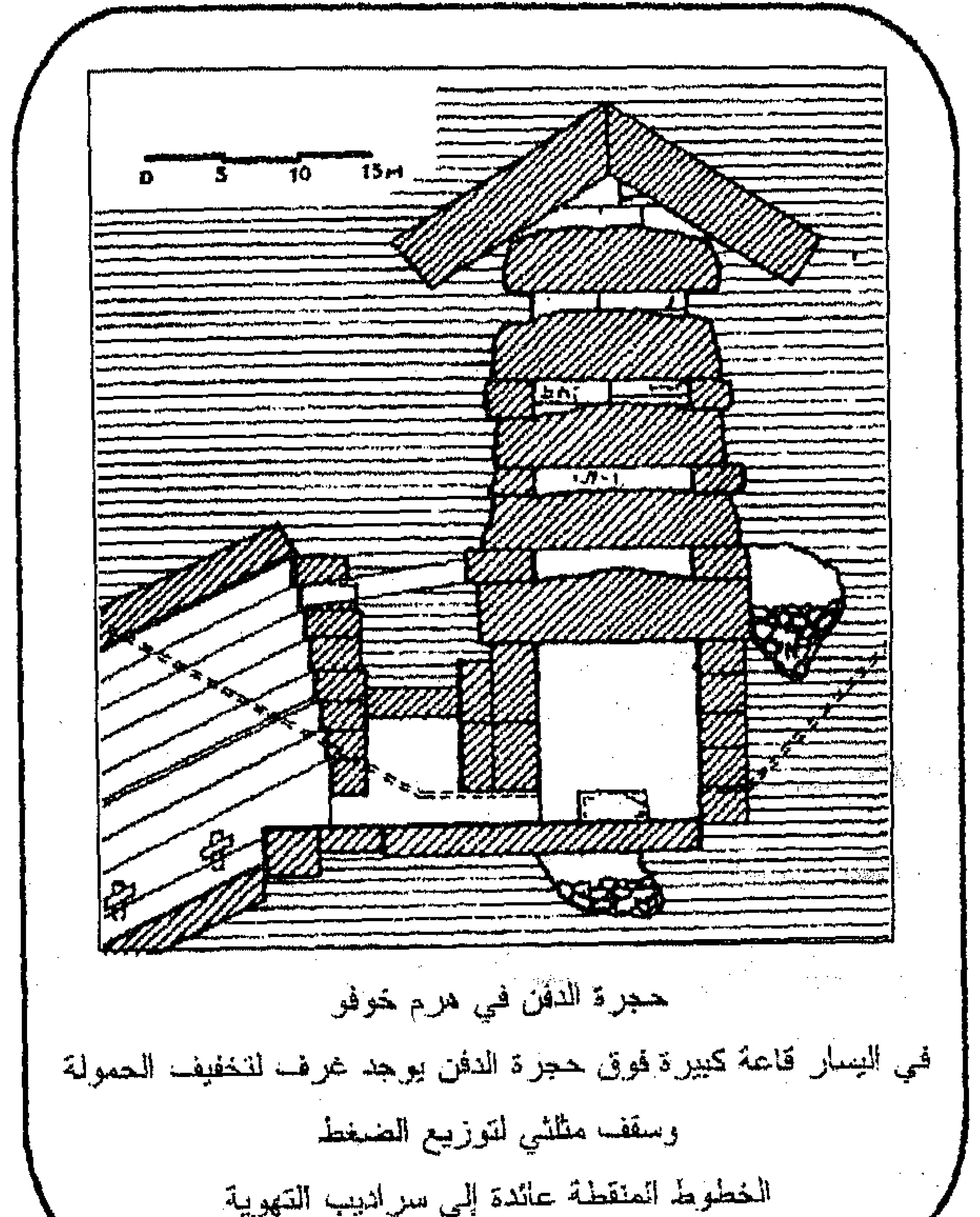
أمّا باولو فحاول في هذه الأثناء بواسطة مثقب دوار أن يثقب السقف الغرانيتي وينفذ إلى " حجرة ديفيسون " ، لكن العمل القاسي والخطر لم يعطي أية نتيجة تقريباً " فتح ثقب أسهل من التحطيم والتحطيم أسهل من البناء..."، إلا أن فير لم يفكر مرّة واحدة بهذه الأمثال العربية. لقد أرسل خلف أحفاد الفراعنة بناة الأهرامات العاملين في مقالع الحجارة على الضفة الأخرى لنهر النيل، بنفس الوقت أمر بجلب البارود المستخدم في المدفعية.

لقد حدث ما لم يشهده الهرم الأكبر على امتداد آلاف السنين من وجوده: في ربيع عام ١٨٧٣ م هزَّ انفجار كبير حجرة الدفن " هؤلاء الشباب ماهرين في عملهم –

كتب فير باحترام – لقد كان فتح الثقوب من أجل دك البارود عملا ليس بالسهل، أيضا كان تنظيف الركام والألواح الساقطة من السقف بعد الانفجار يتطلب جهدا جبارا كونه مقرونا بالخطر ".

لقد تم كل شيء حسبما خطط له ضابط الاستطلاع، لم يلحق الأذى بأحد ولكن الهرم أصيب بجراحات ملحوظة. في بعض الحالات الحتمية يكون علم الآثار – تدميرا. المعرفة هنا أهم بكثير من الأثر، لقد كانت نتائج هذه العملية مثيرة، إذ تبين أن فوق " حجرة ديفيسون " توجد أخرى وفوقها حجرة أخرى وهذه الحجر خمس.

لقد كنت جميع الحجرات فارغة ومنخفضة جدا وتنفصل عن بعضها بواسطة ألواح حجرية مشغلة بخشونه. كانت الحجرة العلوية مغطاة بلوحين حجريين كبيرين يشكلان سقفا مثلثيا عملاقا. لقد أدرك كل من فير وبيرينغ مباشرة وظيفة هذا التصميم: هذه الحجر الواقعة فوق غرفة الدفن تتلقى الحمل الناشئ عن ضغط الثلثين العلويين للهرم.



حجرة الدفن في هرم خوفو

في اليسار قاعة كبيرة فوق حجرة الدفن يوجد غرف لتخفيف الحمولة وسقف مثلثي لتوزيع الضغط

الخطوط المنقطة عائدة إلى سراديب التهوية

لقد حسب المهندس بيرينغ في المكان أن " احتياط المتانة (عامل الأمان) كبير جدا "، وأن الحجرة العلوية ذات السقف المثلثي كانت تفي بالغرض.

لكن القيمة الرئيسية هنا كانت شيئا مختلفا، في الحجرتين العلويتين كانت توجـــد نقوش هيروغليفية توضح اسم صاحب الهرم... الفرعون خوفو.

بعد هذا النجاح انطلق فير إلى هرم آخر وبمســاعدة البــارود فتحــوا المدخــل الأساسي للهرم.

بعد ذلك أمر فير بنقل براميل البارود إلى الهرم الثالث وبعد ستة أشهر من العمل المجهد وصلوا إلى حجرة الدفن تحت أرضيه حيث وجدوا تابوتـــا. كـــان هـــذا التابوت مصنوعا من قطعة واحدة من الصخر البازلتي مع نقوش جميلـــة تبيـــن واجهة قصر الفرعون ولكن – آه – هو أيضا فارغ.

لقد علم على الحائط اسم الرجل الذي وصل إلى هنا قبلهم ووجد التـــابوت،كـــان اسمه محمد رسول.

عند تنظيف الحجرة وجد شيئان ثمينان: بقايا جسم إنساني محنط وغطاء خشـــبي للتابوت مع كتابة هيروغليفية: " أوسيريس، ملك مصر العليا والســـفلى منقـــرع الخالد أبدا ". أرسل فير التابوت على متن سفينة شراعية، إلا أنها غرقـــت معـــه قرب شواطئ إسبانيا في ٢٩ تموز عام ١٨٣٧ م. دخل فير إلى مدفـــن منقـــرع وكان عليه بعد شهر تماما أن يغادر مصر، إلا أنه وضع خطة لدراسة الأهرامات وأسندها إلى بيرينغ. لقد اهتم قبل كل شيء بالهرم المدرج قرب صقارى، الـــذي وجد تحته المهندس الإيطالي سيغاتو والبروسي الجنرال مينوتولي بزمن ليس بعيد " جزء من مومياء بجمجمة مطلية بالذهب وبقايا صندلين (نعلين) (للأسف هـــذه الأشياء ابتلعها البحر مع السفينة، التي نقلتها إلى برلين). وقد أقترح فير أيضـــا على بيرينغ أن يتفحص الأهرامات في أبو صير، داشور وفي كل مكان يرتئيـــه داعما إياه بالمال اللازم. لقد استقام العمل لبيرينغ بشكل عظيـــم: قـــاس الـــهرم المدرج في صقارى ثم وضع أول خريطة للبنية الداخلية لـــه مخترقـــا ممراتـــه وحجره الواقعة تحت الأرض.

في أبو صير درس الأهرامات الثلاث الكبرى، وفي داشور الهرم القرميدي (الذي تحدث عنه هيرودوت على الأغلب) والهرمين الحجريين في أبـــو رواش، كمـــا

اكتشف هرما حفظ منه الجزء الواقع تحت الأرض، كما درس بعناية الأهرامات في زاوية الأريان، ليشت، الميودم، حوار، وهنالك اضطر للتوقف عن العمل: حاصر البدو المعسكر وفتحوا عليه النار.

دافع بيرينغ بشجاعة، ساعده العمال، وعندما نفذت الذخيرة خرج لمواجهة العدو بالسكين، لقد أنقذته الصدفة من النهاية المحتومة، إذ أن قوة من الجيش المصري ظهرت فجأة.

نشر فير هذه الأبحاث في ثلاث مجلدات كبيرة " الأعمال المنفذة في أهرامات الجيزة عام ١٨٣٧ م " عام "١٨٤٠ – ١٨٤٢ م" ثم الحق بها بيرينغ البوم رسومات مع تقرير للإيضاح " الأهرامات الواقعة جنوب الجيزة قرب أبو رواش ".

إن عمل فير لم يجعل القيادة تثني عليه فقد أحيل إلى المعاش دون ترفيع. أحد أحفاده الذين كانوا أوفر حظا منه في الترقي بالمناصب العسكرية والحاصل على نجمة أكثر من جده وصفه : إذا لم يكن "العنزة السوداء" في الأسرة ، فإنه على الأقل غريب الأطوار.

طبعا نحن نفهم: ضابط استطلاع يفر إلى علم غير تطبيقي مثل عالم الآثار المصرية.

وهكذا إلى منتصف القرن التاسع عشر كانت الأهرامات قد قيست ووصفت ودرست من الخارج والداخل.

الجزء الرابع

وصول علماء الآثار المصرية

وقف عند مهد الآثار المصرية القديمة ثلاثة أشخاص: إمبراطور، فنـــان، عـــالم لغة.

إمبراطور مع ٣٨٧٠٠٠ جندي، ١٧٥ عالمـــا وفنانـــا ذوات مواهـــب متعـــددة ،أخصائيون باللغات الميتة وكلهم فرنسيون.

الإمبراطور لم يكن إمبراطورا بعد لكنه سيكون لاحقـــا. كـــان أحـــد جـــنرالات جمهورية فرنسا، التي قالت بأنها لن تكون عدوانية أبدا. في التاسعة والعشـــرين من عمره خاض حربا ناجحة في إيطاليا باسم جمهورية فرنسا، لقد اختمرت فـــي رأسه خطط طموحه وهو لم يرى من الضروري كشفها: يحلم الجنرال بأن يصبح سيزارا جديدا.

لقد وافقت حكومة بلاده برحابة صدر على اقتراحه باحتلال مصر، وذلك لضرب ثلاثة أرانب دفعة واحدة كما يقال: قبل كل شيء التخلص من "بونـــابرت هـــذا"، ثانيا كسب مستوطنة روما السابقة، ثالثا ضرب القوة البريطانية في الشرق.

لذلك أمنوا لنابليون جنودا أكثر مما كان لدى الإسكندر المقدونـــي الـــذي توجـــه لاحتلال العالم، كما أمنوا السفن الضرورية، المدافع والمال. لقد سمحوا له بـــأخذ العلماء الذين اختارهم بنفسه على غـــرار مـــا فعلـــه الإســـكندر: المؤرخيـــن، الجغرافيين، المستشرقين، المهندسين، الرسامين واختصاصيين آخرين. لقد أحـــب نابليون دائما أن يحيط نفسه بأناس يعرفون أكثر منه. لقد أمـــل أنـــه بخبرتـــهم ونصائحهم ومشروعاتهم سيساعدونه في استثمار الأراضي المفتوحة، بالإضافـــة إلى ذلك (وكما شرح نابليون خلال اجتماع للعلماء في معهد فرنسي) يســـتطيعون جمع مواد علمية تساعدهم في التطوير الذاتي.

لقد كان دائما يؤمن لهم المساعدات المختلفة الجوانب والحماية، فقبل كل معركـــة كان يعطي أوامره: الحمير والعلماء في الوسط ".

في ١٩ أيار علم ١٧٩٨ م أبحرت السفن التي تحمل نابليون وعسكره وجنده من ميناء طولون، وفي ١ تموز بعد توقف قصير في مالطا، التي لم يرغب في ضمها إلى فرنسا وصل إلى الإسكندرية.

في ذلك الوقت كانت الإسكندرية مدينة صغيرة عدد سكانها ٥٠٠٠ نسمة، في اليوم التالي رست سفنه على الشاطئ واحتل المدينة من الهجوم الأول.

بعد استراحة قصيرة اتجه مباشرة عبر الصحراء إلى القاهرة، استمر المسير أسبوعين تحت لهيب الشمس والرمال المحرقه، لقد عانى جنوده كثيرا من العطش والجوع، وأخيرا شاهدوا الأهرامات، لقد انبهروا بها ولكن ليس لوقت طويل إذ أنهم خلعوا ملابسهم وارتموا في النيل.

كانت المدينة الهدف على الضفة الأخرى – مدينة بمئات المآذن بقباب فوق مساجدها، والأهم من ذلك يوجد فيها طعام. لم يكن يفصل بينهم وبين المدينة سوى النهر العريض الذي يتوجب عليهم قطعه بالإضافة إلى فرقة الخيالة المملوكية المدربة بشكل ممتاز وعلى رأسها الخديوي المصري مراد بيه.

في ٢١ تموز حدثت المعركة مشهورة عند الأهرامات على الضفة اليسرى لنهر النيل، حاليا قرب جسر السكة الحديدية، حيث لا يوجد ما يذكر بتلك المعركة.

انتصر الفرنسيون على المماليك المسلحين بالسيوف فقط. فقد الفرنسيون ٤٠ شخصا أما المماليك أكثر من ألفين. في صباح ٢٣ تموز دخل نابليون من بوابات القاهرة المفتوحة.

سوف أؤسس هنا وأتثبت جيدا – بعدها أتحرك إلى الأمام ...إلى الهند!.

ولكن الأوضاع تغيرت، فبعد شهر تماما من هجوم نابليون على الأراضي المصرية في ١ آب ١٧٩٨م ضرب الأدميرال نيلسون الأسطول الفرنسي، الذي كان يطارده طيلة الوقت في أرجاء المتوسط دون جدوى ولكن في معركة أبو قير الواقعة على مسافة ٢٠ كم شرق الإسكندرية دمره تماما. لقد وقع نابليون في المصيدة، لأن طلب المساعدة من فرنسا أمر غير وارد. بقي أن يستمر في القتال على اليابسة. أخمد نابليون الثورة التي قامت في القاهرة وهزم القوات التركية

التي أرسلها السلطان ضده ووصل إلى حدود سوريا وأرسل واحدةً من مجموعاته الاستكشافية إلى مصر العليا، ولكن كل نصر كان يكلف نابليون العديد من الأرواح، والخسارة الكبرى بين الجنود كانت من جراء جيوش الذباب – التي كانت تصيب العيون بالأمراض الخبيثة، آلاف الجنود أصيبوا بالعمى بسبب عدم معرفتهم بالرمد الحُبَيْبي وطبِّ العيون.

كما ثار من المقاتلين نهر النيل أيضاً: فبعد أن سبح آلاف الجنود في مياهه أصيبوا بالبلهارسيا، وأصبحت الزنطارية ظاهرة عادية وتفشّى وباء الكوليرا والطاعون بينهم.

بعد أن وزن الأمور قرر القائد العام الاحتفاظ بمصر الثمينة، التي تتمتع بوضع خاص بالنسبة لفرنسا وأوربا. غادر نابليون القاهرة وفي ٢٤ آب عام ١٧٩٩م أبحر على متن الفرقاطة " ميويرون " إلى فرنسا تاركاً وراءه الجيش تحت رحمة القدر.

الكل يعلم ما نجم عن هروب نابليون – بعد القيام بانقلاب حكومي أصبح في سدَّة الحكم، وبعد موت الجنرال كليبر الذي أوكل إليه نابليون القيادة العامة، قام الجنرال بيليار بتوقيع معاهدة الاستسلام في القاهرة في كانون أول عام ١٨٠١م، سمح المنتصرون الإنكليز بجلاء بقايا الجيش الفرنسي مع العلماء من مصر.

وهكذا انتهت مغامرة نابليون في مصر. بذلك تكون الانتصارات البرَّاقة وبطولة الجيش الفرنسي التي لا مثيل لها قد ذهبت هباءً منثوراً، ولكن كانت هنالك نتيجة إيجابية واحدة أنجزها العلماء الذين كان ينعتهم الجنود بالحمير. هؤلاء الناس فتحوا مصر أمام العلم، لقد أثاروا الاهتمام بتاريخها وثقافتها وحضارتها. أعتقِدُ بأن المؤرخين سيختلفون في وجهات النظر حول نابليون، يفضل علماء الآثار المصرية القديمة أن يلتزموا الحياد تجاه هذه القضية ولكن إذا جُذِبوا إلى الحوار فإنهم سيَذْكُرونَ نابليون بالطيب.

لقد كان نابليون يهتم دائماً بمصر وأثَّر عليه في ذلك كتاب نيبور وعدة كتب أخرى قرأها عن مصر.

بعد وصوله إلى القاهرة أنشأ مباشرة اللجنة المصرية لتنسيق الأعمال العلمية، لقد كان العلماء يستطيعون العودة إليه مثل أي جنرال. لقد بادر نابليون نفسه إلى العديد من أعمال البحث العلمي بما فيها الدراسات حول الأهرامات.

خلافا للرأي المنتشر لم يصعد نابليون إلى الأهرامات أبداً، لكنه تفحصها قبل المعركة التي فتحت له طريق القاهرة. قام نابليون وهو يراقب العقيد كوتيل وبعض الضبَّاط الذين ذهبوا لتسلق أعلى هرم. بحساب حجم الهرم شفهياً ، حدَّد بأنه من أحجار أهرامات الجيزة الثلاثة يمكن بناء جدار يحيط بفرنسا بارتفاع ثلاثة أمتار وسماكة ٣٠ سم.

في ٢٣ آب عام ١٧٩٨م عهد لكوتيل بقياس الأهرامات وكل ما يحيط بها بشكل دقيق وتفحُّصِيها من الداخل. من أجل تنفيذ هذا الأمر وضع نابليون تحت تصرف كوتيل العدد اللازم من الناس الذين أخذهم من كتائب العمال، كما وضع تحت تصرفه المهندس لي بيير (وهو الذي خيب أمل نابليون ببرهانه أنه لا يمكن شق قناة بين البحر الأحمر والبحر المتوسط لأن قاع البحر الأحمر أعلى بـ ٩٩٠٨ ملم) لاحقا عيَّن بدلاً منه العقيد في سلاح المدفعية غروبير قائد حامية الجيزة.

" وضع تحت تصرفه ٥٠ عاملاً تركياً إلى جانب فصيلة من كتائب العمال – كتب كوتيل – لقد استكشفوا قاعدة الهرم الأكبر وعمقوا الدهاليز المؤدية إليه وفككوا أحد الأهرامات الصغيرة.

نبشوا أبو الهول من تحت الرمال وأجروا حفريات في عدة مدافن. خلال هذه الأعمال قمنا بقياس مدخل الهرم الأكبر بالإضافة إلى الردهات والحجرات التي وصفها بالفعل مختلف الرحالة ".

قام لي بيير بتحضير رسومات دقيقة ومخططات للأهرامات ،أكملها لاحقاً المهندس سيتّيل.

عندما سلَّموها إلى نابليون أبدى غروبير دهشته من أنه " خلال كل هذه السنين لم يعط أحد قياسات دقيقة لهذا الصروح العجيبة ".

إلا أنّ أدق الرسومات لم تبيّن في الأهرامات أي شيء جديد: وصلت دراسة هذه الرسومات إلى مرحلة لا يستطيع فيها أحد مساعدة العلماء الحديثين سوى المصريين القدماء أنفسهم.

لقد فهم ذلك كل أعضاء اللجنة المصرية الذين لم تنحصر اهتماماتهم بالأهرامات فقط، وفهم ذلك نابليون أيضاً. لقد وضعوا نصب أعينهم مسألة ضخمة: وهي المعرفة الدقيقة والشاملة لكل ما يخُصُّ مصر القديمة، هذا يعني قياس ورسم مخططات كل الآثار المتبقية ورسم جميع التماثيل ونقل جميع الكتابات المرسومة والرسوم الجدارية.

كانت كمية المعالم الأثرية هائلة: وأينما ذهبت ترى أمامك معبداً ذو نُخُسٍ هائلة وقاعاتِ أعمدةٍ ذاتِ تماثيل عملاقة ومسلاّت وتماثيل عملاقة وتماثيل على شكل " أبو الهول ": لا داعي للبحث عن أي شيء تحت الرمال.

إن ما أدهشهم كمية الكتابات: لقد غطّت جدران المعابد وقواعد التماثيل، الأعمدة، المسلات، التماثيل الصغيرة، الجُعلان المنمنمة.

أحد أعضاء اللجنة حسب أنه " إذا أراد شخص ما نقل كل الكتابات من المعبد الكائن في إيدفو وعمل من الصباح وحتى المساء سيحتاج إلى عشرين عاماً لإتمام النقل " لقد كان هذا واحداً من كثيره " كان هؤلاء المصرين كانوا أغزر الشعوب كتابة في القدم ".

لم تظهر المشاكل بسبب العدد الكبير للمعالم الأثرية بل بسبب تنوعها. لقد بدت الآثار المصرية للعين الأوروبية التي اعتادت على النماذج اليونانية غريبة وغير مفهومة: لم يكن هناك تقابلاً بين التناسب المستخدم والقوانين المتعارف عليها، التماثيل الشاخصة بذهول تبدو وكأنها منبثقة مباشرة من الكتل الحجرية.

أصعب ما في الأمر كان نقل الكتابات، التي تتألف من مجموعة من الإشارات المعقدة بشكل غير عادي أوبسيطة إلى حد الدهشة ولا أحد يعرف مطلقاً ماذا يعني أي منها: هل هو حرف أم كلمة.

الآن أصبح كل ذلك معروف لنا ولكن في ذلك الوقت كان هذا أول لقاء مع ثقافة وحضارة غير مفهومتين البتة. يصعب تخيل وضع الرسامين من حاشية نابليون إذا أخذنا بعين الاعتبار أن ذلك العمل أُنجز باليد، إذ لم تكن آلات التصوير معروفة في حينها.

من هؤلاء الرسامين دخل شخص في تاريخ علم الآثار المصرية وقد نُفِّذَتْ سيرة حياته في فيلم سينمائي " أرستقراطي قبل وبعد ١٧٨٩م ". إنه دومينيك فيفيان دينون (١٧٤٧-١٨٢٥م)الذي كان في النظام القديم المفضل عند المركيزه دي بومبا دور وبالتالي عند لودفيك الخامس عشر.

بالإضافة إلى اللهو والحوادث الظريفة اللائقه بمكانته في المجتمع مارس دراسة التماثيل القديمة.

حسب العادات المتوارثة أصبح دينون دبلوماسياً وبدء نشاطه في بيتربورغ حيث فتن قلوب الكثير من السيدات ونال عطف يكاترين الثانية. في فترة تواجده في سويسرا تقرب دينون من فولتير، الذي يستطيع أن يقدِّر ذكاءه الحاد. لقد كتب عدة قصص شهوانية لطيفة وغير لطيفة حصلت على اعتراف بلزاك، بالإضافة إلى ذلك رسم بشكل أساسي لوحات خلاعيه.

وصلت أخبار الثورة الفرنسية إلى إيطاليا، حيث كان يدرس في قصور أصدقائه الأعمال الفنية لرينيسانس.

عاد إلى باريس. ومع أنه لم يقال من الخدمة وجد نفسه في قائمة المهاجرين. حاول دينون إعادة الأملاك المصادرة ولكن لا جدوى، لأنه بغض النظر عن حضوره المعروف إلى العاصمة، فقد بقي في نظر البيروقراطيين مهاجراً. انتقل إلى مونمارتريه واستأجر شقة سيئة وعاش من بيع اللوحات الساخرة. كان أحياناً يذهب إلى ساحة غريف لتبادل نظرة الوداع الأخيرة مع أحد أصدقاءه الواقفين أمام المقصلة. عندما ضاق ذرعاً بكل شيء أنقذه فنان الثورة ديفيد، لقد أعجب برسومات دينون ودعاه للعمل مع جماعة الثورة، بعد ذلك لفتت رسوماته انتباه روبيسبير، الذي شطب اسمه من المهاجرين وأرجع إليه أملاكه. بذلك عاد ثانيةً

رجلاً غنياً من علية القوم. تعرف دينون على جوزفينا بوكارنية، التي قدمته إلى نابليون، وبفضل محسوبيتها شارك دينون بالحملة المصرية. لقد سُحر دينون بمصر، حيث أبهره تباين الصحراء والخضرة، المساجد، الفلكلور، وبشكل رئيسي-الآثار القديمة.

لقد التهمها بنظراته وبقلم رصاص مدبب أنجز رسمه على الورقة، أثناء " المعركة عند الأهرامات " سَلِمَ دينون مرتين لأنه اهتم بالأهرامات أكثر من المعركة، " لقد اهتزت أعماق روحي بهذه المعالم العملاقة العظيمة وآسف أن الليل قد سترها بسرعة تحت جناح الظلمة. مع أول خيوط الفجر عدت لألقي التحية عليها ورسمت لها عدة رسومات ". خلال فترة تواجده في القاهرة كان دينون يتردد دائماً على الأهرامات، بعد ذلك أصبح في لواء الجنرال ديزيه، الذي لاحق فلول مراد بيك، التي انسحبت إلى مصر العليا وهكذا اوجد نفسه في أسوان. عرض ديزيه الذي كان في عمر أولاد دينون عليه مكاناً في القافلة لحمايته ولكن الأخير رفض هذا العرض بعد أن شكره عليه وطلب منه حصاناً سريعاً لكي يكون أول من يصل ولكي لا يتأخر عن الجميع لأنه سيرسم دون انقطاع.

لقد تحمل الفنان البالغ من العمر ٥٠ عاماً الحرمان أفضل من الجنود الشبان، لقد كان يرسم خلال المسير وخلال التوقف، في الصباح الباكر وفي آخر المساء، لم ينقطع عن الرسم حتى عندما كان الرصاص يمر بالقرب منه. لا يستطيع أن يؤكد أنه كان فناناً من الدرجة الأولى ولكنه أتقن صنعته. لقد حافظ على الواقعية واستطاع أن يظهر التفاصيل بدقة، بالإضافة إلى ذلك كان يملك موهبة خاصة للإحساس بالأسلوب الفني للمصريين القدماء، لقد اخترق دينون حاجز الزمن إلى كتاباتهم ورموزهم ونقل الكتابة الهيروغليفية بإحساس رقيق ودقةٍ جعلت العلماء يعتمدون عليه كما يعتمدون في الوقت الحاضر على آلات التصوير.

عاد دينون من مصر العليا حاملاً معه حصيلةً أثمن من الذهب، الذي انتزعه الجنود الفرنسيين من السكان العرب والأقباط.

لقد كان أول من رسم مجموعة رسومات (حوالي المائة) لأطـلال مدينـة فيـف ومعبد ديندير.
رسوماته التي يبين فيها معبد امنحوتيب الثالث على جزيرة ايليفانتين–هي آخر ما تبقى في الذاكرة عن هذا المعبد لأنه دُمِّر لاحقاً.
لقد سيطر على دينون شغف كبير في إغناء متحف اللوفر بالقطع المصرية القديمة ، حيث جمع كل ما يمكن أن تتسع له العربة. إن كل الغنائم التي جمعها العلمـاء والجنود لم تصل إلى باريس لأنه عندما استسلم بليار، اعتـبر الإنكلـيز أن هـذه القطع جمعت بشكل غير قانوني وتمت مصادرتها. بالنتيجـة أرسـلها الجـنرال هاتشنسون إلى لندن، حيث وجدت لها مكاناً فـي المتحـف البريطـاني، إلا أن الفرنسيين وقبل تسليمها قاموا برسمها قطعة قطعة ووضعوا نمـاذج لـها، هـذه النماذج والرسومات بما فيها تلك العائدة لدينون اعترف بها الإنكلـيز (ممتلكـات خاصة) وسمحوا بإخراجها إلى فرنسا.
" جمع الآثار " الذي مارسه دينون والذي يمكن أن نسميه على خلاف ذلك جلـب له وظيفة المدير العام للمتاحف الفرنسية، وقد استمر بهذا النشاط خلال الحمـلات الأخرى للجيش الفرنسي. عند عودته مـن مصـر باشـر بطباعـة رسـوماته ومشاهداته، وفي عام ١٨٠٢م أصدر دينون كتاباً منسقاً بشكل رائع " رحلة إلـى مصر العليا والسفلى ".
لقد أثار هذا الكتاب ضجةً كبيرةً مفادها " أن نابليون أحتـل أراضٍ ولـم يسـتطع المحافظة عليها بالسيف، لكن دينون حافظ عليها بقلم الرصاص".
لقد كان هذا الكتاب مقدمةً لكتاب آخر أعظم " وصف مصر " مؤلـف مـن ٢١ مجلداً ١٨٠٩–١٨٢٢م (بعد ذلك أعيدت طباعة الكتـاب بيـن عـامي ١٨٢١–١٨٢٩م حيث أصبح يتضمن ٣٧ مجلداً). في هذا الكتاب التذكاري الذي ليس لـه مثيل جُمِعت نتائج أعمال جميع أعضاء اللجنة المصرية وعدد من الاختصاصيين.

في كلا الكتابين أصبحت مصر بمتناول أي شخص كما لو أنـــها وضعـــت علـــى راحة اليد، ولكن لم يكن هناك أية إيضاحات تقريباً: تحت الرســـومات الجميلـــة، التي صورت الآثار المصرية لم يكن هناك معلومات عن الحقبة التي بنيت خلالـــها أو عن وظيفتها واسم بانيها.

لقد أعاق النفاذ إلى مصر القديمة حاجز الكتابة المصرية.

معروف منذ عهد هيرودوت أن المصرين استخدموا ثلاثة أنـــواع مـــن الكتابـــة: الهيروغليفية، الهيراتية والديموتية، ولكن لاأحد يعرف أيّاً منها.

طبعاً منذ عهود قديمة حاول العلماء الأوربيين قراءة الألغاز الهيروغليفية. لم يكـن لديهم نقصاً في المصادر، التي يمكن بمساعدتها دراسة هذه الرموز (ولكنها كـانت مع ذلك أقل بكثير مما بين يدي العلماء العرب، الذين لا نعرف أي شـــيء عـــن محاولاتهم في قراءة هذه الكتابة).

على سبيل المثال في روما يوجد ١٢ مسلة منقوشة بالكتابة الهيروغليفيـــة علـــى كامل ارتفاعها.

ويوجد تماثيل نقشت عليها كتابات، كما وجدت عدة نصوص مصرية فـــي كتـــب الرحالة.

وقد وجد بين أيدي العلماء كتاب مســـاعد أكـــثر قدمـــاً " الهيروغليفيـــة " كتبـــه هورابولون المولود في ديورير بيركهايمر، ومع ذلك لم يتوصل أحد من العلمـــاء إلى نتيجة.

درس هورابولون الهيروغليفية على أنها كتابة رمزية وقد شرح الكثير مـــن هـــذه الرموز بشكل مقبول من خلال شكلها الخارجي، ولكن الهيروغليفية لم تكن فقـــط كتابة رمزية، فلو أن ذلك كان صحيحاً لكانت بعض العلامات تعني ما تشير إليـــه الأدوات التي تمثلها (أو خصائصها أو تأثيرها..) ولكان فهمها ممكناً دون معرفـــة اللغة المصرية القديمة.

تمثيل الثور كان يمكن أن يعني كلمة " ثور " ، تمثيل ثور مع محراث "حَرَثَ "، تمثيل التمساح-كلمة " تمساح "، كما لو أن المصرين لم يستطيعوا لفظ هذه الكلمات.

بعض الرموز الهيروغليفية شرحها هورابولون بشكل صحيح: على سبيل المثال الخط المتموج يعني " ماء "، بعض الرموز الأخرى عالجها بشكل منطقي أيضاً ولكنه لم يهتد إلى المعنى الصحيح فمثلاً رَسْمُ النحلة يعني برأيه " شَعْبْ " لأن الشعب المصري القديم كان كادحاً محباً للعمل مثل النحل، أما في الحقيقة فقد كان ذلك لقباً من ألقاب الفرعون الحاكم لمصر السفلى. وهكذا نرى أن هورابولون كتب كتابته دون إلمام خاص بالأمور مع أنه في الحقبة التي عاش بها أي في القرن الرابع قبل الميلاد استُخدِمت في مصر الكتابة الهيروغليفية.

إذا كان الناس القدماء بعيدين بهذا الشكل عن الكتابة الهيروغليفية فكيف يمكن فهمها في العصور المتقدمة التي تفصلها قرون طويلة عن مصر القديمة ؟.

البعض لم يُتْعِبْ نفسه كثيراً في التفسير: فمثلاً يوحنا بولتساني شرح في عام ١٥٥٦م الهيروغليفية " بالحدس " ورأى فيها " رمز آلهة اللغات ".

الفرنسي بيير لاغلو اعتبرها " الأصول الأولية لشعارات " طبقة الأشراف في أوربا الغربية.

العالم اليسوعي افاناسي كيرخير (١٦٠٢-١٦٨٠م) العارف بمصر واللغة القبطية (وهو شخص عبقري مؤسس " نظرية الميكروبات " و "المصباح السحري") درس الهيروغليفية عشرات السنين، قرأ مجموعة إشارات في إطار بيضوي كما يلي: " يجب أن يتم الوصول إلى عطف الرب اوسيريس عن طريق الطقوس المقدسة والعلماء والكهنة عندها تكون هدايا النيل مقبولة ".

وفي الحقيقة كانت ترجمة ذلك كله عبارة عن اسم أحد الفراعنة من أسرة ابرييس السادسة والعشرين.

إن تاريخ فك ألغاز الكتابة الهيروغليفية مليء بالأخطاء التي يتحمل وزرها هورابولون والعلماء الذين أخذوا منه كل شيء كما هو. أول من سار بهذا

الطريق هو الإنكليزي وليام وربرتون. في عام ١٧٣٨م اقترح أن الهيروغليفية ليست مجرد رسوم، بل رموز مع أصوات مقابلة لها، لكنه أخطاء في كل ما جاء به بعد ذلك. أيضاً أخطأ الفرنسي جوزيف دي غين الذي عاصره وقال بتجانس الكتابتين الهيروغليفية والصينية واستنتج أن المصريين في غابر الأزمان عاشوا في الصين. أخطأ أيضاً معارضو غين الذين قالوا بأن الصينيين عاشوا في مصر، ولكن في النهاية وُجِدَ العالم الذي استطاع حل الهيروغليفية. إنه جان فرانسوا شامبولون.

قصة حياة شامبولون—قصة رجل عبقري. ولد في ٢٣ كانون أول عام ١٧٩٠م في فيجاك الواقعة جنوب شرق فرنسا. في السنة الخامسة من عمره ودون مساعدة الكبار تعلم القراءة والكتابة (مقارناً الصلوات التي يتعلمها مع النصوص).

في التاسعة من عمره قرأ اللاتينية واليونانية (مرةً ثانية دون مساعدة خارجية، من مكتبة أبيه)، في الحادية عشر من عمره قرأ الكتاب المقدس باللغة العبرية القديمة. انتقل إلى غرينوبل حيث كان أخوه جاك بروفيسور في الأدب اليوناني.

في الثالثة عشر من عمره بدء بدراسة اللغة العربية والقطبية (" أكتب مذكراتي باللغة القبطية للتمرين "). وفي الخامسة عشر من عمره درس نصوصاً فارسية وزندية وسنسكريتية ومن أجل التسلية—اللغة الصينية.

إضافة إلى ذلك وفي الحادية عشر من عمره



جان فرانسوا شامبوليون (١٧٩٠-١٨٣٢)
((الذي فك كتابة المصريين القدماء الميته))

ألَّف كتاباً موضوعه غير عادي " تاريخ الكلاب المشهورة " وفي الثانية عشر من عمره ألَّفَ أول رسالة علمية بعد دراسة شاملة للمؤلفات المكتوبة خلال ثلاثة آلاف سنة (ابتداءً من الكتاب المقدس، بلاتون، تسيسيرون وحتى مونتيسكيه وفولتير) مفاد هذه الرسالة أنَّ " الشكل العقلاني الوحيد للدولة هو الجمهوري " وفي وقت الفراغ قام بوضع جداول مقارنة زمنية للتاريخ العالمي ابتداءً من "آدم عليه السلام وحتى شامبولون الصغير ".

في السابعة عشر من عمره أصبح عضواً أكاديمية في غرينوبل حيث قرأ محاضرة وهي عبارة عن مقدمة لكتابه " مصر خلال زمن الفراعنة ".

لقد اهتم شامبولون بمصر مذْ كان في السابعة من عمره، أخوه الأكبر أراد المشاركة في حملة نابليون ولكنه لم يحصل على كفيل " حماية "، بعد سنتين وقع في يد شامبولون عدداً من مجلة " الرسول المصري " احتوى على خبر مثير " أحد الجنود أزاح الرمال عن جدران قلعة سيفجولين قرب (الرشيد) على النيل فوجد حجراً بازلتياً مسطحاً، بحجم طاولة الكتابة نقشت عليه كتابتين مصريتين وواحدة يونانية ".

أمر الكابتن بوشار بإرسال هذا الحجر إلى القاهرة حيث قُرِأتْ الكتابة اليونانية. لقد احتوت على شكر الكهنة لبتوليميي الخامس يبيفان (١٩٦-قبل الميلاد) على الإحسان الذي أبداه، وانتهت الكتابة بكلمات مفادها أن هذه الكتابة نقشت " بالأحرف المقدسة المحلية والإلينية ".

إن ما وُجِدَ يعطي إمكانية فك رموز الكتابة المصرية القديمة-علق الناشر "، وبقى شامبولون متذكراً ذلك.

بعد مرور سنتين تعرف لأول مرة على نماذج أصلية للكتابة المصرية.

بريفكت جوزيف فورييه عالم الرياضيات المشهور، الذي كان في حملة نابليون سكرتيراً للجنة المصرية شجع شامبولون على نجاحه في العلم ودعاه ليشاهد المجموعة التي جمعت في مصر.

" سوف أقرأها بعد عدة سنوات عندما أصبح كبيراً "-أجاب الولد علـــى أســف فورييه أنْ لا أحد يعرف ماذا تعني هذه الكتابة ، (لم يكن ذلك كذباً، كتب فورييــه كلمات الولد في مذكراته وبعد عشرين عاماً تذكر هذه الكلمات).

عشرون سنة! خلال هذه المدة جرب شامبولون حظه في باريس وكطـــالب فـــي كوليدج دي فرانس أدهش سيلفير دي ساسي، ولكن في الشقة الباردة على السقيفة كان يعاني من الجوع والسلّ. لقد أجبرته الحاجة والخوف قبل الجنديــــة علـــى العودة إلى غرينوبل (فقيراً كالشعراء).

حصل على مكان للتدريس في كلية محلية حيث كتب مسرحيات لرواد المســـرح المحليين (للحصول على بعض المال) وألف أغانٍ ضد الملكية ونابليون ، لكنـــها وصلت إلى مسامع لودفيك الثامن عشر لذلك أعتبر شامبولون " شخصية مريبة " ومُنِعَ من التدريس . عندما عاد نابليون "لمائة يوم" تبين للعالم الفتى أنه أقل ظلماً وفي إحدى استقبالاته عندما توقف في غرينوبل قُدِّم له شامبولون.

دار بينهما حديث هام وطويل عن مصر، لقد كان ذلك كافياً ليعلنوا بعد معركـــة واترلو أن شامبولون خائناً وحكموا علية بالنفي. هرب إلى جبال الألب. بعد ذلـك وبسبب المرض تجرَّأ وعاد إلى فيجاك.

تجاسر على الهجوم على أسرار الهيروغليفية، التي تجهز لها كل تلك السنين، لقد عرف شامبوليون مصر جيداً بحيث أن الرحالة سونيني دي مانوكور لم يصـــدق أنه لم يتواجد هناك أبداً وأحد الشيوخ بعد حديث طويل مع شامبوليون اعتبر أنـــه كان يتحدث مع أحد السكان المحليين.

لقد طالع شامبوليون بإمعان كل ما كُتِب إلى ذلك الوقت عن مصر: من الكتـــاب المقدس وهيرودوت إلى "رحلات" دينون و "وصف مصر" لجومار، كما اطلـــع على مجموعة من المواد غير المطبوعة: أوراق بردي من مجموعـــات خاصـــة ونسخة النص المنقوشة على حجر الرشيد في اللوفر.

وبالمناسبة لم يضيع ما تبقى من العلماء الوقت سدى، فلقد أعطى حجر الرشيد في الواقع المفتاح الوحيد لحل لغز الكتابة الهيروغليفية والديموتيـة، إلا أن البعـض استخدموا هذا المفتاح بتسرع لذلك انتهوا بالفشل.

على سبيل المثال قرأ السويدي في عام ١٨٠٤م النصين " في ليلة واحدة دون أن ينام-كما أعلن هو-من أجل عدم الوقوع في الأخطاء التي لا مفر منـها خـلال التفكير الطويل "، وآخر من دريزون " أخفى اسمه المتواضع لأنه كان يهتم فقـط بالتقدم العلمي " وجد بالهيروغليفية كل ما يقابل النص اليوناني مـع أن نصـف النص الهيروغليفي كان مكسوراً.

ولكن الكثيرين وصلوا إلى نجاحات مشهورة. السويدي ديفيد اوكيربلاد دبلوماسي ومهتم بالشرقيات في عام ١٨٠٢م وانطلاقا من النص اليوناني حقق ١٢ حرفـاً من الكتابة الديموتية-الكتابة الوسطى في حجر الرشيد. عالم اللغات الدانمركـي القاطن في روما افترض أنه في الإطارات البيضوية كتبت بالهيروغليفية أسـماء الملوك المصرين، ثم ظهر الإنكليزي توماس يونـغ (١٧٧٣-١٨٢٩م) طبيـب وعارف بعدة لغات وثبَّت المعاني الصوتية لخمسة إشارات هيروغليفية بمقارنـة أسماء الملوك المكتوبة بالهيروغليفية واليونانية على حجر الرشيد، ولكن يونغ لـم يستطع أن يكمل فك الرموز الهيروغليفية لأنه اعتبر أنه في الهيروغليفية رمـوز تدل على معانٍ وليس على صوت.

نماذج من الكتابة الهيروغليفية الهيراتية والديموتية
الكتابتين العلويتين تنتسبان إلى الحقبة القديمة أما السفلية فإلى الحقبة المتأخرة

قـام بذلـك شـامبوليون بنجـاح. إذا كان العلمـاء قبله كانوا قـد فكوا حروفـاً منفصلـة أو شرحوا بعـض

الحالات، فإن شامبوليون اكتشف نظام الكتابة المصرية مبرهناً أن روحـــها هــو المبدأ الصوتي. فك لغز أكثر الكتابات الهيروغليفية وحدد العلاقة بين الكتـــابتين الهيروغليفية والهيراتيه وبين الكتابتين الأخيرتين والكتابة الديموتية قرأ الكلمـــات المصرية ونصوصاً كاملة وترجمها، اكتشف طبيعة اللغة المصرية القديمة، جمــع قاموساً لها ووضع قواعدها.

بالطبع لم يستطع شامبوليون الهرب من بعض الأخطاء وعدم الدقة ولكنه حصـــل على نتائج يمكن أن نقول على أساسها أنه بعث الكتابة المصرية الميتة والمنسية.

كان ذلك نجاحاً خيالياً، في عصر المصنفات الإلكترونيـــة والكومبيوتـــرات مـــن الصعب تقييم عمله وإعطاءه كامل حقه، حتى التأهيل العلمي الأساسي لم يســـمح لشامبوليون أن يقترب من حل المسألة بطريقةٍ مباشرة: كان عليه أن يتغلب علـــى مجموعة من الأخطاء الذاتية والغريبة. قبل كل شيء فحص كورابولـــون وكـــل طرق فك الرموز المؤسسة على نظريته. بقي طريق واحـــد: هـــو الاعـــتراف بوجود علامات مع هذه الرموز الهيروغليفية تعطي أصواتاً، وهـــذا مـــا فعلـــه شامبوليون.

في عام ١٨١٠م (قبل يونغ) طرح رأيا مفاده أنه باستخدام هذه العلامات الصوتية كتبوا أسماء الأشخاص الأجانب، وفي عام ١٨١٣م افترض شامبوليون أنه مـــن أجل إعطاء الكلمات نهايات وبدايات في اللغة المصريـــة، اســـتخدمت علامـــات أبجدية وأشار إلى واحدة من هذه العلامات-الحروف، لكن بعد ذلك أقلع عن هـــذه الافتراضات الصحيحة، لأنه توصل إلى مغزى وجود الصوتيـــات الهيروغليفيـــة تقريباً بالحدس واعتبر أنها لا تلعب دوراً مهماً، وعاد مجددا إلى الهيروغليفيـــة- هي إشارات ذات مدلول وليست إشارات صوتية.

ولكن في عام ١٨٢٠م حدد شامبوليون بشكل ســـليم تسلســـل أنـــواع الكتابـــات المصرية (الهيروغليفية-الهيراتية-الديموتية). إلى ذلك الوقت كان قد حدد تمامـــاً أنه في النوع الأخير من الكتابة (الديموتية) يوجد علامـــــات-حـــروف. وهكـــذا اعتماداً على هذه القاعدة العلمية المتينة يفكر شامبوليون ثانيةً بضرورة البحـــث

عن العلامات الصوتية في أقدم كتابة (الهيروغليفية). من أجل البرهان على ذلك بحث شامبوليون في الاسم الملكي " بتموليمي " المنقوش على حجر الرشيد وفرز منه سبع رموز هيروغليفية-حروف. بدراسة نسخة الكتابة الهيروغليفية المنقوشة على مسلة من معبد ايسيدا (جزيرة فيليه) يجد اسم كليوباترا. نتيجة لتحليله يحدد شامبوليون المعنى الصوتي لخمسة رموز هيروغليفية أخرى. وبعد قراءة أسماء حكام يونانيين-مكدونيين ورومانيين آخرين لمصر زاد الأبجدية الهيروغليفية إلى ١٩ علامة.

ولكن من المحتمل أنهم مثَّلوا بتلك الحروف-الرموز الهيروغليفية فقط أسماء الأشخاص الأجانب الذين حكموا مصر، أما الكلمات المصرية فكتبت دون استخدام الطريقة الصوتية.


ورقة بردي (موسكو) من المملكة القديمة
مسألة حساب حجم جذع الهرم

وجرت الأمور إلى أن أتت الصدفة السعيدة عندما حصل شامبوليون على رسومات أنجزها في مصر صديقه المعماري غيو.

في ١٤ كانون أول عام ١٨٢٢م وعلى إحدى نسخ الكتابة الهيروغليفية المأخوذة من معبد أبو سمبل في النوبة لاحظ شامبوليون إطاراً يتضمن أربعة رموز هيروغليفية.

العلامة الأولى (قرص الشمس) مَثَّلَتْ بشكلٍ رمزي قرص الشمس وهي تُقرأ بالقبطي رِ (RE) ، العلامتين الأخريين متماثلتين-وهي علامةٌ أبجدية معروفة س (S)، العلامة الهيروغليفية الثانية يمكن أن تعني م (M) بالتالي الاسم الكامل يقرأ (رمسس) أو (رمسيس) أي اسم الفرعون القادر من الأسرة التاسعة عشر.

دون أن يصدق عينيه أخذ شامبوليون جدولاً آخر فيه إطار يتضمن علامات هيروغليفية ثلاث، الأولى (الطائر المقدس أبو منجل) تمثل بشكل اله القمر

تحوفت، الاثنتين الأخيرتين علامات صوتية تخص الحرفين م (M) و س (S)، أي أنه كتبَ اسمَ ملكٍ أكثرَ قِدماً من الأسرة الثامنة عشر-الفاتح الكبير توتومس (تحوتموس).

وصل شامبوليون إلى غايته. لقد برهن أنه بالإضافة إلى العلامات الرمزية استخدم المصريون في الماضي البعيد علامات أبجدية هيروغليفية ، ولأول مرة دون مساعدة النص اليوناني قرأ كلمتين مصريتين موغلتين في القدم.

مدركاً تماماً لما اكتشفه فقد وعيه من السعادة بعد أن صرخ " وصلت إلى غايتي".

بعد صحوته من المفاجأة كتب شامبوليون " رسالة إلى السيد داسيه عن أبجدية الصوتيات الهيروغليفية ".

جوزيف داسيه عالم لغات وصديق لشامبوليون وسكرتير أكاديمية المخطوطات.

حوّل الرسالة إلى الأكاديمية مباشرة وفي ٢٧ كانون أول عام ١٨٢٢م وقف شامبوليون أمام أعضاء الأكاديمية شارحاً ومبرهناً صحة فكِّه للهيروغليفية.

تحدث في هذه الرسالة عن طريقة بحثه وقال في خاتمتها أنه لدى المصريين نظام كتابة نصف أبجدي، حيث أنهم لم يكتبوا الحروف الصوتية. كما طرح فكرة مفادها أن أبجدية الكتابة الأوربية نشأت من المصرية القديمة.

في عام ١٨٢٤م طبع العالم العظيم عمله الأساسي عن الهيروغليفية "دراسات في النظام الهيروغليفي للمصريين القدماء". فقط في عام ١٨٢٨م سُعِدَ شامبوليون برؤية الأعاجيب الحجرية على النيل بأم عينه، ولكن قبل أن يصدر أعماله- "القواعد اللغوية المصرية" (١٨٣٦) و"القاموس المصري الهيروغليفي" (١٨٤١م) توفي العالم شامبوليون في ٤ آذار ١٨٣٢ إثر سكتة حادة محروماً من وسائل المعيشة والعلاج. لقد حقق أقل مما أراد، ولكن أكثر بكثير من علماء آثار مصر القديمة، الذين كانوا قبله.

لقد أصبح اسم شامبوليون خالداً، ففي الوقت الحاضر يعتمد كل باحث بتاريخ مصر القديمة على الأساس الذي أرسى دعائمه ذلك العالم.

لقد كان شامبوليون العالم الوحيد الذي زار مصر وكان على معرفة بلغتها القديمة. وكل ما دُوِّن ابتداء من زمن الفاتحين العرب وحتى علماء اللجنة الفرنسية. الذين وقفوا أمام الكتابات المنقوشة على المعابد والتماثيل والمسلات عاجزين عن قراءتها.

وصل شامبوليون إلى مصر في حزيران عام ١٨٢٨م على رأس بعثة علمية نظمتها الحكومة الفرنسية التي وضعت تحت تصرف العلماء السفينتين "ايسيدا" و "كاتور".

رست السفينتان في الإسكندرية، " لقد قبّلْتُ الأرض المصرية-كتب شامبوليون- أول ما وطأتها قدماي بعد انتظار طويل ". بعد ذلك ذهب إلى الرشيد وبحث في المكان الذي وُجِدَ فيه الحجر، لكي "يشكر الكهنة المصريين"، على كتابتهم المدونة عام ١٩٦ قبل الميلاد والتي لعبت "دوراً على غاية من الأهمية في فك الرموز الهيروغليفية".

ومن ثم أبحر بعكس التيار في نهر النيل قاصداً القاهرة وعند وصوله ألقت السفينتان الياطرين في كُمٍّ ضيقٍ من النهر بين جزيرة فيزير والجيزة وأسرع إلى الأهرامات. هكذا تصورها شامبوليون لنفسه كما رُسِمَتْ بقلم الرصاص وكما تحدَّث عنها دينون وجوفار.

"التباين بين حجم المنشأة وبساطة شكلها، الحجم الهائل من المواد وضعف الإنسان الذي أنشأ بيده هذا العمل العملاق يفوق الوصف. عند التفكير بعمرها يمكن أن نورد قول الشاعر: إنَّ كتلتها التي لا تفنى أتعبت الزمن (من كلمات لوكونت دي ليليا، التي قيلت عن آثار روما، التي هي أكثر شبابا بكثير من الأهرامات) ".

في صقارى التي زارها شامبوليون خلال تفحصه لأطلال ممفيس، أتاحت له صدفة سعيدة أن يقوم باكتشاف كبير. استخرج معاونه لوت بالقرب من هرم نصف مهدم حجراً منقوشاً بالهيروغليفية قرأ شامبوليون عليه اسماً ملكياً وطابقه

مع الملك الأخير من الأسرة الخامسة اونوس، الذي كان يعرفـــه مـــن كتابـــات مانيفون. مضى نصف قرن قبل أن يُبَرْهَنْ على صحة فرضيتـــه. بـــالفعل كـــان الهرم يعود إلى ذلك الحاكم الذي نقرأ اسمه حالياً "اونيس". على أية حـــال لـــم يدرس شامبوليون الأهرامات بشكل تفصيلي: إذ أنه تواجد في مصر أعداد كبـيرة من الآثار القديمة المحاطة بالأساطير! وبشـــكل أساســـي-الصـــروح المغطـــاة بالكتابات، التي جذبته أكثر الجميع.

بعد أن أصيب بخيبة أمل كبيرة في ممفيس من معابدها وقصورها التي بقي منـــها فقط عدة جدران مهدمة (تمثال رمسيس الثاني الذي يبلغ ارتفاعه عشـــرة أمتـــار والموضوع حالياً في جناح خاص كان في ذلك الوقت مدفوناً إلى نصفه). أبحـــر شامبوليون مع زملائه إلى الجنوب، وفي العمارنه وسط الركام (أنقـــاض مدينـــة اخيتاتوت) وجد شامبوليون بقايا معبد (اللجنة المصرية اعتبرتـــه بالخطـــأ بقايـــا مستودع). أخيراً شاهد في دندير أول معبد مصري كامل، وصل إليه شـــامبوليون ليلاً: " لن أحاول وصف الإنطباع العميق الذي أثاره فينا هـــذا المعبـــد الكبـــير وخاصة رواقه، بالطبع يمكننا أن نذكر أبعاده ولكن وصْفُهُ بحيث يتكـــون لـــدى القارئ تصوراً صحيحاً عنه غير ممكن ... بقينا هناك ساعتين، وبشعور كبـــير قمنا بجولة في القاعات وعلى ضوء القمر الشاحب حاولت قراءة الكتابات علـــى الحائط الخارجي ". ولكن بعد دراسة تفصيلية للمعبد زالت هذه الإثـــارة وبـــرز العالم: " مع أن هذا البناء يعتبر عملاً في فن العمارة، إلاَّ أنَّ المنحوتـــات التـــي تزينه تعطيه نكهة رديئة. فلتسامحني اللجنة المصرية، إن النقوش الدنديريه تثـــير الاشمئزاز ولا يمكن أن تكون غير ذلك إذ أنها تنتمي إلـــى عصـــر الانحطـــاط (مرحلة أحفاد بتوليمي المتأخرين والرومانيين). في هذه المرحلة حدث هبوط فـــي فن النحت ولكن العمارة لم تتغير كثيراً حيث حافظت على مظهرها الذي يليـــق بالآلهة المصرية والذي يستحق إعجاب القرون الطويلة ".

من دندير اتجه شامبوليون إلى الأقصر وكانت آنذاك مدينة صغيرة بنيـــت علـــى حطام مدينة فيف. على الضفة اليسرى زار معبد رمسيس وأمنحوتيـــب، الـــذي

كانت أمامه في ذلك الوقت مسلتين (لاحقاً وفي عام ١٨٣٦م نُقِلَتْ إحداهـــا إلـــى باريس حيث تجمل الآن ساحة التراضي) والمعبد الكبير للرب آمون في الكرنـــك حيث حدد المراحل المختلفة للبناء الذي استمر طويلاً. كما زار المدافن فـــي وادي الملوك وأطلال معبد حتشيبسوت " كل ما رأيته في مدينة فيف بعث فـــي نفسي الانشراح مع أن تلك الآثار الواقعة على الضفة اليسرى شـــحبت بالمقارنـــة مـــع الأعاجيب العملاقة التي تحيط بنا من الضفة اليمنى... للوهلـــة الأولـــى يبـــدو أن المصريين القدماء فكروا على أساس أن طول الإنسان يبلغ ١٠٠قدم " بعـــد ذلـــك عاين بنفس الانشراح والحماس كل شيء حوله بنظرة العالم الثاقبة ثم تابع طريقـــه مع زملاءه نحو الجنوب إلى شلالات النيل، إلى ايليفانتين وأســـوان وإلـــى معبـــد ايسيدا (على جزيرة فيليه أو بيلاك). في كل مكان نقل الكتابات وترجمها، وفســـر وقارن الهيئات المعمارية وحدد الاختلافات فيما بينها وإلى أية حقبة تنتمـــي هـــذه القطع الأثرية أو تلك (مما وجدوه). لقد صنع كشفاً إثر كشف وتحرك إلى الأمـــام بوقت واحد وعلى كل الجبهات علماً أنه من كل أعضاء البعثة لم يكن لـــه ســـوى مساعد واحد وهو تابعه الإيطالي وصديقه ايبوليتو روزيليني من بـــيزا .-كتـــب شامبوليون في عيد ميلاده ١٨٢٩م-إن معرفتنا عن مصر القديمة وخاصـــة عـــن ديانتها وفنِّها ستصبح غنية جداً حالما تنشر نتائج رحلتي ".

بقي شامبوليون في مصر لسنة ونصف، قطعها من جهة إلى الجهة الأخرى فـــي لباس عربي ورأس حليق وعمامة وجزمة صفراء خفيفة وكان ذلك بالنسبة لبـــاقي الأعضاء طقماً وبالنسبة له تنكراً ــ أعطاه امكانية الذوبـــان التـــام مـــع الشـــعب المصري. الوجهاء الأشراف والفلاحون البسطاء دعوه " بأخيهم " وهذه العبـــارة ليست فارغة بالنسبة للمسلمين. في أية قرية فقيرة صغيرة عرفـــوا أنـــه " أعـــاد النطق للحجارة الميتة "، ولكنه أثناء نشاطه المحمـــوم ارتكـــب خطـــأً لا يمكـــن تصحيحه: نسي نفسه تماماً "وصل الليل بالنهار" -كمـــا قـــال هـــيرودوت عـــن منقرع.إلا أن شامبوليون لم يضيع الوقت على الولائم بل في العمل. لقـــد أنـــهك

نفسه وتعرض لضربة شمس أكثر من مرة، سُحِبَ مرتين من المدافن التحت أرضية وهو فاقد الوعي، لكنه لم ينتهِ عن ذلك أبداً.

خلال هذه الإجهادات المضنية لم يشفه من السل حتى جو مصر اللطيف. عندما عاد إلى الوطن في كانون أول من عام ١٨٢٩ كانت أيامه معدودة. استطاع أن يعالج نتائج البعثة، لكن الذي طبعها كان روزيليني.

لقد كانت بعثة شامبوليون العلمية هي حجر الأساس في علم آثار مصر القديمة، الذي ولد للتو بالإضافة إلى ذلك كانت هذه البعثة قدوة يُحتذى بها.

فريدريك ويلغلم الرابع ملك بروسيا، الذي كان كسالفيه يقتدي بالموضة الباريسية، كان في أحسن أوقاته يبين نفسه على أنه من حماة العلوم والفنون مع " الميل إلى الاهتمام بها " قبل فريدريك اقتراح الكسندر فون غومبولت الرحالة المشهور وعالم الطبيعيات بتنظيم رحلة إلى مصر. لقد وعد الملك المشاركين في البعثة " بالرعاية الأبوية والملكية بما فيها الدعم المالي الضروري " ولكن بشرط أن يثبِّت أعضاء البعثة على الهرم الأكبر لوحة كتب فيها اسمه وجميع ألقابه بالهيروغليفية. غومبولت، الذي لفت انتباهه المبلغ المطروح وكان بحدود ٣٠٠٠٠ تالير قبل بشرط الملك واقترح أن يرأس هذه البعثة ريهارد ليبسيوس.

" وهو ابن أحد أتباعكم، مستشار القصر-أجاب غومبولت على سؤال الملك (ومن هو ؟).

إنه رجل فذّ درس في جامعات ليبزيك، غيوتنغن وبرلين. مؤرخ وعارف باللغات القديمة ومعماري. درس في باريس على يد معلم شامبوليون سيلفستر ديساسي وفي تورني على يد روزيليني، الذي كان ملازماً لشامبوليون، وحضَّر للسيد ليترون مواد علمية لكتابه تاريخ مصر ".

كانت تلك المعلومات مستفيضة إلا أن غومبولت لم يذكر أن الرجل ولد عام ١٨١٠ أي أن عمره ثلاثة عشر عاماً وكان يمكن أن يبدو للملك أنه فتى لم ينبت ريشه بعد. لو أن الملك سأل غومبولت عن ذلك لكان جوابه جاهزاً: هو ليس فقط

عالم يعتمد عليه، بل إداري ممتاز. كما أنه مارس الرياضة بمـــا فيـــها الســـباحة والتزلج على الجليد في جبال الألب التي تسلقها أيضاً وإذا كان ذلك غـــير كـــافٍ كانت لديه ورقة أخيرة: بالإضافة إلى ذلك هو لاعب شطرنج جيد وعازف مـــاهر على البيانو. باحتساب الاهتمامات الشخصية للملك يمكن أن تكون الورقة الأخـــيره هي الحجة الدامغة. لم تكن هناك أسئلة إضافية وحصل ليبسيوس على وظيفته.

إضافة لما وعد به الملك أمر بتحضير مزهريات لمحمد علي وكتب لـــــه رســـالة خاصة. بعد سنتين من التحضير انطلق ليبسيوس في طريقـــه وفـــي ١٨ كـــانون الأول ١٨٤٢م وصل إلى الإسكندرية.

كانت بعثته مؤلفة من ثمانية أشخاص اختارهم كما ينبغي في الحالات المشـــابهه: ايربكام ابن عمه خبير بمسائل العمارة، باقي الأعضاء-من أصدقاء أيام الشـــباب. اختلف عن شامبوليون بأنه لم يأخذ طباخا، بل أخذ قسيساً روحانياً، أيضاً صديـــق قديم. كانت هذه البعثة متسمة بالدقة والانضباط، ومع الســـكان المحليين حـــافظ أعضاء البعثة على السلوك الصحيح، ولكن دون عدم تكلف زائد. عوضـــاً عـــن الجلابيات والعمامات ارتدوا ثياباً أوربية مع قبعات أسطوانية الشكل. المزهريـــات ورسالة الملك كان فعلها عجيباً: محمد علي الذي تجاهله جميع الملوك الأوروبيين، (من أيار عندما دعا ٤٨٠ محارباً مملوكياً على وليمة بمناســـبة الصلـــح وأمـــر حراسه الشخصيين بقتلهم جميعاً في المكان) وقَّع فرماناً يعطي ليبسيوس " حقـــاً غير محدود في أية حفريات أو بحوث وفي المكان الذي يريد ". كما اقترح عليـــه مرافقة للحماية، ثم أصدر فرماناً-" سماح عام بشحن كل ما يكتشفونه من الآثار " وهو بمثابة هدية " لصديقه وقريبه الملك فريدريك ويلهلم الرابع من بروسيا ".

لقد استخدم ليبسيوس بشكل أمثل هذه الحقوق التي منحت له بالإضافة إلى النقـــود التي بين يديه.

بقي في مصر لأكثر من ثلاث سنوات (حتى عام ١٨٤٥م) ووصل حتى النوبـــة. عمل بأمان تام تحت الحراسة العسكرية دون مواقف متطرفة. قاس، حمل علـــى

الخريطة ،وثَّق، رسم، نظم دفاتر يوميات عن التنقيبات كـان كـل شـيء يسير بمنهجية، حسب الدقة الألمانية التي يضرب بها المثل. لقد دوَّن حتى المصـاريف بما فيها أجور العمال وأجور النقل، التي بلغت ٣٦٤٠٠ تالير (حوالـي ١٠٠٠٠٠ مارك). في ذلك الوقت كانت طباعة نتائج البعثة العلمية تكلـف ٨٠٠٠٠ تـالير. كانت اللقايا التي وجدها فريدة من حيث الكم ومن حيث المعلومات العلميـة التـي تعطيها. المواد الأثرية التي نقلها ليبسيوس والتي أنقذ الكثير منـها مـن الأفـران الكلسية، أصبحت قطعاً أساسية في المجموعة المصرية البديعة لمتحـف برليـن. هذه المعروضات لا تزال حتى الآن فخر متحف برلين.

في مئات من الأعمال العلمية عرَّف العالم على المعطيات، التـي حصـل عليـها وخاصة في الأجزاء الاثني عشر " لتاريخ مصـر وإثيوبيـا " (١٨٤٩-١٨٥٩م) والتي دعيت عن حق " أحفاد الأنجال " في "وصف مصر".

لقد سهى ليبسيوس عن مجموعة من المسائل اللغوية المصرية، الأساطير، تـاريخ الفن، ولكن مساهمته الفعالة كانت في ترتيب التاريخ المصري القديـم. مـع أنـه أخطأ في التاريخ المصري بألف سنة (شامبوليون أخطأ بألفي سنة)، إلا أنه أدخـل تسلسلاً معيناً ووضوحاً في المكان الذي رأى فيه الآخرون كومةً من الأسماء دون الإشارة إلى التواريخ. من مقتطفات منفصلة لحياة مصر القديمة صنع ليبسـيوس لوحة التاريخ المصري مجزِّأً إياه إلى ثلاثة أحقاب-الممالك القديمـة، المتوسـطة والجديدة، ويؤخذ بهذه التقسيمات حتى يومنا هذا.

أكثر من أيٍّ ممن سبقوه استطاع ليبسيوس حل الألغاز المتعلقة بالأهرامات. حـدد أسماء مجموعة الملوك التي تعود إليها الأهرامات وزمن حكم كل منهم وبيَّـن أن هذه الأهرامات بنيت في مرحلة الممالك القديمة والمتوسطة، أمـا فـي مرحلـة المملكة الجديدة فلم تعد تبنى. خلال النصف سنة الأولى تواجـد فـي ممفيـس أو مينيفير ودرس حقول الأهرامات من أبو رواش وحتى ليشت واللاحون. وصـف ٦٤ هرماً، اكتشف ثلاثين منها بنفسه. في الواقع البحوث اللاحقة المجراة خـلال

المئة سنة الأخيرة بينت أن مجموعة الأبنية التي أعتبرها أهرامات كانت من نوع مختلف وبالعكس توجد معالم أخرى نصف مهدمة لم يعترف بها على أنها أهرامات ولكن ذلك لا ينزل من قيمة خدماته. بالطبع مسح المناطق المجاورة للجيزة وثبَّت على الهرم الأكبر لوحة باسم وألقاب مليكه مضيفاً إلى الإشارات النسر البروسي والصليب الحديدي.

على كل لم يبقَ طويلاً في هذا المكان فقد انشغل بالبحث في الأهرامات التي لم تدرس بشكل كافٍ في أبو صير، ميدوم و صقارى.لقد كان ليبسيوس أول من أشار إلى مراحل تطور الهرم: ابتداءً من المدفن الملكي ذو السقف المستوي إلى المدفن المتدرج إلى المدفن ذو الشكل الهرمي الصحيح. كما وضع فرضية مثيرة " النمو المتدرج " للهرم. حسب هذه النظرية تتعلق أبعاد الهرم بطول فترة حكم هذا الفرعون أو ذاك.

مع أن العلم الحديث رفض هذه الفكرة، إلا أنها كانت في ذلك الوقت خطوة نحو الأمام هزَّت التصورات القديمة وهذا بحد ذاته يستحق علامة إيجابية.

" إن حقول الأهرامات في ممفيس–كتب للوزارة عما كسبوه من آثارٍ نتيجة البعثة مباشرة بعد عودته إلى الوطن عام ١٨٤٥م ـ أظهرت لنا صورة الحضارة المصرية في تلك الأزمنة السحيقة، التي يجب أن تعتبر من الآن فصاعداً الخطوة الأولى في دراسة التاريخ الإنساني... الأسر القديمة للحكام المصريين لا تبدو لنا الآن مجموعة أسماء منسية ليس لها معنى ومشكوك بأمرها. نحن الآن قريبون منها أكثر دون شك فتسلسلها أصبح معروفاً،أما تاريخ وجودها فمنسوب إلى حقب تاريخية محددة. بالإضافة إلى ذلك تشكلت لدينا صورة عن ازدهار الشعب الواقع تحت حكم هذه الأسر ".

بعد شامبوليون وليبسيوس لم يعد الباحثون في مجال الأهرامات يرضون فقط بشرح المعطيات التقنية. فقد فتحت أمامهم إمكانية التعرف على هذه المعالم أكثر مما عرف هيرودوت وبليني.

لم تعد البعثات الأثرية قصيرة الأمد ترضي علماء الجيل الجديد، إذ أنه لا يمكن إتمام دراسة الأهرامات إلا في إطار البحث الأثري المتكامل. لقد كانوا يعولـــون على البقاء الطويل في مصر لإعطاء بلد النيل الجسد والروح. وهكذا فعل هـؤلاء المتطوعون في خدمة العلم مدفوعين بحب الاستكشاف غـــير آبـــهين بالمشـــاق والمخاطر المحيطة بهم.

على رأسهم كان الفرنسيين مارييت وماسبيرو ودي مورغان والإنكليزي فليـنـدرز بيتري والألماني بوهارت، وأتى لاحقاً بدلاؤهم: السويســـري نـــافيل، الإيطـــالي بارسانتي، الإنكليز كويبل وفيورس والأمريكان ليتغو وريسنر والفرنسيين لوريـــه وجيكيه وآخرون.

أوغست مارييت (١٨٢١-١٨٨١م)، أصله من بولونيا الفرنسية (في شبابه معلـــم لغة فرنسية في انكلترا، رسام موديلات الوشائح في أحد المعـــامل الإنكليزيـــة، مدرس في كلية بولونيا الفرنسية).

وصل إلى مصر في خريف عام ١٨٥٠م كمندوب عن متحف اللوفر لشراء أيـــة مخطوطات قبطية. في القاهرة صعد على القلعة فسحره منظر الأفق المـــتراقص بأشباح الأهرامات إلى درجة أنه قرر البقاء في مصر ولكـــن ليـس لممارســة الصفقات مع السماسرة وإنما لدراسة معالمها الأثرية القديمة. عندما بدء بـالتنقيب ذُهل مارييت ولم يصدق ما رأته عيناه: لآلاف السنين زَيَّنتْ تماثيل أبـــو الـــهول حدائق الأثرياء في مصر.

المزهريات واللقايا ملئت الأسواق وحوانيت الهدايا التذكارية .الألواح كانت تخلع وترمى من أعلى الهرم لجذب السياح، لقد تولد لديه انطباعـــاً أن مصـــر تدمـــر وتُصفَّى معالمها الأثرية وكان على حق.

الأسوأ والمحزن أكثر أن المصريين أنفسهم يتكافلون على سرقة بلدهـــم. أنـــاس متخلفون ذوات همم عالية اجروا تنقيبات أثرية بطريقة كان يمكـــن أن يتأســف عليها جيوفاني: من أجل بعض النقوش البارزة قلبوا مقـــابر بكاملــها، كســروا رؤوس التماثيل، نشروا التوابيت وباعوها أجزاءً.

لقد ذُهِلَ مارييت من ذلك وقرر تكريس كل القوى من أجل الحفاظ علـــى شـيء ما. بعد سبع سنوات من الجهود المضنية والصبر قرر الحكم الضعيف استعراض القوة. الخديوي سعيد ابن محمد علي منع التنقيب التلقائي عن الآثار ونقْلها خـــارج البلاد ونصَّبَ مارييت رئيساً لحماية الآثار المصرية ولمؤسسة مراقبة الحفريـــات الأثرية والأوابد القديمة وتنظيم الأبحاث الأثرية.

في عام ١٨٥٧م نظَّم مارييت متحفاً في منطقة بولاق القاهريـــة. لقـــد أصبحـت مجموعته الأثرية المتنامية بإستمرار أساساً للمتحف الوطني المصري المشـــهور، الذي حصل على مبنى جديد عام ١٩٠٢م يقع في الساحة الرئيسية فـــي القـــاهرة (ميدان التحرير). وكعربون وفاء يقف الآن تمثال لمـــارييت أكـبر مـــن الحجـم الطبيعي في هذا المتحف، كما يمجِّد أسمه في صقارى مطعم فاخر يدعى " بيـــت مارييتا "

حيث بني مكان بيته. فمارييت لـم يحافظ علـــى المعـــالم الأثريـــة المكتشـــفة وحسب، بـــل اكتشـــف معالم أثرية جديدة. فـــي خريف عـــــام ١٨٥٠م وبينما كان ينقـــب فـــي

مدفن الحيوانات في صقارى

تضم المقصورات السوداء في توابيت الثيران الضخمة التي بقيت في أماكنها

مقابر صقارى الواقعة شمال غرب هرم جوسير رأى رأسا لتمثـــال أبـــي الـــهول ظاهراً من تحت الرمال، نظف الرمال وقرأ على قاعدته كتابة تمجد الثور المقدس آبيس، الذي اعتبر في ممفيس ظهوراً للرب بتاح. تذكر مارييت سترابون " يمتـــد هنا شارع يتوسط صفين من تماثيل أبي الهول " .هذا الشارع كـــان يـــؤدي إلـــى المعبد وإلى مكان دفن الثِيران الذي كان يدعى باليونانيـــة "ســـيرابيوم". اســـتخدم

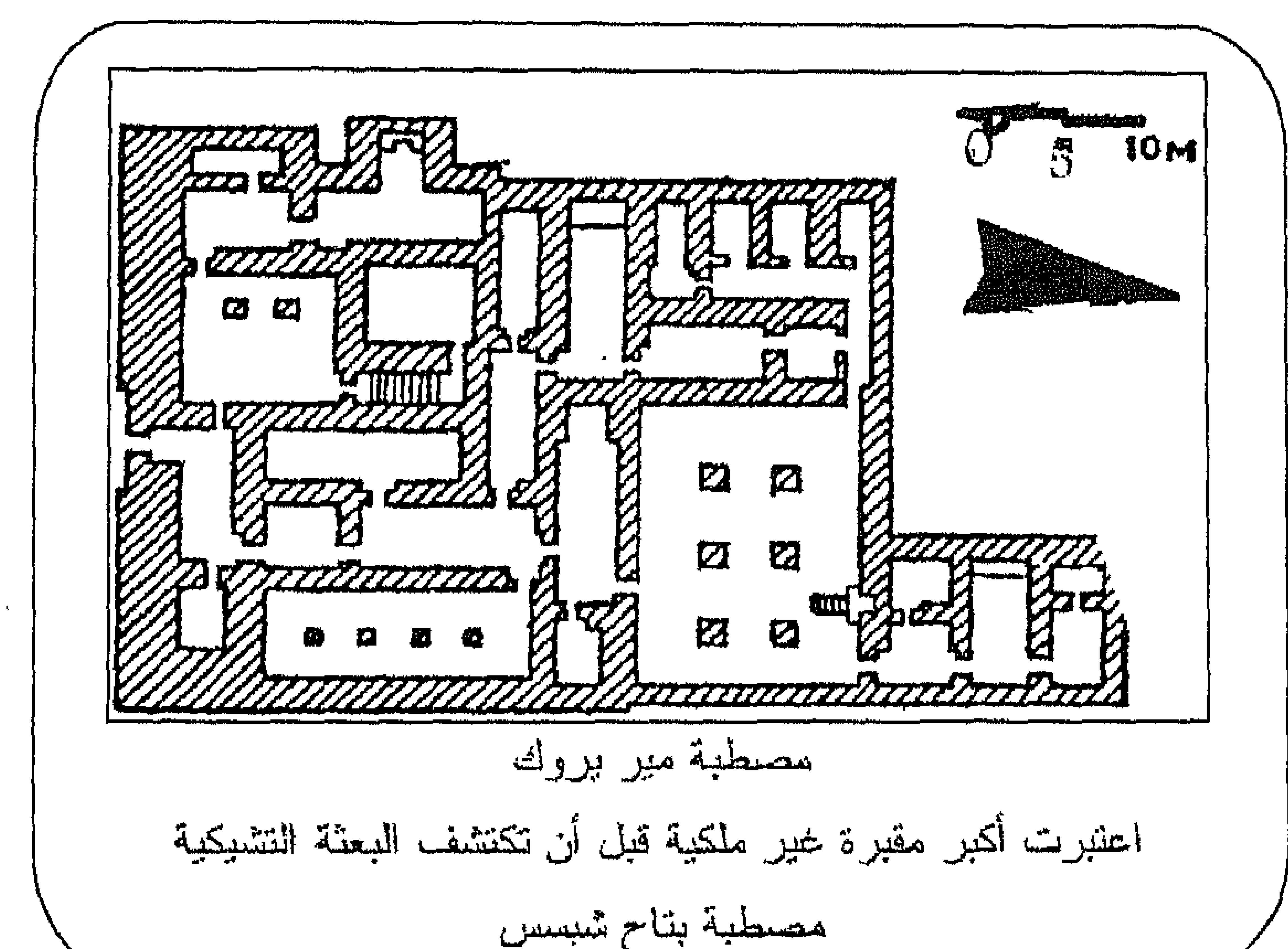
ماربيت عدداً من الفلاحين وعمل معهم بالرفش حتى كشف على ١٤٠ تمثالاً لأبي الهول أو بقايا منها، كان ذلك محصلة عام من العمل الذي انقطع عدة مرات بسبب عقبات مختلفة. بالفعل شَكَّلتْ هذه التماثيل شارعاً يؤدي إلى مقبرة تحت أرضيه. كانت هذه المقبرة منحوتة في الصخر، طولها من الشرق إلى الغرب ٢٠٠ متر وهي عبارة عن ردهة تتفرع عنها مجموعة من الممرات والحجرات الجانبية. في هذه الحجرات كانت تتوضع التوابيت التي تحوي الثيران المحنطة. وجد ماربيت في الممر الرئيسي ٢٤ تابوتاً فارغاً، كان وزن كل تابوت ٦٠-٧٠ طن!! وكان منحوتاً من قطعة غرانيتية واحدة ، كما وجد في الممرات الجانبية توابيت خشبية مع بقايا ثيران وعددها ١٨ تابوتاً بالإضافة إليها وجد هناك تابوتاً يحتوي على مومياء الكاهن الأعلى للرب بتاح-حايمفيس، ابن رمسيس الثاني. تعود أقدم توابيت الثيران إلى زمن الملك امينحوتيب الثالث من الأسرة ١٨ وأحدها إلى زمن حكم آخر أحفاد بتوليمي. على كل من هذه التوابيت الهائلة أشير بالهيروغليفية إلى اسم الفرعون والكاهن الأعلى خلال حياة هذا الثور أو ذاك والحوادث التي حصلت خلالها. لقد ألقت هذه النصوص الضوء على التاريخ المصري حيث اكتشف ماربيت منها معطيات جديدة عن هذا التاريخ. في عام ١٨٦٥م اكتشف مقبرة الوجيه تشي وهي الأجمل والأفضل من بين مقابر صقارى (من حيث انحفاظها).

إن هذه النقوش البديعة ذات الألوان المتعددة تذكر بالنقوش الجدارية.وهي لا تصور فقط الوجيه تشي الذي يفوق حجمه ثلاثة أو أربعة أضعاف حجم الناس ذوات الألقاب الأخفض، بل يوميات من الحقبة التي عاش بها: كل الأعمال خلال الدورة الزراعية ابتداء من عملية رش البذار وحتى الحصاد، السفن التي تشق المياه والمتأهبة للإغارة، صيد فرس النهر وصيد السمك، ذبح قطعان الماشية وصناعة الجلود، جمع الأتاوات ومعاقبة سكان القرى، الحرفيين على رأس عملهم بما فيهم الحجارين وصنّاع الزجاج والكتّاب والرسامين، الأقزام مع القردة

والكلاب، بالمختصر كل ما يدور حول الوجيه تشي. بغض النظر عن عناصر الأسلوب المستخدم كانت هذه الرسومات واقعية إلى درجة سمحت بتحديد التجهيزات والأدوات التي استخدمها الفلاحون والحرفيون والأساليب التي اتبعوها وما لم يكن موجوداً عند المصريين في تلك الحقبة. ولكن أية حقبة؟ هنا نصل إلى الشيء الأكثر إثارة.

تعود مقبرة تشي إلى القرن الخامس والعشرون قبل الميلاد أي إلى زمن الأسرة الرابعة الأكثر شهرة ،إلى مرحلة بناء الأهرامات. كان تشي نفسه مديراً لجميع الأعمال الملكية " قائداً لعمليات بناء الأهرامات وأميناً على الأماكن الخالدة ". لقد كان اكتشاف مقبرة تشي عملاً كبيراً لمارييت في دراسة الأهرامات لكنه ليس الوحيد. لقد اكتشف مقابر أخرى بشواهد مشابهة عن تلك الحقب القديمة أشهرها على الأخص مقبرة بتاح حوتيب الوجيه صاحب المقام في زمن الأسرة الخامسة الحاكمة.من المحتمل أن هذا الوجيه كان مؤلف " المواعظ " المشهورة وهي واحدة من أقدم المؤلفات في الثقافة العالمية.

بالإضافة إلى ذلك بدء مارييت بدراسة ما يدعى بالأهرامات الكاذبة قرب ميدوم، دراسة هرم في ليشت وعدة أهرامات صغيرة قرب صقارى حيث حالفه الحظ في اكتشاف سلبي كبير. إلى الجنوب من صقارى لفت انتباهه صرح غير عادي اعتبره كل من ليبسيوس وبيرينغ هرماً



مصطبة مير بروك

اعتبرت أكبر مقبرة غير ملكية قبل أن تكتشف البعثة التشيكية مصطبة بتاح شبسس

لم يكتمل بناءه أو مهدم بشكل جزئي يسميه العرب " مصطبة الفرعـون ". لقـد كانت هذه المصطبة حجرية جدرانها الخارجية ملبسة بالحجر الكلسي الطـوري. للوهلة الأولى لا يمكن تمييزها

عن الهرم، ولكن عند دراستها بشكل مفصل أوضح مارييت أن هذ الصرح عبارة عن مقبرة فرعونية على شكل تابوت هائل. لم يستطع مارييت بعد تحديد صاحب هذه المقبرة بشكل صحيح ولكن الآن (بعد أعمال جيكيه عام ١٩٢٤م) نعلم أن من أمر ببناء هو الملك شيبسسكاف الحاكم الأخير من الأسرة الحاكمة الرابعة. علـى الأغلب كانت لديه أسباباً لم تجعله يحاكي أسلافه، خوفو، خفرع، منقرع. بديـهي أن عند مارييت أسباباً لم تجعله يشطب هذه المقبرة من قائمة الأهرامات.

مقابر وادي الملوك

المفبرة رقم ٧-رمسيس الثاني المقبرة رقم ١١-رمسيس الثالث
رقم ١٧-سيتي الأولرقم ٣٥-امينحوتيب الثاني رقم ٣٨-تحوتموس الأول
رقم ٦٢-توت عنخ آمون

ظهر كـل مـن غاسـتون ماسـبيرو (١٨٤٦-١٩١٦م) وجاك دي مورغـان (١٨٥٧-١٩٢٤م) علـى أرض العمـل بعد أن جـهزها مارييت. لقد كان أحدهما المدير العام لمصلحة الآثار المصرية والثـاني مديـر المتحف المصري . لقد استطاعا وبخطوات حثيثة أن يتابعوا دراسة الأهرامات. إضافة إلى انشغالهم بأعمالهم فقد نجحا على أرض الواقع في إنجاز عـدد مـن الاكتشافات.

دخل ماسبيرو عام ١٨٨٠م إلى هرم مخرَّب بشدة واقع في الجنوب من صقـارى. وفي حجرة الدفن وجد هناك كتابات هيروغليفية على الجدار تبيِّن أن هذه مقـبرة

الفرعون بيوتي من الأسرة الحاكمة الثالثة وهكذا اكتشف هرماً بكتابات مع أن ماريت كان يؤكد دائماً أن الأهرامات خرساء.

بحماس لهذا الاكتشاف نفذ ماسبيرو إلى الهرم المجاور، الذي تبين أنه مقبرة تعود إلى الأسرة الحاكمة السادسة فيها كتابات هيروغليفية. وفي عام ١٨٨١م فتح هرماً غير كبير في وسط صقارى وعلى ضوء لمبة الكاز ذات اللون الأصفر رأى ما يمكن أن ينبهر له الزوار على ضوء النيون: السقوف ذات السطوح المائلة للغرف تحت أرضيه نثرت عليها مئات النجوم الزرقاء، أما الجدران فمغطاة بكتابات هيروغليفية كحلية وخضراء حفظت بشكل ممتاز.

كان التابوت فارغاً ولكن من الكتابات عرف ماسبيرو أنه كان يرقد فيه جثمان آخر ملوك الأسرة الحاكمة الخامسة، الذي حكم مصر في نهاية القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد.

إلى الشمال قليلاً دخل هرماً اعتقد أنه يعود إلى الملك تيتي من السلالة السادسة وإلى الجنوب وصل إلى الأهرامات العائدة لخلفاء تيتي، حيث وجد في غرفها التحت أرضية كتابات هيروغليفية.

من أجل نقل ونشر هذه الكتابات رفض ماسبيرو لبعض الوقت منصب مدير مصلحة الآثار والمتحف المصري.

إن هذا التصرف بحد ذاته يصف شخصية ماسبيرو بشكل أفضل من أي كلمات.

قام دي مورغان باكتشافه الأول في مصر عام ١٨٩٣م. ليس بعيداً عن هرم تيتي وجد مقبرة كبيرة بشكل غير اعتيادي تعود إلى مملكة قديمة، كانت تحوي على ٢٣ غرفة أمر ببناءها الكاهن الأعلى للملك تيتي من أجل أفراد أسرته.

وجد دي مورغان في أبو صير مقبرة الوجيه بتاح شبسيس، الذي ترقى في مناصبه من حلاق إلى الوزير الأول في عهد الملك ساحور من الأسرة الحاكمة الخامسة.

خلال دراسته ركز دي مورغان انتباهه على عدة مناطق منسية بالقرب من داشور.

في آذار من عام ١٨٩٤م قام بسبر هرم نصف مهدم مبني من القرميد غير المشوي تبين أنه يعود للملك سينوسيرت الثالث من الأسرة الحاكمة السابعة (عصر المملكة الوسطى)، وجد دي مورغان في جواره أربعة مقابر لبنات الفرعون. عند تنظيف الممرات اكتشف ما أثار ضجة على مستوى العالم.

مع أن المقابر كانت مسروقة إلا أن اللصوص القدماء نسوا جزءً من لوازم الدفن أو خبئوه في الزاوية حيث وجده دي مورغان.



الملك امينحميت الثالث
باني الأهرامات في حوار والداشور
تمثال على شكل أبو الهول

لاحقا عند تنقيبه في الهرم الجنوبي الذي يعود للملك امينيمحيت الثالث من نفس الأسرة الحاكمة وأوضح غير خافٍ دهشته أن هذا الملك أهمل هرمه الشخصي وأمر بدفنه في هرم آخر بالقرب من واحة الفيوم. كان الاكتشاف الثالث لدي مورغان عام ١٨٩٥ وقد أثار ضجة كبرى:

في هرم متواضع لأمينيمحيت الثاني اكتشف تابوتين كاملين (غير ملموسين) لبنات الملوك ايتي وحنوميت بجميع كنوزها وطلاسمها... كنز عمره ٤٠٠٠ سنة أي أقدم بألف سنة مما يعود إلى توت عنخ أمون.

لقد أيقظت كنوز الداشور اهتماماً جديداً بالأهرامات، ولكن هذه التنقيبات كانت سرّيّة بعض الشيء.

في عام ١٨٩٤م أرسلت مصلحة الآثار المصرية غوتيه وجيكيه إلى ليشت الواقعة على بعد ٦٠ كم جنوب القاهرة كي يقوما بالتنقيب في هضبتين لا تتميزان

بشيء عن الكثبان الرملية المحيطة بهما وكانتا قد أثارتا انتباه ماسبيرو لسبب غير معروف.

مضت عدة أيام وجد بعدها في الهضبة الشمالية بقايا هرم الملك أمينيمحيت الأول من الأسرة الحاكمة السابعة وفي الهضبة الجنوبية بقايا هرم خلفه سنيوسيرت الأول، ولكن توجب وقف العمل بسبب عائق لم يكن بالحسبان: كانت سراديب هذه الأهرامات الواقعة في وسط الصحراء المجدبة مملوءة بالمياه الجوفية.

بعد ذلك تعرف العالم نويل في مدينة فيف على أطلال معبد يعود إلى عصر الملك مينتوحوتيب الأول من الأسرة الحاكمة السادسة وكان الجزء الأوسط من هذا المعبد ينتهي بهرم. وجد آثار أهرامات صغيرة جداً قرب وادي الملكات فوق مقابر الموظفين العاملين في زمن الأسرتين التاسعة عشر والعشرين.

في عام ١٩٠٠م وجد اميل شاسنيا أطلال هرم ملكي حقيقي قرب أبو رواش على بعد ١٠ كم إلى الشمال الغربي من الجيزة، بني هذا الهرم بأمر الملك جيديفر من الأسرة الحاكمة الرابعة.

بالقرب من زاوية العريان على بعد ٥ كم جنوب الجيزة وجد بارسانتي بقايا هرمين بآن واحد: كان الهرم الأول غير مكتمل ويُحتمل أنه يعود للملك حابا (نهاية الأسرة الحاكمة الثالثة). الهرم الثاني فقط بُدِء ببناءه.هناك فتحة كبيرة في أساسه يدعوها الفلاحون حفرة الإسكندر أما الأدلاَّء فينسبونها إلى الإسكندر المقدوني. في الواقع أنها من آثار عمل بارسانتي الذي كان اسمه الكسندر. لقد نشر العلماء الفرنسيون نتائج أعمالهم في مجموعة من الكتب العلمية والعامة التي أكدت سيطرتهم في عيون العالم على حقل الأهرامات: على سبيل المثال، مارييت–"ملاحظات عن مصر العليا مع وصف الأوابد القديمة على ضفاف النيل" ١٨٧٢م وماسبيرو–" كتابات أهرامات صقارى " ١٨٩٤م و دي مورغان–" تنقيبات أثرية في داشور " (١٨٩٥–١٩٠٣م) إلخ. ولكن زعامتهم في نهاية القرن التاسع عشر طرحها جانباً ظهور الإنكليزي بيتري، العارف الشهير

بالأهرامات وبكل مصر، مؤلف حوالي ألف كتاب ومنشور ومقال الكثير منها يجذب حتى غير الأخصائيين بمصر القديمة.

من أولى أعماله-" أهرامات ومعابد الجيزة "(١٨٨٣م) " عشر سنوات من التنقيب في مصر ١٨٨١ــ١٨٩١م " (١٨٩٢م)وكتاب مؤلَّف من ثلاثة أجزاء بعنوان " تاريخ مصر " (بالطبع أصبحت معلومات قديمة).

ويليام ميتيو فلندرز بيتري(١٨٥٣ــ١٩٤٢م) قضى في مصر ٤٦ عاماً من عمره المديد وأكثر من عشرين سنة عمل بعد ذلك في مكتبه في جامعة لندن في دراسة مصر القديمة.

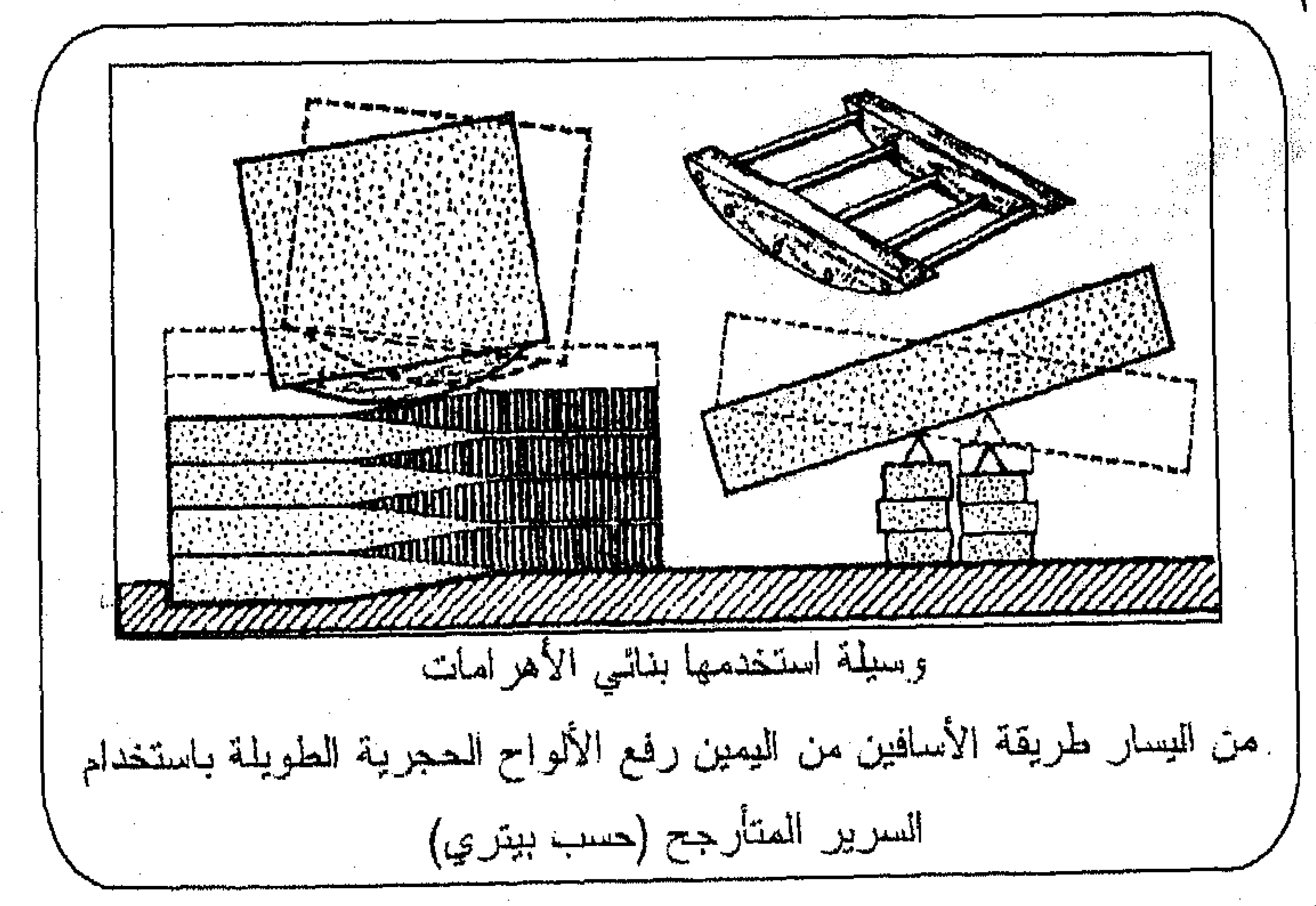
لقد جمع بتيري كمًّا هائلاً من المعلومات عن ماضي مصر لم يجمعه أحد من قبله. لقد كان أخصائياً بأيَّةِ مسألة تخص مصر: ابتداء من أصغر الأشياء- مصورات الجعلان وحتى أكبر الأشياء-الأهرامات. في سنوات الشباب اهتمَّ بالعلوم الطبيعية والتاريخ، وعندما بلغ ١٨ سنة عمل مسَّاحاً حيث أنجزقياسات في ستونهندج، وفي عمر ٢٢ سنة نشر عملاً في علم القياس.


وليام ميتيو بيتري (١٨٥٣-١٩٤٢)
((الذي أمضى سبعين عاماً في دراسة الآثار المصرية))

الاهتمام بمصر نقله إليه أبوه، الذي كان من المعجبين بالفلكي بياتسي شميت ؛ سوف نتكلم عنه لاحقاً. في عام ١٨٦١م أصدر شميت كتاباً عن الهرم الأكبر أوضح فيه أن الهرم الأكبر عبارة عن كتاب مقدس حجري تشير نسب أبعاده إلى قدر الإنسانيه . لقد حلم بيتري الكبير في اختبار وإتمام قياسات شميت لكي يوثق إيمانه بنتائجه. في عام ١٨٧٩م اتجه بيتري الصغير إلى مصر

مع قياسات شميت وأعماله العلمية حيث دقق نتائجه. ولكن هذا لا يعتبر شيئاً بالقياس لما أنجزه هناك لاحقاً (في البدء كباحث عن الأهوال والمغامرات واعتباراً من عام ١٩١٠م كمدير للمدرسة البريطانية للآثار المصرية). في دلتا النيل بالقرب من قرية النقروش اكتشف المستوطنة اليونانية نافاكراتيس العائدة للقرن السابع قبل الميلاد، ووسط أطلال العاصمة القديمة تانيس اكتشف معبد الإله سيت، وقرب القنطرة على قناة السويس وجد حصناً يعود إلى الحقبة السايسية وكانت قاعدته أقدم منه بكثير. في اللاحونة في الطرف الشرقي لواحة الفيوم وجد بقايا المتاهة المشهورة. بالإضافة إلى ذلك وأثناء الحفريات وجد على أرض العاصمة المصرية الأولى ممفيس تمثالاً لأبي الهول يُعدُّ الثاني من حيث الحجم. لقد قاد بيتري أعمال التنقيبات في أكثر من ثلاثة عشر هرماً ودخل خمسةً منها وحدد أسماء مالكيها ووجد في أحد الأهرامات كنزاً، ولكن الأهم من ذلك أنه وجد معطيات تشير إلى تقنية وتنظيم بناء الأهرامات.

" لقد قمت بتنظيم مسكن مدهش لي في إحدى المقابر المنحوتة في الصخر-كتب هو عن أعماله في الهرم الأكبر-صنع فقط باباً وإطاراً للنافذة، ووضع طاولة كتب-على العموم رتبت المكان بشكل مريح ولم أكن أريد أكثر من ذلك.... في حوالي التاسعة صباحاً أبدأ العمل. عندما كنا ننتهي من القياسات يكون


وسيلة استخدمها بناتي الأهرامات
من اليسار طريقة الأسافين من اليمين رفع الألواح الحجرية الطويلة باستخدام السرير المتأرجح (حسب بيتري)

خادمي علي قد ثبت شمسية فوق المزولة تقيه من الشمس ثم يجد لنفسه مكاناً

يقضي فيه استراحة منتصف النهار. أما أنا فكنت أثابر على العمل لفترة أطـــول، وعندما يهبط الظلام أجمع الأدوات ، أرتبها بعناية في المقبرة وأصرف الخـــادم. وفي حوالي الساعة السادسة أو السابعة أُشعل ناراً وأغرق في الحسابات إلى حين غليان الماء في الغلاية حيث كنت أتعشى (أي نوع من الحساء والبندوره ومن ثـم بعض الشوكولاته) . بعد عشر ساعات من العمل دون أكل أو شرب، تبين أن كل ذلك كان لذيذاً بشكل لا يوصف والأهم أنه كان ذو فائدة.

ومرة أخرى أعود لحساباتي ليستمر العمل إلى حوالي منتصـــف الليـــل. خـــلال أعمال الحفر كنت استيقظ باكراً عند شروق الشمس. عند تنقيب الــــهرم الأكـــبر كنت أذهب للعمل مساءً عند ذهاب السياح، حيث أبقى مع مساعدي النعسان علـــي حتى منتصف الليل وأحياناً حتى الصباح، وهكذا كنت أحياناً أعمـــل ١٤ ســـاعة دون توقف ".

في وقت لاحق عندما دخلت السيارات الحياة اليومية حجزنا باصاً للعمـــــل فـــي مناطق أكثر بُعداً وكان هذا الباص مزوداً بجهاز لاستماع الأسطوانات ووســـائل أخرى جعلته يصلح للعيش أكثر من مقبرة الجيزة". لقد عمل بيتري قرب الجـيزة من كانون أول ١٨٨٠ ولغاية نيسان ١٨٨٢ ومن ثم عمل تسعة أشهر في الــــهرم الأكبر. لقد قاس الهرم بشكل أدق وأكْمَلْ من مهندسي نابليون وبياتسي شميت.

في عام ١٨٨٣ اتجه بيتري مع أدواته إلى أهرامات صقارى والداشور وعندهـــا وصف زملاءه الفرنسيين بما يستحقونه من نزاهةٍ وتفانٍ في العمل ، إذ لم يجـــد أي شيء هناك.

في عام ١٨٨٨ وفي هضبة ارتفاعها ١٢ متر قرب قرية حوار المكت وجد أثنـاء التنقيب بقايا هرم من الطوب وبما أنه لم يعثر على المدخل (خلافـــاً لمـــا هـــو متعارف عليه في الوجه الشمالي) قام بفتح نفق، وبعد جهود لا تصدق نفذ بيــتري إلى حجرة الدفن المليئة بالمياه الجوفية وجد تحت المياه توابيت سرق محتواهـــا تعود إلى أمينيمحيت الثالث وابنته نيفرا وبتاح.

بالقرب من قرية اللاحون في الهضبة التالية فتح بيتري هرماً من الطوب يعود إلى الفرعون سينوسيرت الثاني وكان تابوته فارغاً " إلا أنه كان الأجمل من بين التوابيت العائدة للمملكة الوسطى ".

في عام ١٨٩٠ توجه إلى " الهرم المزيف " حيث وجد ماسبيرو تابوتاً بوقت سابق، وبدء بدراسة البنية الداخلية للهرم وفي الجوار اكتشف إطلالة معبد صغير. لم يستطع تحديد اسم مالك الهرم المزيف حتى بوجود الدلائل غير المباشرة. في الوقت الحالي يعتبرون أنه بدأ ببناءه آخر ملك من الأسرة الثالثة حوني وأنهى بناءه والد وسلف خوفو سنوفرو.

قام بيتري بوقت لاحق مع ماكي بحفر هرمين من حقبة المملكة الوسطى في مزجونه قرب الداشور من المحتمل أنهما يعودا إلى الملك أمينيمحيت الرابع والملكة سبكنغروره-آخر حكام الأسرة السابعة.

من مدفن الهرم الطوبي في قرية اللاحون، حيث دفنت واحدة من بنات الملك سينوسيرت الثاني قام بيتري في وقت لاحق مع غي برنتون والسيدة ميوريي باستخراج " كنوز اللاحون " المشهورة. كان ذلك في عام ١٩٢٠م.

إلى بداية القرن العشرين لم يبقى في حقول الأهرامات غير المدروسة سوى واحدٍ - أبو صير.

حصل ابن حفيد فريدريك ويلغلم الرابع على امتياز بالتنقيب في أبو صير من ابن حفيد محمد علي . لم يكن الأول ملك بروسيا، بل إمبراطور ألمانيا. لقد علقت وزارة الحرب آمالاً كبيرة على نجاح التنقيبات حتى أنها مدت خطاً حديدياً من أجل إخراج الرمال والغنائم (وكلف ذلك تقريباً ١٢ دقيقة من الرمايات المدفعية أثناء المعركة قرب فيردن). كما هو معروف لم تتحقق الأماني الكبيرة لوزارة الدفاع الألمانية ولكن النتائج التي حصل عليها العلماء فاقت كل التوقعات.

يمكن القول أنهم بعملهم هذا فتحوا مرحلة جديدة وأخيرة في دراسة الأهرامات أُنجزت في أيامنا هذه.

قاد البعثة الأثرية الألمانية في أبو صير لودفيك بوهارت (١٨٦٣-١٩٣٨م) وهو مهندس معماري لامع وعالم ومنظم. إن اجتماع هذه الميزات في شخص واحد قلما يصادف.

لقد كان تلميذا للباحث الأثري المشهور البروفيسور أدوف ايرمان، الذي وضع نظرية جديدة في دراسة اللغة المصرية القديمة، كما كان على معرفة بليبسيوس (الذي توفي عام ١٨٨٤م).

أما في مصر فقد تابع تقاليد الإخوة هنريخ وإميليا بروغش الموظفين المعروفين في مصلحة الآثار والمتحف المصري. كان بوهارت أيضا يعرف جيدا بالكتابات المصرية القديمة مثلما يعرف في العمارة والفن التشكيلي. لم يترك أي تفاصيل مهما كانت صغيرة، فقد كان يلم بالموضوع المدروس من كل جوانبه وكان يربط الأشياء ببعضها البعض. لم يكن هناك في كتاباته اليومية أي شيء غير عادي: لقد كانت الأعمال تسير وفق خطة ومنهج مدروسين " دون أية حوادث غير مرغوبة أو ما يدعونه مجازفات ".

عمل بوهارت لمدة سبع فصول في حقل أبو صير بادئا بفحصه الخارجي الأول في خريف عام ١٩٠١ومنتهيا بنقل ما وجده أثناء التنقيب عام ١٩٠٨.

لقد درس هناك ثلاثة أهرامات كبيره تعود إلى حقبة الأسرة الحاكمة الخامسة- أهرامات الملوك ساحور، نيفرايركار ونيوسير. لم تكن الأهرامات هي الوحيدة المردومة في بعض الأماكن إلى منتصفها مع أقبيتها ومدافنها بالرمال، بل أيضا المعابد المقدسة الموجودة في المنخفضات، الطرق، الحواجز الحجرية وبشكل عام كل ما كان موجودا حول الأهرامات بما فيها معبدي الشمس العائدين للملكين ينوسير وأوسيركاف. لقد كان بوهارت أول العلماء، الذين أجروا تنقيبا منظما لمدفن الملوك المصريين بالكامل والذي يشكل مجمعا هائلا حول الهرم الذي كان يشكل جزء واحدا فقط من هذا العمل المعماري الفخم. وهو أول من درس الهرم على أنه مرتبط مع منشآت أخرى متعلقة بالحياة الأخرى للملوك، وهو أول من أعاد تصميم كل ذلك المجمع.

بهذه النماذج والرسومات يستطيع أناس القرن العشرين أن يتصوروا هذا العمل العملاق للمصريين القدماء بشكلٍ أكثر دقةٍ مما رآه هيرودوت نفسه.

لقد قدر العلماء نجاحات بوهارت، دراساته المركبة لحقول الأهرامات في أبو صير، وتبين أنه من الضروري دراسة باقي الحقول بنفس الأسلوب.

لقد علم الأخصائيون في التاريخ المصري منذ القدم بوجود معابد ومنشآت أخرى تحيط بالأهرامات وقد أصبح الكثير منها معروفاً الآن.

ولكن بدء العلماء الآن بدراستها دراسة مركبه . وبدء صوت المعاول يسمع من جديد بعد ما بدى أن كل شيئ أصبح معروفاً .

العالمان البريطانيان انكويبل وفيورس اتجها إلى صقارى ونقبوها بشكل دقيق ابتداء من هرم تيتي وحتى هرم جوسير ثم انتقلوا إلى الجنوب إلى هرم بيوبي الثاني.

في عام ١٩٠٦م وصل أول علماء آثار أمريكان إلى مصر؛ متحف نيويورك أرسل بعثة إلى ليشت بقيادة ليتغو وميس؛ أما البعثة المشتركة لجامعتي هارفارد وبوسطن بقيادة ريسنر فقد استقرت في الجيزة. لقد بقوا هناك حتى الثلاثينيات حيث سلموا العمل إلى بعثة جامعة بنسلفانيا التي يترأسها رو بعد أن حصل على امتياز للتنقيب في حقل أهرامات ميدوم. في عام١٩٠٩م وصل الألمان بقيادة الباحث فون ريفلين. وفي صقارى بدء الفرنسيون العمل ثانية ابتداءً من عام ١٩١٤م وهم لاكو، لوربية، جيكيه وآخرون، وفي عام ١٩٢٦م انضم اليهم لاويير.

في الثلاثنيات انضم المصريون لأول مرة إلى علم مصر القديمة: سليم حسن (١٨٨٦-١٩٦١م) الذي أصبح رئيساً للتنقيبات الأثرية في جدار هرم اونيس وعبد السلام الذي درس في وقت لاحق هرم جيدغار. لم يكتسب باحثوا الموجة الثانية تلك الشهرة التي اكتسبها الرواد الأوائل ولكن أعمالهم لم تكن فقيرة مطلقاً باللحظات الدرامية أو الأحداث المقلقة.

في عام ١٩٢٠م سقط فيورس في دهليز قاد منه عملية الدخول في هرم الحاكمة ايبوت الذي اكتشفه لوربيه عام ١٨٩٧م وسرعان ما اكتشف بالقرب من ذلك

الهرم هرماً صغيراً آخر. وفي عام ١٩٢٤م كان فيورس مجبراً على الاستسلام أمام هرم مدرج في الداشور لأنه حتى بمساعدة التقنيات الحديثة لم يستطيع الوصول إلى حجرته السفلية ولم يرد استخدام الديناميت لذلك.

في عام ١٩٢٦ـ١٩٣٤م اكتشف جيكية تحت الرمال المتراكمة ستة أهرامات غير معروفة مسبقاً: ثلاثة أهرامات صغيرة لزوجات بيوبي الثاني، هرماً حجرياً للملك ايبي من الأسرة الحاكمة السابعة أو الثامنة وهرمين كبيرين من الطوب تحيط يهما حواجز من الألواح الحجرية، أحدهما يقع إلى أقصى جنوب حقل صقارى ويعود للملك حندجير من الأسرة الحاكمة الثامنة أو الرابعة عشر، أي يعود إلى الحقبة التي تلت انهيار المملكة الوسطى، من المحتمل أنه آخر هرم بني في مصر ولكنه ليس على الإطلاق آخر هرم اكتشفه علماء الآثار.

في ربيع عام ١٩٥١م لفت انتباه عالم الآثار المصري الشاب محمد زكريا غنيم مرتفع مسطح غير كبير يقع إلى الجنوب الغربي من هرمي جوسير وأونيس، كان مشاراً اليه على الخارطة على أنه تلة طبيعية، ولكن الكسور التي وجدها غنيم خلال الفحص اكدت ما بينته الصورة التي التقطت من الطائرة: يمكن أن تتشكل هذه الهضبة من تراكم الرمال على مقبرة قديمة.

حصل غنيم على السماح بالتنقيب الأثري وفي ٢٧ سبتمبر عام ١٩٥١م بدأ التنقيب. في نهاية العام وصل إلى حائط الحاجز وفي ٢٩ كانون الثاني أعلم رئيس العمال حنفي إبراهيم السيد غنيم أن العمال وجدوا زاوية بناء ضخم، وقبل نهاية فصل الربيع أصبح غنيم واثقاً أنه اكتشف هرماً. بينت الحفريات اللاحقة أنه هرم من نفس نوع جوسير ولكن بناءه لم يكتمل. في ٣١ ايار ١٩٥٤م دخل غنيم إلى حجرة الدفن ووجد تابوت من الاليبستر كاملاً لم يعبث به أحد من قبل ومن خلال الكتابات التي وجدها على الأواني المعدة للحياة الأخرى عرف أن الهرم يعود للملك سحمحيت ابن الملك جوسير وخليفته. ذلك يعني أن هذا الهرم هو ثاني أقدم هرم في مصر. بعد ربع قرن من الزمن ظهرت من تحت الرمال بقايا هرم غير معروف في حقل أبو صير: اكتشفه علماء آثار تشيكوسلوفاكيون.

ميروسلاف فيرنر الذي قاد عمليات التنقيب بعد وفاة جابا وفاغال والتي تجريها البعثة الأثرية التشيكوسلوفاكية بمساعدة الصور الجوية ودراسة المكان وصل فيرنر إلى نتيجة مفادها أنه جنوب هرم نيوسير يوجد هرم غير كبير مردوم تحت طبقات الرمال التي توضعت عليه خلال آلاف السنين، وهذا الهرم يحتمل أنه يعود إلى إحدى زوجات الملوك. السبر الذي أجري عام ١٩٧٦م بين أنه لم يخطئ.

فهو هرم " لأم ملكين " من بداية الأسرة الأولى-ساحور ونوسير، جنتكاويس.

مع أن قيمة هذا الهرم تفوق حجمه إلا أنه لم يطغى على اكتشاف هرم سِمْحيت: وليس لأن الحديث في الحالة الثانية يدور عن هرم أكثر قدماً وملكي أيضاً، ولكن بشكل رئيسي لأنه كان هرماً لم يكتمل بناءه. لقد حافظت الرمال على هذا الهرم وهو لا يزال في طور البناء:

الجدران المكشوفة والمنطقة التي تنظف حول الهرم كانت دليلاً قوياً على كيفية بناء الأهرامات ووضعت علامة إكس كما يقال على جميع الافتراضات الخيالية التي تشرح هذا الموضوع. على أية حال لم يعط هذا الهرم أي شيء جديد أو لم يحدث انقلاباً في معارفنا، لكنه أكد ما عرفناه في أواسط هذا القرن من الأمور الرئيسية والجوهرية عن الأهرامات. ماذا تعني " الأمور الرئيسية والجوهرية "؟ قبل كل شيء نحن نعرف وظيفة الأهرامات، كيف نشأت ومنذ متى بنيت، بالإضافة إلى ذلك نحن نعلم كيف تطورت وكيف تبدو في مراحل بناءها المختلفة. كما نعلم اسم الذي أمر ببناء كل منها وفي أية حقبة (إلا في حالات نادرة). ونعلم أيضاً التقنية والتنظيم المستخدمين في بناءها، وفي النهاية نحن نعلم لماذا ومتى توقفوا عن بناءها. بالنسبة لنا هذا كاف تماماً، ولكن يمكننا أيضاً أن نضيف بغض النظر عن بعض الشكوك أننا نعرف تفاصيل كثيرة، وخاصة ما يهم الناس الذين يرون في الهرم الأكبر كتاباً حجرياً مقدساً يعطي نبوءات عن تاريخ الإنسانية.

إن حجم المعارف الحالية عن الأهرامات-هو نصر للعلم، نصر رائع. الحديث هنا لا يدور عن المتطلبات الحيوية للإنسان. يمكن مقارنة هذا الانتصار بالصمود على قمة افرست أو الوصول إلى القطب وهذان الإنجازان لا يتضمنان بالطبع أية فائدة علمية.

بالطبع لا يعود الفضل في هذا للمستكشفين الأوائل أو الباحثين في مجالات الأهرامات، الذين شرحنا عنهم بما فيه الكفاية ، ولكن لمجموعة العلماء بمصر القديمة من مختلف الجنسيات .

بغض النظر عن زيارتهم القصيرة لمصر فقد أمضوا حياتهم في المكاتب الدراسية للجامعات البعيدة. لم تثنهم عن عزمهم الشمس الأفريقية المحرقة أو رمال الصحراء التي تدخل الرئتين مع الهواء أو لذغات الأفاعي. لقد كان ثمن النجاحات التي وصلوا إليها غالياً. إذا كان علماء الآثار العاملين في الصحارى غالباً ما يعانون من الكآبة والشعور بالوحدة، فإنهم في حالات مثيرة يموتون بالجلطة رغم ما يبدو عليهم من الهدوء أثناء مزاولتهم العمل. لكل علم أبطاله وعلم التاريخ المصري ليس استثناءً.

من الصعب تحديد درجة مشاركة علماء معينين في كشف أسرار الأهرامات، إلا أن الدرجة الأولى هنا ودون نقاش يحتلها العلماء الذين أتموا دراسة اللغة المصرية القديمة لأن ذلك شكّل المقدمات اللازمة للتعرف على التاريخ المصري. في الجيل الأول بعد شامبوليون يأتي الفرنسي دي روجيه وشابا والإنكليزي بيورتش والروسي غولينيشيف. من العلماء المتأخرين الإنكليزي غارديز وغريفيت والألمان ايرمان، غرابوف، زتيه والفرنسي ليغيفر. ومن ثم يأتي في المرتبة الثانية العلماء الذين وضعوا لوحة اصطناعية للتاريخ المصري القديم. أهمهم بعد ماسبير وبروغشا يأتي الفرنسيين دريوتون وفانديه والألمان ميير وشتيندروف والأمريكي بريستد والروسي توبايف. يلحق بهم أيضاً مؤرّخو الاقتصاد المصري القديم، الدولة والحقوق، الفن التشكيلي، الأدب، الديانة، وإلخ.

عدد هؤلاء العلماء ليس بقليل ولكن أبرزهم العلماء السوفيت ستروفيه، ماتيه، بيريبيلكين، كوروستوفتسيف وآخرون والعلماء التشيكوسلوفاكيون فرانتيشيك ليكا (ألف عملاً مشهوراً عن السحر المصري وأول قواعد اللغة الديموتيه) وياروسلاف تشورني (عالم كبير بالكتابة الإيراتيه).

من الجيل التالي من العلماء نسمي ثلاثة فقط الفرنسي لاوير مؤلف "تاريخ الأهرامات المصرية" (١٩٦٢م) ومواطنه فانديه مؤلف " الدليل في الآثار المصرية "١٩٤٧ـ١٩٦٠م .

لقد سعى علماء الآثار من خلال الأهرامات المصرية إلى تبيان أنه توجد على الأرض أشياء غير مدروكة، ولكن ليست هناك أشياء لا يمكن أن تدرك.

لقد أزيل حجاب الألغاز عن الأهرامات، والآن لا شيء يعيقنا عن ملاحظتها من وجهة نظر العلوم الحديثة، ولكن هل سنستمتع بملاحظتها؟

هل يكفينا معرفة حجمها، أسماءها، مَنْ ومتى أمر ببناءها؟.

إذا أردنا أن نعرف عنها أكثر يجب أن ننعش ما في ذاكرتنا عن التاريخ المصري ، عن نمطه السياسي والاقتصادي، عن ثقافته، قاعدته المادية والفكرية التي نشأت في ظلها الأهرامات.

الفصل الثاني

أسئلة وأجوبة من مملكة الأموات

الجزء الخامس

نظرة سريعة على تاريخ مصر

إن أقصر نزهة في التاريخ المصري تجبرنا على الغوص الطويل في أعماق الماضي القديم.مصر القديمة بكل أمجادها مدفونة تحت طبقات من الثقافات الكثيرة والأشكال المختلفة للدولة، التي بنيت عليها مصر العصرية. لقد تغيرت حدود مصر عدة مرات خلال تاريخها الطويل ولكن النواة بقيت كما هي:

هذه النواة تظهر على الخريطة مثل زهرة اللوتس: ساق الزهرة-محاط من الجهتين بعصبة ضيقة خضراء تمتد مع مجرى النيل، أما كم الزهرة-فهو دلتا النيل.

على هذه المساحة من الأرض وفي عدد من الواحات عاش وما زال يعيش حتى الآن كل سكان مصر.

كان عددهم منذ بزوغ فجر التاريخ عدة مئات من الآلاف، وفي زمن ازدهار الممالك القديمة-عدة ملايين وفي القرن الماضي انخفض عدد السكان إلى المليون، أما الآن فيبلغ عدد سكانها حوالي ستين مليون نسمة وفي كل عام يزيدون مليون. الكثافة السكانية هنا كبيرة جداً، إذ تبلغ مساحة المنطقة المأهولة بالسكان ٤٠ ألف كيلو متر مربع وهي تشكل خمس المساحة الكلية البالغة مليون كيلو متر مربع.

تزدهر الحياة في مصر حيث يوجد الماء وهناك حيث تنتهي آخر قطرة منه تبدأ الصحراء، وهي ميتة حجرية مترامية الأطراف-بالنظر إليها يشعر الإنسان بالخوف ولكنها في الوقت نفسه تأخذ اللب:

إلى الغرب من النيل تقع الصحراء الليبية وإلى الشرق تقع الصحـــراء العربيـــة. الحالة الآن هي نفسها كما كانت منذ آلاف السنين. لقد دعى هيرودوت مصـــر "هدية النيل" أما المصريين فيدعون النيل "النهر الذي يمنح الحياة".

إنه أطول نهر في العالم وهو يجري على الأراضي المصرية لمسافة ١٢٠٠كـــم دون أية روافد. في كل عام يطغى النيل على ضفافه، يروي الأرض التي عذّبـــها العطش ويسمدها بالطمي. النيل الأبيض الذي ينبع من البحيرات الكـــبرى مـــن إفريقيا الاستوائية يحمل من الغابات الأوراق والأعشاب والمواد العضوية، أمـــا النيل الأزرق فهو يحمل ما يجرفه إليه المطر والثلوج من جبال أثيوبيا من مـــواد بركانية، وهكذا نهر النيل لا يجرف التربة، بل على العكس يمدها بطبقات جديـــدة غنية بالأسمدة العضوية واللاعضوية. مستوى ماء النهر يرتفع وينخفض بشـــكل منتظم بحيث يمكن أن يُشكّلَ بناءً عليه تقويم زمني. ترتفع أوّلُ موجة من الأمطار الربيعية التي تسقط من أعالي النيل الأزرق، حيث تصل القاهرة من ١٧ إلى ١٨ حزيران. النهر ذو المياه الزيتونية البنية يتحول بشكل تدريجي إلى البني القـــاتم ويرتفع مستوى الماء فيه بشكل مطرد حتى ٢٦ أيلول بعد ذلك يبدأ مستوى المـــاء بالانخفاض وفي بداية كانون الأول يكتسب النيل مستواه ولونه الأوليين. الفـــرق بين أعلى وأخفض مستوى للماء في مصر القديمة بلغ خمسة أمتار ونيِّـــف. الآن وبسبب السدود انخفض هذا الفرق حوالي ثلاثة أمتار أي ما يقابل ستة أذرع وهو الفرق الذي اعتبره المصريون القدماء مثالياً. لقد لعب نهر النيل ولقرون طويلـــة بفيضانه ورواسبه دوراً أساسياً في الزراعة المصرية، التـــي كـــانت ولا زالـــت الأساسية في الاقتصاد الوطني. بغض النظر عن الطقس الحار يسمح نهر النيـــل بالحصول على محاصيل كبيرة من الخضار ودون فترة استراحة بين زراعتيـــن. كما أنه روى الأراضي وسقى الناس والقطعان. من المرجح أن مصـــر القديمـــة كانت أكثر خضرة من الحاضر. فبالإضافة إلى أشجار النخيـــل كـــانت تجملـــها نباتات الأكاسيا الكثيفة والعبل والبردي وأزهار اللوتس العطرية، كما كانت الحياة البرية أكثر تنوعاً: إلى يومنا هذا تكثر طيور النحام (الدواس) البجـــع، الظبـــاء،

الغزلان وجميع أنواع الأسماك المعروفة لنا من خلال النقوش والرسومات القديمة. يمكننا الآن أن نصادف السباع، فرس النهر، الفيلة، الكركدن، (باستثناء النوبه) في حديقة حيوانات القاهرة. ليت الأمر كان كذلك بالنسبة للأفاعي والعقارب والعناكب والبعوض اللجوج.

مصر غنية بالحجارة الرملية، الكلسية، البازلتية، الديوريتيه، والغرانيتية، أما بالنسبة للمعادن فقد كانت مصر دائما فقيرة بها. لقد كان النيل هاما في النقل أيضا فهو يربط شمال البلاد بجنوبها وقد شكل المقدمات الضرورية لوحدة البلاد السياسية والاقتصادية.

لقد تمت أولى النجاحات الحضارية والثقافية الكبيرة لمصر القديمة بفضل نهر النيل. صيادوا الضفاف والرعيان راقبوا سلوك النهر وتعلموا بالتدريج كيفية التعامل معه. بدؤوا ببناء قنوات الري وأصبحوا في النهاية من ملاك الأراضي.

إن الفيضان المنتظم للنهر جعلهم يسجلون (يعلمون) مستوى الماء. من المحتمل أن هذه التسجيلات أصبحت إحدى النبضات التي دعت إلى اختراع الكتابة.

لقد أعطى بناء هذه القنوات سببا لظهور علم المساحة، الذي يتضمن تحضير الرسومات والحسابات الضرورية لإعادة إعمار القنوات المهدمة من الفيضان كما أعطى المسوغ لتسريع تطور الهندسة.

إن النتاج الزراعي المؤسس على الري تطلب تضافر جهود عدد كبير من الناس، وهي جهود تختلف من حيث النوعية عن تلك التي يقوم بها الصيادون والرعيان.

لقد سمح تطوير الإنتاج الزراعي بتغطية متطلبات الحياة بشكل أفضل. إن تزايد عدد السكان، وتنامي قوى الإنتاج، خلق الظروف المناسبة للتطور الثاني الكبير لقوى الإنتاج—من أجل فصل الزراعة عن الحرف المهنية. لقد أفرز التعاون الزراعي تباينا داخل المجتمع: حيث ظهر أسلاف المتنبئين الحديثين بالأرصاد الجوية، المهندسين الزراعيين والمخططين. حافظ هؤلاء الاختصاصيون على معارفهم وحجبوها وشكلوا فيما بينهم جماعة منفصلة عن بقية أفراد المجتمع وحصلوا على امتيازات دينية مقدسة. بزيادة ثراء المستوطنات الزراعية تنامت

سلطة الزعماء التقليديين الذين كان يجب عليهم تأمين الحماية ضد الهجمات وتوجيه الحملات الغازية.

أصدقاء هؤلاء الزعماء الذين حصلوا لقاء خدماتهم على حصص من الأراضي المفتوحة أيضا شكلوا فيما بينهم جماعة خاصة (ارستقراطيو الأراضي) (بالمصرية بات: أما بقية السكان الذين لا يتمتعون بامتيازات فيسمون ريخيت).

وهكذا بناء على القاعدة الاقتصادية الجديدة التي كان نهر النيل أساسها نشأ تدريجيا في مصر بناء فوقي أعلى وأكثر تقدما من أي بناء فوقي في العالم في ذلك الوقت.

بدأ هذا التطور في مصر في مرحلة ما قبل التاريخ في حوالي الألف السادس والخامس قبل الميلاد وكان تطورا معقدا وبطيئا . لقد حدث هذا التطور في ظروف الانعزال شبه التام ؛ من الغرب والشرق كانت مصر معزولة عن العالم بالصحارى ، من الشمال بالبحر ، ومن الجنوب بالجبال .

هذا الانعزال يعلل الخصوصية البارزة للمجتمع المصري وثقافته وتميزها عن البنية الاجتماعية والثقافية للعالم المحيط . إن خصوصية مصر القديمة وعدم تكرارها هي سبب جاذبيتها الخاصة التي تتمثل أمامنا إلى حد الأعجوبة التي غالبا ما تسحر القلوب والألباب .

الرحالة الذي يصل إلى مصر القديمة (باستثناء علماء الآثار) يصادف هنا الكثير من المفاجآت . أولها الأسماء الألقاب . فهو اعتاد على الأسماء المصرية الصرفة ولكن يتضح له أن ذلك مغايرا للاعتقاد . شيء مشابه يحصل عند الوصول إلى مصر الحالية فعوضا عن الأرقام العربية المعروفة يفاجأ الإنسان بأرقام مغايرة يميز منها الواحد والتسعة .وما يظنه صفرا يتضح أنه خمسة .

المصريون القدماء لم يدعوا بلدهم أبدا مصر (Egypt) . لقد سموها " تي ميري "ومعناها الأرض المحبوبة. حتى المصريون الحاليون يسمون بلدهم " Masr" أو "Misr " أما تسميتنا نحن " Egypt " فقد أتت من اليونانية"آيفيوبوتس" التي أتت بدورها من التسمية المقدسة لعاصمة مصر القديمة مينيفيز أو ممفيس . وقد كانت

تلفظ التسمية كما يلي : حوت كابتاح "عزبة روح الرب بتاح ". للوهلة الأولى يبدو أنه لايوجد شيئا مشتركا بين التسميتين آيفيوبوتس و هيكوبتا. ولكن من وجهة نظر علم اللغات يشرح ذلك كما يشرح على سبيل المثال تحول التسمية اليونانية " اليكساندريا" إلى التسمية العربية الحالية " الإسكندرية " .

كما أن المصريين القدماء لم يسموا نهر النيل " نيل " لقد أتت التسمية من اليونانية " نيلوس " .كما أن المصريين لم يسموه " حابي" باسم إلهه : لم يكن حابي " إله النيل " بل تجسيدا لقوة الخصب ، لقد سموه " ايتيرو " أي " نهر " أما دلتا النيل فهي أيضا تسمية يونانية المنشأ :حيث يتشعب النيل إلى فرعين فيشكل مثلثا يشبه الحرف اليوناني " دلتا " وهو مقلوبا.

وصلت كلمة " فرعون " إلى اللغات الحديثة من اليونانية " فاراو" والتي أتت بدورها من المصرية القديمة " بير–وا" – " البيت الكبير " أي القصر الملكي.

أيضا نفس القضية بالنسبة لأسماء أكثر الحكام شهرة في مصر القديمة بما فيهم الذين أنشئوا أهرامات الجيزة فقد وصلت إلينا باللفظ اليوناني .

ولكن بما أن الحديث يدور هنا عن أسماء شخصية فإن علماء الآثار يلفظونها كما كانت في الأساس ويحاولون تعميم ذلك عند الاستخدام . بشكل عام يصبح الموقف معقد جدا مع أسماء الحكام المصريين وهذا التعقيد – مفاجأة أخرى من مصر القديمة.

يتألف اللقب الكامل للملك المصري من ثلاثة " أسماء عظيمة " ولاحقا أصبحت خمسة أسماء .

الاسم الأول – ويدعى " اسم حور " – حصل عليه الملك لأنه التجسيد الأرضي للإله حور حاكم مصر الممفيسي الأول . الاسم الثاني – ويدعى اسم " كلا الإلهين " (بالمصرية نيبتي) – يرمز إلى التقابل بين الملك والإلهين الراعيين لمصر – نيحيبت من مصر العليا و واجيت من مصر السفلى . الاسم الثالث الذي ظهر في أوقات متأخرة " حور الذهب" – لم يعرف إلى الآن منشأه وإلى ما يرمز. الاسم الرابع يترجم هكذا " الذي ينسب إلى القصبة والنحلة " (بالمصرية : ني – سوت

- بيتي) وهو على الأغلب تسمية علامات أو شعارات مصر العليا والسفلى .
حيث يبين أن الملك هو " حاكم كلا الأرضين ". الاسم " الذاتي " الخامس أطلق على الملك على أنه " ابن الشمس " (بالمصرية سا- رع) أي الإله رع.
عمليا لم يكن من المريح استخدام اللقب الكامل . لذا وفي معظم الأحوال استخدم جزء منه .
كان النحات الخبير يستغرق أسبوعا كاملا في نقش اللقب الكامل للملك .
ولكن ذلك ليس كل شيء . لقد كانت المشكلة تتلخص أنه في بعض الوثائق ذكر اسم واحد فقط وفي وثائق أخرى اسمين أو ثلاث . وجميع هذه الأسماء يمكن أن تعود إلى حاكم واحد أو عدة حكام . مع العلم أن مدوني هذه الوثائق القديمة والمؤرخين المتأخرين اختاروا بشكل كيفي هذا الاسم أو ذاك من مجموعة الأسماء . على سبيل المثال معلوم منذ القديم أسماء الحاكم جوسير و نيتشريخت . ولكن في عام ١٨٩٩م تبين أن ينتشريخت - هو
" اسم حور " يعود للملك جوسير فالحديث في هذه الحالة يدور عن حاكم واحد.
مثال آخر . مدح ديودور " مقبرة اوسيماندیا " في مدينة فيف (واسط) ؛ دينون قال أن أكثر الأطلال رومانتيكية في مصر ؛ أما شيللي فنظم فيها قصيدة شعر طويلة جدا . إن فك رموز الكتابة والتمعن الذكي بها بين أن
" الأوسيما نديا " عبارة عن تعبير بالرموز الصوتية اليونانية عن اللفظ المصري المتأخر لـ اوسير - معات - رع ، سيبتيب - ابن - رع الأولي . أي جزء من اسم رمسيس الثاني العظيم .
الإنسان الذي يزور مصر يندهش بل وحتى يمتعض من علماء الآثار الذين يضيفون لكل شيء : " تقريبا "، " من المحتمل " . يعود السبب في ذلك إلى أنهم يعرفون الكثير ولكن بدرجة وثوقية غير كافية . والكثير لا يعرفونه إطلاقا.
على سبيل المثال هم يأسفون على أنهم لا يستطيعون تحديد التواريخ الدقيقة حتى نهاية الألف الأول قبل الميلاد ، السبب بسيط : لم يكن لدى المصريين تقويما مع تاريخ مبدئي (فمثلا كان يوجد لدى اليونانيين تاريخا كهذا وهو أول الألعاب

الأولمبية عام ٧٧٦ ق .م ولدى الرومان أيضا وهو تاريخ تأسيس مدينة روما - عام ٧٥٣ ق . م) . فقد أرخوا وثائقهم ابتداء من جلوس الحاكم الجديد على العرش ، لذلك يمكن معرفة ما حدث في سنوات حكم امينحوتيب الثالث أو الخامس ولكننا لا نستطيع تحديد كم من السنوات مضى على ذلك الحدث بالنسبة لبداية تقويمنا الميلادي . إضافة إلى أن عامهم المدني المستخدم لا ينطبق على العام الشمسي . كانوا يقسمون عامهم المدني إلى ثلاثة فصول (" الفيضان " و " الانحسار " و " الجفاف ") يتألف كل منها من أربعة أشهر وكل شهر من ثلاثين يوما ؛ وهذا يقابل ٣٦٠ يوما أضافوا إليهم خمسة أيام من الأعياد . عمليا العام الشمسي أطول من عامهم بربع يوم . بهذا الشكل كلما مضت أربعة أعوام مدنية يتخلفون يوما كاملا عن العام الشمسي . تتطابق بدايتا العام المدني والشمسي عندهم مرة كل ١٤٦١ سنة (يسمى هذا الدور سيريوس . بالمصرية سوتيس) . في هذا اليوم يحدث الشروق الصباحي لسيريوس فوق ممفيس بنفس الوقت مع بداية المد في نهر النيل - بداية العام الجديد .

توجد كتابات تتحدث عن ثلاثة من هذه التطابقات .

إذا أخذنا ما كتبه تسينزورين الروماني (القرن الثالث الميلادي) كأساس . فإن هذه التطابقات بين شروق سيريوس ويوم العام الجديد تسقط على التواريخ التالية ١٣٩ ميلادية . ١٣٢١ و٢٧٨١ و٤٢٤١ قبل الميلاد . التواريخ المحسوبة على هذا الأساس أصبحت " نقطة أرخميدس " التي يعتمد عليها في الترتيب الزمني للتاريخ المصري ، كما أن علماء الآثار لا يذكرون التواريخ المطلقة بإرادتهم . السبب في ذلك أن بعض مخطوطات الملوك الهامة والمفيدة في الترتيب الزمني لمصر القديمة قد فقدت والبعض الآخر سجل عليه تواريخ الحكم (مثال . لم يسجل شيئا عن الملوك الذين فقدوا الحظوة عند من هم أكثر قوة منهم أو خلفائهم) وعلى مخطوطات عديدة لم يوضح زمن استمرار حكم هذا الملك أو ذاك ولكن سجل فقط التسلسل الزمني لتتابعهم .

بالإضافة إلى ذلك تبين أنه بنفس الوقت في أجزاء مختلفة من مصر حكم عدة ملوك مع أنه في المخطوطات يعرضون كما لو أن أحدهم ورث عرش الآخر . مع هذا يمكننا تحديد بعض التواريخ بدقة مذهلة بناء على الأحداث المتزامنة التي وقعت في البلاد التي كانت على علاقة بمصر . مثلا بالمراسلات الدبلوماسية من خلال الإعلانات عن بعض الحملات الحربية إلى سورية وفلسطين .... إلخ . لقد تمكن علماء الآثار من تحديد العديد من التواريخ بوثوقية اعتمادا على معطيات المكتشفات الأثرية . والبعض الآخر بالاعتماد على الطريقة العلمية المسماة بالكربون المشع . ولكن ظلت عدم الدقة موجودة . فمن أجل الأحقاب الموغلة في القدم يصل الخطأ إلى 150± سنة.

أول تاريخ مطلق اتفق عليه أغلبية العلماء في تاريخ مصر القديمة هو عام ٦٨٩ قبل الميلاد ، بدء حكم الملك تحاركا من الأسرة الخامسة والعشرين . وفي المرحلة الأقدم من تاريخ مصر حددت بدقة نسبية بداية حكم الملك سينوسيرت الثالث من الأسرة الحاكمة الثانية عشر (عام ١٨٨١قبل الميلاد) ولكن الاتفاق الكامل بين جميع العلماء بتاريخ مصر القديمة كائن على تاريخ احتلال مصر من قبل الفرس (عام ٥٢٥ ق. م) لقد كان على العلماء بذل جهود هائلة في هذه المتاهة من القرون الطويلة من أجل تحديد نقاط علام متسلسلة زمنيا . ولا غرابة في أن طريقهم إلى الحقيقة كانت تشوبه أخطاء تبلغ ألف عام وأكثر . خاصة في المراحل الأولى لتطور علم الآثار المصرية نسب الباحثون أحداث التاريخ المصري إلى أحقاب موغلة في القدم أكثر مما هو عليه في الواقع . كمثال سنورد هنا محاولة لتحديد تاريخ توحيد مصر على يد ميني والذي اعتبره المصريون القدماء بداية لتاريخهم .

لقد اعتبر شامبوليون تاريخ هذا الحدث هو عام ٥٨٦٧ ق . م ؛ مارييت اعتبره عام ٥٠٠٤ ق. م ؛ اميل بروغش اعتبره عام ٤٤٥٥ ؛ شابا ٤٠٠٠؛ ليبسيوس ٣٨٩٢ ؛ مبير ٣١٨٠ ؛ ويلكنسون ٢٣٢٠ ؛ بالمر ٢٢٢٥ ؛ شتيندروف ٣٢٠٠ ؛ بريسة ٣٤٠٠ ؛ ستروفه٣٢٠٠ ق. م . أما الآن فكلا الطريقين الطويل والقصير

لعملية التسلسل الزمني يؤديان إلى تحديد هذا التاريخ وهو ٣٠٠٠ ق. م . بخطأ لا يتجاوز ± ١٥٠ عام . إن ما يبعث على الدهشة هو تمكن علماء الآثار من إعطاء صورة متسلسلة للتاريخ المصري رغم كل الانقطاعات وعدم الدقة .

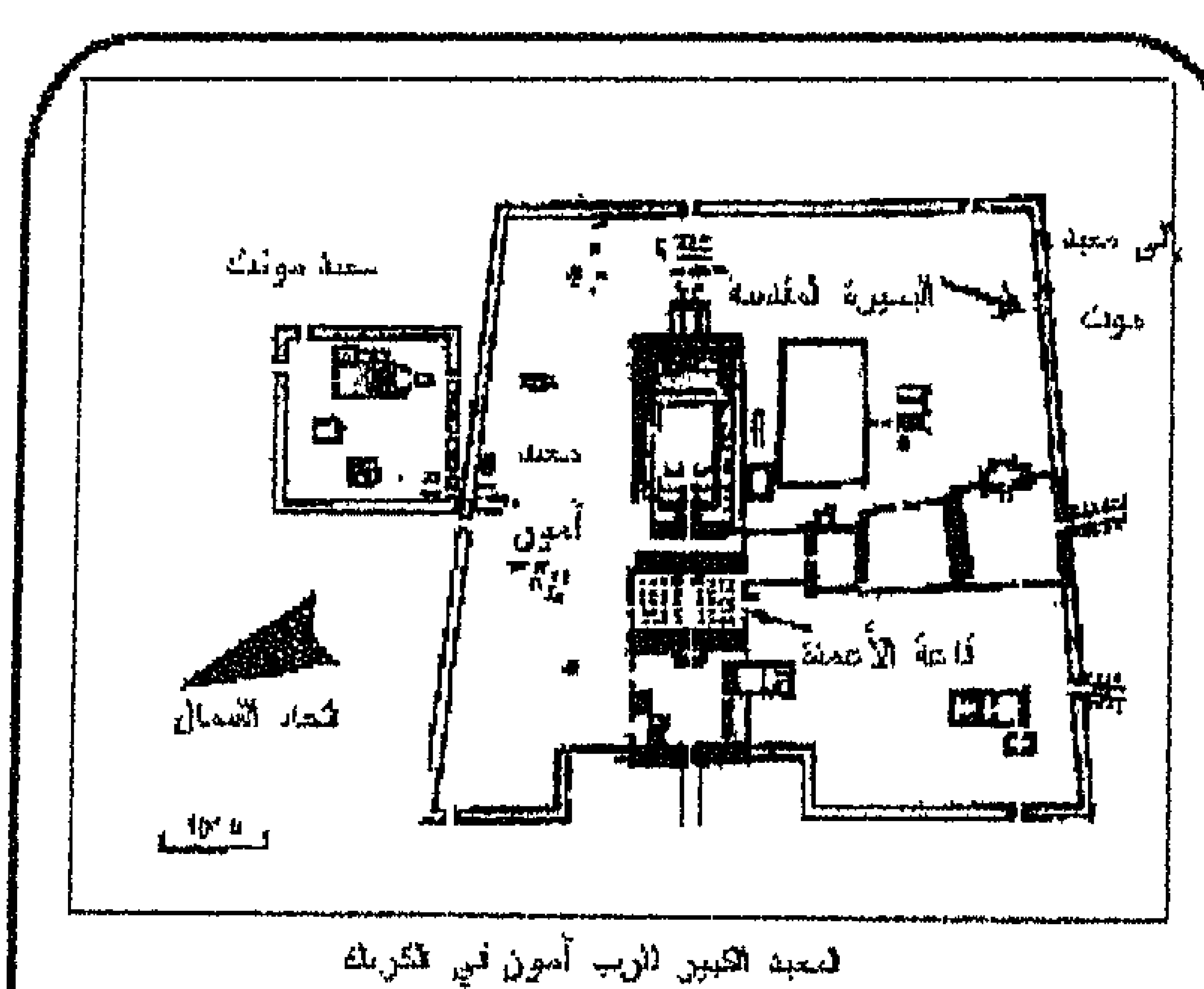
لقد تكونت هذه الصورة بالاعتماد على الكم الهائل للمصادر الأصلية وهي : كتابات الحكام والوجهاء ، المذكرات السنوية ،الإعلانات عن الحملات الحربية والبعثات التجارية ، مشاريع القوانين وإسناد المناصب : مؤسسات جمع الضرائب ووثائق جمع الرسومات ، المؤلفات العلمية والفنية ، والنصوص الدينية والسحرية ، بالإضافة إلى رسائل ووثائق متنوعة المواضيع .

إن الكتابات والنصب التذكارية إضافة إلى كتابات وآثار دول الشرق الأوسط التي كانت في الماضي على علاقة بمصر قد أكملت جميعها المعطيات الأثرية .

من هذه الكمية الهائلة من "الوقائع المشكلة للتاريخ" كان على علماء الآثار انتقاء وإخضاع "الوقائع التي تخص التاريخ نفسه" إلى حد فحص دقيق.

إن هذا الفحص هو جزء من عمل أي مؤرخ إلا أنه بالنسبة لمصر القديمة كان هذا الفحص معقدا وصعبا للغاية.

لقد أعتبر الملوك المصريين أربابا لذلك لم ينهزموا قط في أية مسألة. بهذا الشكل وفي جميع الحروب لم يكن هناك بديلا عن النصر. وفي أية معاهدة دبلوماسية توصلوا إلى النجاح، ولم يكونوا من الخاطئين مطلقا في أي شيء، لقد فاقوا الجميع بالقدرة، بالجسارة والثراء... إلخ .



المعبد الكبير للرب آمون في الكرنك
ابتداءً من الحائط الجنوبي يوجد طريقان يؤديان إلى معبد موت
على جانبي كل منهما يوجد صف من تماثيل أبي الهول

في قصورهم كان أصحاب الدواوين يعرفون ماذا وكيف يكتبون: تحولت الهزائم إلى انتصارات أو كان يحيط بها

الصمت، وصفت بحماس حروب كبيرة لم تحدث مطلقا، مجدت شجاعة الملـوك، الذين لم يظهروا مطلقا على أرض المعركة.
لم يتخلف نحاتو التماثيل وناقشوا الكتابات عن أصحاب الدواوين: توجـد أمامنـا لوحات يبدو فيها الملوك وهم يقتلون مئات الأعداء، علما بأنهم كما هو معـروف لدينا لم يخرجوا أنوفهم خارج قصورهم قط خلال فترة حكمهم. لـم توجـد فـي أعمال هؤلاء الفنانين أية نظرة نقدية، كما لا يوجد فيها أي ظل للحقيقة، إذا لـم تكن مناسبة للفرعون.
على سبيل المثال نحن نعرف المعركة التي جرت عند قـادش عـام ١٣١٢ ق.م والتي هزم فيها رمسيس الثاني شر هزيمة على يد الحثيين ونجى مـن المـوت بأعجوبة. من المعلوم أيضا أن المصادمات اللاحقة مع الحثيين لم تتوج بالنجـاح وفي النهاية عدل عن فكرة إخضاعهم. ولكن في معبد آمون في الكرنك أمر بنقش مديح "على شرف النصر عند قادش" يقول: "عندما تركني جيشي وعرباتي كـان ذلك العمل أبشع جريمة ولكن انظروا: أعطاني آمون النصر علما أنه لـم يكـن معي جيشا أو عربات. لقد شهدت تلك المنطقة البعيدة على نصري وقوتـي مـع أنني وحيدا دون أي خدم أو حتى حوذي".
٢٥٠٠ عربة حثية هاجمته: "لكنني أغرت عليهم.لقد كنت مثل مونت ومباشـرة أذقتهم ضربات يدي. لقد قطعتهم وقتلتهم حيثما وجدتهم وصاح واحد لآخر: "هـذا الذي بيننا ليس بشرا، انه سيت بعل الذي لا يقهر. إن ما يفعلـه يفـوق القـوى البشرية. "لم يحدث أبدا أن شخصا دون قوات أو عربات تغلب على مئات الآلاف من الأعداء". لقد أمر بنقش هذا المديح على معبده غير البعيد في وادي الملـوك، كما أمر بأن يكتب عن قاتل الحثيين عند قادش على واجهـة معبـد الأقصـر . وصور على هذه الواجهة ١٠٩٠٠ جندي مصاب أو هارب من الأعداء. لقد تبين لرمسيس أن هذه النصب الثلاث غير كافية . لذلك أمر على شرف هذا النصـر بنحت المعبد الصخري المشهور أبو سنبل.

لا يمكن لأحد أن يقول أي شيء . لقد كان الفرعون يستطيع نشر الدعاية لشخصه على المستوى المطلوب .

يمكن أن تضيف إلى ذلك أن ملك الحثيين حتوشيل الثالث اقترح في النهاية عقد اتفاقية سلام، لقد حفظت النسخة الهيروغليفية لهذه الاتفاقية على جدار معبد الكرنك بالإضافة إلى أنها نقشت على ألواح فخارية .

بالنسبة لنا تكفينا نظرة قصيرة على ما يعتبره الأخصائيون في التاريخ المصري القديم موثقا بشكل جيد وهاما . سوف نستخدم تقسيم مانيفون من سيبينيت للملوك المصريين إلى (٣٠) أسرة حاكمة . لم تكن هذه الأسر مرتبطة فيما بينها من حيث الجنس بل من حيث مكان الظهور . وبناء عليه قام ليبسيوس بتقسيمها إلى ثلاثة ممالك . ووفقا لذلك قسم التاريخ المصري إلى ثلاثة أحقاب رئيسية . لاحقا قام العلماء بتاريخ مصر القديمة بتدقيق الترتيب الذي وضعه ليبسيوس ، وبناء عليه نميز الآن : حقبة ما قبل التاريخ (قبل توحيد البلاد) . مرحلة الجماعات المتشتتة (الأسرة الحاكمة II –I) المملكة القديمة (الأسر الحاكمة VI - III) ، والعصر الانتقالي الأول (الأسر الحاكمة X – VII) المملكة الوسطى (الأسر الحاكمة XI– XIII) ، العصر الانتقالي الثاني (الأسر الحاكمة XIII – XIV) ، المملكة الجديدة (الأسر الحاكمة XVII–XX) . المملكة المتأخرة (بما فيها العصر السايسي وحقبة ما بعد الأسرة الحاكمة XXVI).

نهاية التاريخ المصري القديم يعتبر عصر الإسكندر الأكبر وبتوليمي (٣٣٢قبل الميلاد – ٣٠ ميلادية) الذي أتى بعده العصر الروماني والبيزنطي والذي انتهى عام ٦٤٢ م بفتح العرب لمصر .

لقد سكنت الأرض المصرية منذ أقدم العصور . حيث وجدت أقدم آثار إنسانية على ضفاف النيل يعود تاريخها إلى ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد . أما أولى المستوطنات القديمة الثابتة فقد ظهرت في حدود الألف الخامس والسادس ق. م .

لقد أثبت بطريقة تحليل الكربون راديويا أن الحب الذي اكتشف في مقر حفظ

المحاصيل في واحة الفيوم يعود إلى عام ٤٦٠٠ – ٤٣٠٠ ق . م . إن هذا يبرهن على أن مصر سكنت في تلك الحقبة من قبل فلاحين مستقرين.

إن سكان مصر الذين تشكل منهم الشعب المصري القديم يعودون إلى القبائل المحلية لإفريقيا الشمالية والشرقية . ثم انضم إليهم الوافدون من شمال أفريقيا ، الذين تركوا أمكنتهم بسبب جفاف التربة . في النهاية اختلط سكان القبائل المختلفة في سهل النيل إما سلميا أو بالقوة والاستعباد .

إن ما يدل على هذا الاختلاط هو النموذج المصري القديم الذي لا زالت توجد عناصره في المناطق المجاورة والبعيدة من أفريقيا . أي أن النظرية القائلة بالنشأة الأسيوية للمصريين القدماء ليست صحيحة كما أثبت العلم الحديث. إذا ما تكلمنا عن الانتماء العرقي الذي لا يعني شيئا أمام تاريخ الحضارة والثقافة فإنه يمكننا أن نذكر أنه ظهر في المناطق الشمالية العرق الأبيض وفي الجنوبية العرق الأسود. لقد تبلورت اللغة المصرية خلال عملية التشكل السكاني لمصر القديمة .

يمكننا تتبع تطورها ابتداء من الألف الرابع والثالث قبل الميلاد ، أي من الزمن الذي وصلتنا منه أولى الكتابات المصرية القديمة . يمكن ملاحظة أربعة مراحل لتطور اللغة المصرية : اللغة المصرية القديمة (حتى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد) ، اللغة المصرية المتوسطة أو " الكلاسيكية "(حتى القرن الخامس عشر قبل الميلاد)، اللغة المصرية المتأخرة " الجديدة " (حتى القرن السابع قبل الميلاد) واللغة الديموتية (التي دونت بها معظم الكتابات من القرن الثامن إلى الخامس قبل الميلاد). المرحلة الأخيرة من تطور اللغة المصرية كانت اللغة القبطية (ابتداء من القرن الثالث الميلادي) . التي بقيت قيد التداول حتى القرن السادس عشر الميلادي (حتى الآن يتم التداول بهذه اللغة عند أرباب الطائفة القبطية). نحن نضم اللغة القبطية إلى أسرة اللغات (السامية - الحامية) . إنها لغة متميزة ولكن يمكن أن نجد فيها تعابير ليبيه–بربرية

(غربية) وكوشيتية (جنوبية) إضافة إلى قرابتها من اللغات السامية الأخرى (الفينيقية - البابلية - الآشورية) . في الوقت الحالي نحن نعرف أكثر من

٢٠٠٠٠ كلمة مصرية قديمة منها ٣٠٠ كلمة ثبت أنها مشتركة مع اللغات السامية . بالتالي كانت هذه اللغة غنية بشكل استثنائي وتتمتع بمرادفات متطورة . مع أن اللغة المصرية تعد من اللغات الميتة إلا أن كثيرا من كلماتها تعيش في اللغات الحديثة . حيث دخلت عن طريق اللغتين العبرية واليونانية . من أكثر الأسماء انتشارا " بابيروس " و" اوازيس " ،" ايبيس "، " إيبونيت " ، " بازالت" ، " ناتر " ، " كيميا " وهي جميعها من أسماء " سوسان " . تتحدث أولى المخطوطات المصرية القديمة عن أن كتابتهم عبارة عن نظام متكامل نتج عن تطور طويل . كتبت هذه المخطوطات باللغة الهيروغليفية كما سماها اليونانيين (hieros " مقدسة " و glyfo " منحوتة ") . بعد أن تعرفوا عليها عن طريق الكتابات المنقوشة على المعابد .

بعد ذلك أتت الكتابة الهيراتية (من hieratikos " كهنوتي " كما سميت في العصر اليوناني حيث استخدم الكهنة هذه الكتابة في تدوين كتاباتهم) . هاتان الكتابتان متساويتان من حيث الأساس . إلا أن الكتابة الهيراتية كانت أسهل ولم تستخدم في الكتابات على النصب التذكارية . بل من أجل الكتابة على ورق البردي والألواح الحجرية الصغيرة . في القرن السابع قبل الميلاد أضيفت إلى هذين النوعين كتابة أسهل بكثير أطلق عليها اليونان اسم الديموتية (من demos " الشعب ") .

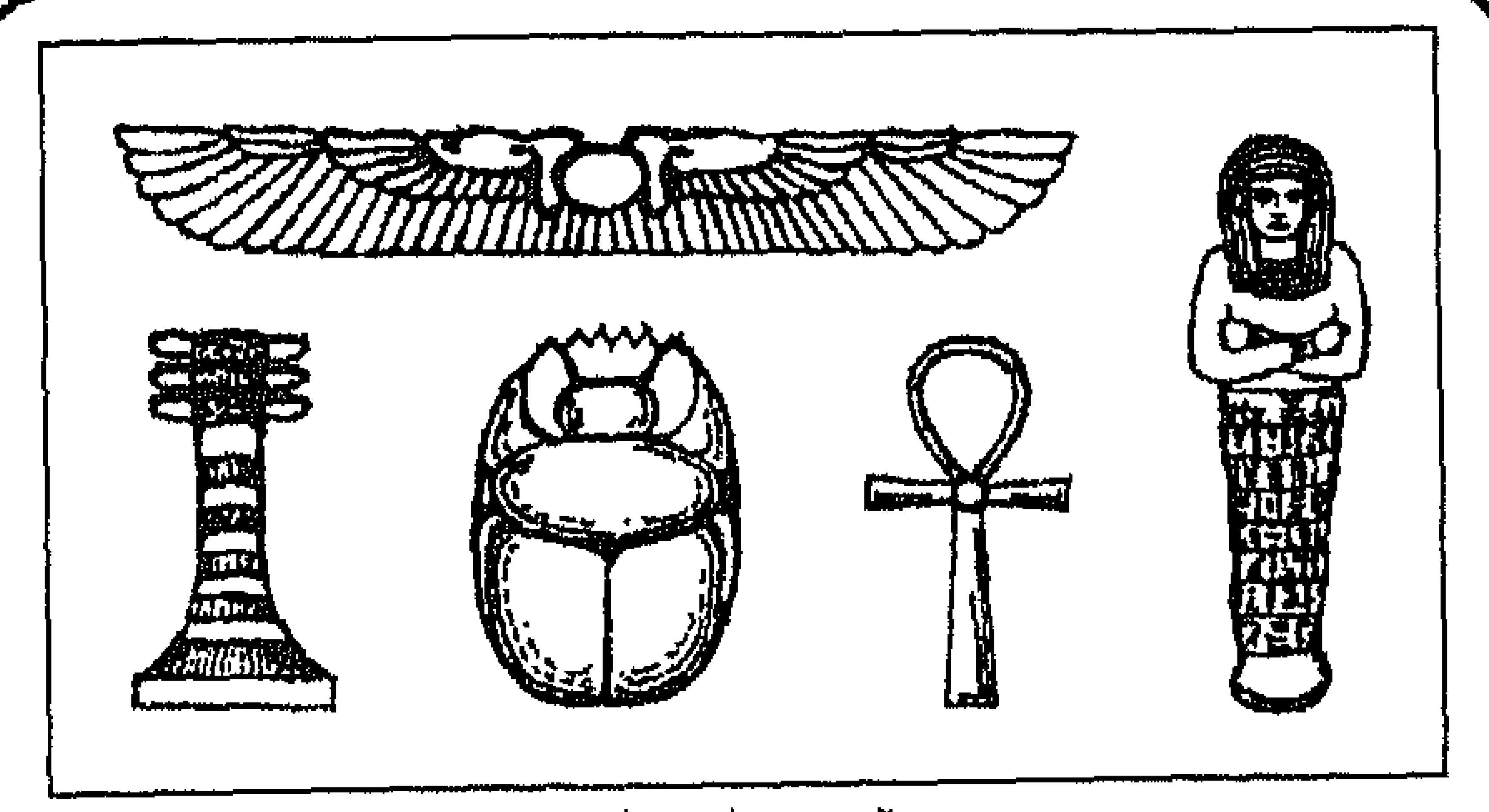
لقد استعملت الكتابة الهيروغليفية حوالي ٣٥٠٠ سنة وآخر هذه الكتابات يعود إلى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد . إن الكتابة الهيروغليفية التي تطورت عنها الكتابتين الهيراتية والديموتية كانت تملك حوالي ٧٠٠ علامة يتكرر استخدامها بشكل واسع وهي غالبا علامات معقدة جدا .

أول مجموعة من العلامات الأقدم سميت ايديوغرامات - وهي عبارة عن علامات تعبر عن كلمات من خلال تمثيل الأشياء أو الأفعال . أما معانيها اللفظية فكانت متعلقة بتسمية تلك الأشياء أو الأفعال . المجموعة الثانية سميت فونوغرامات - أي العلامات التي تدل مباشرة على اللفظ .

٢٤ منها تشير إلى أصوات ساكنة (حروف صامتة) وأكثر من ١٥٠ إلى مجموعة الأصوات الساكنة (أصوات صامتة مركبة) . بما أنه لا يشار في الكتابة المصرية إلى الصوتيات (حروف صوتية) . فإن الكلمات المكتوبة بهذه العلامات يمكن أن تملك معان مختلفة : على سبيل المثال " ب - ر " يمكن أن تقرأ " بير " وهي تعني " بيت " أو " بيري " وتعني " يخرج " . هذه الازدواجية أو الاختلاط في المعاني أزالته المجموعة الثالثة من العلامات التي تسمى بالمحددات (في الحالة الأولى يرسم بين العلامتين " ب - ر " مسقطا أفقيا لبيت وفي الحالة الثانية - أرجل سائرة .

تعد هذه المحددات بالمئات وغالبا ما يكون معناها بصريا وهي لاتلفظ . لم يكن هناك في اللغة المصرية إشارات فصل . كان يمكن الكتابة من اليمين إلى اليسار أو بالعكس ويضاف إليها في الهيروغليفية والهيراتية من الأعلى إلى الأسفل .

بالطبع كانت هذه الكتابة معقدة جدا - ليس فقط بالنسبة لمفككي الرموز الحديثين . إذ اعتبرت معرفة هذه الكتابة في مصر نوعا من الفن وكان الإنسان الذي يختص بمهنة الكتابة يتمتع بقدر كبير من الاحترام .



الرموز المقدسة

في الأعلى قرص الشمس المجنح مع زوج من أفاعي الكوبرا الملكية-رمز الحماية في الأسفل إلى اليسار عمود (رمز الثبات والقوة) الجعل المقدس الصليب (رمز الحياة وتمثال (خادم المتوفي في العالم الآخر)

وهكذا يبدو تاريخ مصر مع الوثائق الأولى المدونة ومباشرة بعد انتشار الدولة الموحدة التي ضمت جميع القرى والمستوطنات المنتشرة على طول ضفاف النيل . والتي كانت قبل ذلك مستقلة عن بعضها البعض . أحيانا كانت القرى الأقوى تحتل القرى الأضعف وأحيانا كانت القرى الصغيرة تتحد ضد القرى الكبيرة . لقد كان الهدف توسيع رقعة الأرض ومن ثم ظهرت المصالح التي

أصبحت أساسية لا غنى عنها : استثمار طوفان النيل وبناء نظـــام ري موحـــد . بالطبع نحن لا نعرف التفاصيل ولكن مما لا شك فيه أن الأرض المصرية رويت بدماء إنسانية كثيرة .

تشكلت تدريجيا العشرات من الدول الصغيرة . في الألف الرابع قبـــل الميـــلاد ونتيجة لاتحاد الدويلات الصغيرة ظهر على الأرض المصرية اتحادان سياســيان كبيران : مصر العليا في الجنوب ومصر السفلى في الدلتـــا. يحتمـــل أن هـــذان الاتحادان بقيا لفترة طويلة لأن تقسيماتهما الإدارية كانت جيدة بحيث حافظت على استقلالهما .

كان حاكم مصر يلقب " بملك مصر العليا والسفلى " . أحد رموز الحكم كـــان ال "بشينت " - وهو عبارة عن " تاج مزدوج " أتى من اتحـــــاد " التـــاج الأبيـــض" لمصر العليا مع " التاج الأحمر " لمصر السفلى .

لقد تشكلت الدولة والمجتمع الطبقي في مصر قبل تشكلها في أوربـــا (اليونـــان وروما) بألف سنة .مع أن التطور الاجتماعي والاقتصادي في مصر كان بطيئـــا جدا . فقد كان التطور الفني هائلا .

وفقا للأخبار التي دونها مانيفون كان موحد مصر ملكا اسمه الذاتي فيتي (مينيس). كانت عاصمة هذه المملكة تدعى تين وهي تقع على مسافة ١٠٠كـــم جنـــوب القاهرة حاليا وبقاياها لازالت موجودة حتى الآن . زحف هذا الحاكم باتجاه مصر السفلى في الألف الثالث قبل الميلاد وفتحها . ثم أسس على الحدود بين الدولتيـــن عاصمة جديدة - مينيفير (ممفيس) . يحتمل أن حكام مصر الســـــفلى حـــاولوا توحيد الدولتين قبل ذلك . إلا أن أحدا لم يكتب له النجاح إلا ميني . يعتبر مينـــي مؤسس الأسرة الحاكمة الأولى من الملوك المصريين ، التي ينتمي إليها سـبعة أو ثمانية حكام . تسمي المصادر عددا من الملوك الذين أتوا بعد ميني مثل جـــير ، جت (واجي) ، اوديمو(دن) أنجيب ، سمرحيت ، كاع . وصلتنا من مـــانيفون أسماء عشرة من ملوك الأسرة الحاكمة الثانية ومـــــن مصـــادر أخـــرى اثنيـــن إضافيين. لقد تأكد بشكل موثوق سبعة أو ثمانية من هؤلاء الملـــــوك أســـماءهم "

الحورية " (نسبة للرب حور) حتب سحموي ، نيبرا . والذاتية اونيغ ، ســـيند . والحورية بيريبسين، قسحيم (يمكن أن يكون الاسمين الأخيرين متقابلين أي لملك واحد).

يمكن القول باختصار أن هؤلاء الملوك عملوا على تقوية الدولة على الصعيديـــن الاقتصادي والسياسي كما أنهم قادوا عدة حروب وبشكل خاص إلى شبه جزيـــرة سيناء حيث جذبتهم فلزات النحاس وإلى النوبة حيث جذبهم بريق الذهب . يوجـد لدينا أساس للافتراض أن كل هؤلاء الحكام قاموا بإخماد عدة ثورات انفصاليـــة داخل البلاد . لقد ترك قسحيم مخطوطة عن سحق المشاركين في عصيان مصـــر السفلى حيث قتل ٤٨٢٠٥ (أو ٤٧٢٠٩) متمردا وأخذ ١٢٠٠٠٠ أسيرا .

بالمحصلة أصبحت الظروف مهيأة لقيام المملكة القديمة والأقدم في التاريخ : لقـد كانت أقدم بحوالي ٥٠٠ سنة من مملكة سارغون الأكادية وبألف سنة من مملكـــة حمورابي البابلية .

تدعى الحقبة التي حكمت خلالها الأسرتين الأولى والثانيـــة بحقبـــة الجماعـــات المتفرقة . أما المملكة القديمة فقد حكمتها الأســـر (III - VI). بـــدأت المملكـــة القديمة عام ٢٧٠٠ ق . م وانتهت عام ٢٢٧٠ ق . م . أي أنها استمرت حوالـــي ٤٢٥ سنة وهي نفس فترة استمرار الأمبراطورية الرومانية . تسمى هذه الحقبـــة بالحقبة الممفيسية نسبة إلى العاصمة ممفيس التي نقل إليها الملوك مركز الحكـــم وهي الحقبة التي بنيت فيها الأهرامات .

كان الحاكم الأول للمملكة القديمة جوسير مؤسس الأسرة الحاكمـــة الثالثـــة مـــن الملوك المصريين الذين استمروا ١٠٠ سنة في الحكم . يسمى جوسير باليونانيـــة توسورفروس .

لقد استمر هذا الملك بالقتال في سيناء والنوبة وضم جزءا من هذه الأراضي إلـــى مصر . والأهم أنه ترك لنفسه نصبا تذكاريا على مر العصور والأزمنة. لقد أمر ببناء هرم مدرج من الحجر بأبعاد هائلة مازالت تثير الدهشة حتى اليوم وذلك في

مقبرة ممفيس التقليدية بالقرب من صقارى . بعده أتى سحمحيت . الذي بنى هرما عند صقارى إلا أنه لم ينهيه .
لقد ذكر مانيفون أسماء تسعة من هذه الأسرة أما المصادر الأخرى فقد ذكرت أكثر من ذلك . من بينهم نبقرا ، نفرقرا . نبقا ، سنحت . حبا . حوني ؛ يحتمل أن بعض هذه الأسماء تعود لحاكم واحد . لا نعلم تسلسلهم في الحكم بدقة ولكن على الأغلب أن سنحت كان خليفة جوسير أو الخصم الذي أزاح جوسير . أما نبقا فكان ملك الأسرة الرابعة ، التي بني خلال فترة حكمها الهرمان المدرجان الصغيران الكائنان بالقرب من القولة ونجادي في مصر العليا بالإضافة إلى هرمين آخرين غير مكتملي البناء في زاوية العريانه .
أمر حوني الحاكم الأخير من هذه الأسرة ببناء هرم كبير له في ميدوم الحديثة . ولكن على الأغلب أنه مات قبل أن يكتمل . عن نشاطات ملوك هذه السلالة لم تصلنا إلا أخبارا متقطعة ومتضاربة . حكمت الأسرة الرابعة من ٢٦٠٠ إلى ٢٥٠٠ ق . م وقد التقينا بملوكها في غير موضع من هذا الكتاب . المعلومات الأكثر دقة وصلتنا عن أول ملوك هذه الأسرة - الحاكم سنوفرو الذي سماه مانيفون سورسوم . حسب العادات المصرية كتب عنه أنه ملك طيب وناجح في قيادته . ومن المراجع التاريخية تعرفنا على الحروب التي خاضها في ليبيا والنوبة وخاصة في سيناء . حيث استحوذ على الكثير من الجواهر في منطقة جيب المغاره .
تقول الأخبار أنه أمر بإتمام بناء هرم حوني في ميدوم وبناء هرمين آخرين كبيرين في داشور الحديثة .
حكم بعده كل من الملوك خوفو (الاسم الكامل - حنيمخوفو . باليونانية خيوبس) ، وخفرع (باليونانية خفرين) ومنقرع (باليونانية ميكيرين) وهم الذين أمروا ببناء الأهرامات الثلاث الكبرى في الجيزة . هذا كل ما نعلمه عن هؤلاء الملوك من المصادر التاريخية . ولكن على الأغلب قام خوفو بتنظيم حملة جديدة على سيناء . إن تأكيد مانيفون على أن كل منهم حكم ستين سنة غير مطابق للحقيقة .

هناك معطيات أخرى تفيد أن خوفو حكم ٢٣ سنة ، وخفرع ١٨ سنة . أما الأخبار أو على الأصح الألغاز التاريخية عن ظلم خوفو وخفرع وطيبة منقرع فهي مؤسسة على ما تناقلته الألسن على مر السنين ومن ثم تم تسجيلها من قبل الكتاب اليونانيين . من المحتمل أنه بين حكم خوفو وخفرع حكم جديفرا ، وبعد خفرع حكم حوردجدف و رابوف ؛ ووفق مصادر أخرى كانوا خلفاء الملك.
أيضا جديفرا أمر ببناء هرم له في أبو رواش ولكن أدركه الموت قبل أن يستطيع إنهاءه .

يعتبر حوردجدف الراوي في " قصة الساحر جيدي " وهي جزء من إحدى أقدم المؤلفات الأدبية المصرية (والعالمية) - " أساطير من أوراق فيستكار".
في نهاية حكم هذه الأسرة أتت مرحلة الفتنة. من المحتمل أنه في هذه المرحلة حكم الملك نبقا الذي يعد من الأسرة الحاكمة الثالثة: لقد عثر على اسمه منقوشا على ألواح هرم غير مكتمل في منطقة زاوية العريانة. أما الحاكم الأخير من الأسرة الرابعة فكان شبسسكاف، تميز عن سابقيه من الملوك بأنه لم يأمر ببناء هرم بل مصطبة منخفضة جدا، وأختار مكانا لدفنه يقع في منخفض صغير إلى الجنوب من صقارى.

ظهرت الأسرة الخامسة من منطقة أون الواقعة حاليا مكان تل حسن وحكمت أكثر من مائة عام ابتداء من عام ٢٥٠٠ ق.م تقريبا. لقد وصل ملوك هذه الأسرة إلى الحكم في ممفيس بعد صراع بدأ في زمن الأسر الحاكمة السابقة.

وصلتنا أسماء تسعة ملوك من هذه الأسرة، الأول اوسركاف (باليونانية اوسيرخيرس)، بعده ساخورا (سفرس)، نفريركارا (نفرخيرس) شبسسكارا (سيسيرس)، نفريفرا (خيرس)، نيوسيرا (رفورس) منكاوحور (منخيرس)، دجدكارا (تنخيرس) والأخير أونيس (أونس). لقد أوردنا أسماء جميع الحكام (وأسماءهم باليونانية) لأنه باستثناء الذين حكموا لفترة قصيرة وهم شبسسكارا ومنكاوحور أمر جميعهم ببناء أهرامات: بعضها في أبو صير والأخرى في صقارى. كانت أبعاد أهراماتهم أصغر من أهرامات الجيزة إلا أنهم استهلكوا

وسائل ضخمة في بناء معبد الشمس على شرف الإله رع وزينوها بالمسلات الضخمة المهيبة. لقد تابع هؤلاء الملوك عادة الزحف على النوبة وليبيا وسيناء بالإضافة إلى ذلك وجهوا بعثات تجارية سلمية إلى أسيا، على الأغلب لبنان الحالية. معلوم من المصادر التاريخية أنهم دائما كانوا يعيدون التنظيم الإداري الداخلي: عملوا على تقوية أجهزة الدولة الموالية لهم ووضعوا قيادتها في أيدي أخصائيين من ذوي الدماء الملكية.

أما الملوك أنفسهم فقد قابلوا أشخاصهم بشخص الإله رع ورفعوا أنفسهم إلى مرتبة "آلهة الكون".

من الأسرة السادسة التي بدأ حكمها حوالي ٢٤٠٠ ق.م عرفنا ستة ملوك وملكة. أولهم تيتي (أفويس) الذي قتله حراسه الشخصيون: وبعد فترة قصيرة من حكم خلفه أوسركارا وصل إلى العرش بيوبي الأول (فيوس)، الذي لم يعطي لقواده ومحاربيه أية فرصة لخلفه، وذلك بإرسالهم في حملات جديدة إلى النوبة وحتى إلى سوريا. أما الملك التالي مرنرا فلم يصلنا عنه سوى القليل: من المحتمل أنه توفي شابا لأن الذي خلفه كان ابنه بيوبي الثاني (فيوبس) ذو الست سنوات، والذي عاش حوالي المائة سنة و ضرب الرقم القياسي في مدة البقاء في الحكم. يحتمل أن من استلم العرش بعده مرنرا آخر. وبعده أتت الملكة نتوكيرتي (نتوكريس)، التي يشك بعض المؤرخون في وجودها. جميع ملوك الأسرة السادسة باستثناء مرنرا الثاني وأوسركارا خلفوا وراءهم أهرامات. يؤكد مانيفون أن نتوكريس بنت هرما ولكن لم يتم اكتشافه حتى الآن. جميع الملوك أمروا بتزيين الحجر الداخلية للأهرامات بالكتابات كما فعل أونيس ؛ من هذه الكتابات عرفنا لأول مرة في التاريخ المصري عن بعض تفاصيل الحياة التي كان البعض منها غراميا.

ولكن للأسف لا هذه النصوص ولا النصوص اللاحقة بينت سبب سقوط هذه الأسرة.

يوجد بها فقط أخبار متفرقة تبين أن الحكم قد أصبح ضعيفا: لم يعــد الوجــهاء والحكام المحليون يعينون من قبل الملك بل توارثوا مناصبــهم وتحكمــوا بــها باستقلالية كبيرة.

من البديهي أن حكم الدولة قد بدأ بالتحلل . وبعد موت الملك بيوبــي الثــاني ذو المائة عام اندثرت المملكة القديمة ولم يعد لها وجود.

لقد شكلت هذه المملكة حقبة عظيمة في التــاريخ المصــري. حاليــا العاصمــة المصرية محاطة بعشرات الأهرامات-وهي هضاب من الحجر الأبيض والوردي تنتصب بالقرب منها معابد هائلة ذات قاعات بأعمدة ومئات من قبور الوجــهاء الفخمة، كما تخترق الصحراء طرقات مرصوفة بالغرانيت والحجر الكلسي تلتمع في الشمس الساطعة وترتفع في السماء وسط المعــابد المقدســة مســلات ذات رؤوس مذهبة.

تنطوي هذه المعابد والمقابر والمقدسات على مجموعة من الأعمال الفنية، التــي أصبح ما تبقى منها معروضات ثمينة في متاحف العالم. من حقبة (المجموعــات المتفرقة) ظهرت النقوش والمنحوتات الفنية وهذا ما تــدل عليــه يــد منحوتــة ومنقوشة من عظم الفيل وجدت في جبل العرق (موجودة الآن في متحف اللوفــر في باريس)وعصا الملك نرميرا (في متحف القاهرة) بالإضافة إلى تماثيل صغيرة تمثل الفرعون حسحيم وهو جالس (موجودة في القاهرة وأوكســفورد)، أضيفــت إليها لاحقا نقوش حجرية بارزة لجوسير، خفــرع، منقــرع وملــوك آخريــن. بالإضافة إلى ذلك ظهرت أعمال فنية أخرى مثل تمثال مزخرف لابن ســنوفرو رحتيب وزوجته نوفريت ومنحوت للقزم سنيب ومنحوت للوجيه قعبير (مشــرف زراعي) (حاليا جميعها في القاهرة) وأيضا تماثيل كثيرة لكتبــة جالســين (فــي القاهرة، ولكن أشهر هذه التماثيل موجودة في متحف اللوفــر)، إلا أن الغالبيــة العظمى من هذه التماثيل لا يعرف العلماء لمن تعود.

إن جميع ما توصل إليه المصريون خلال فترة وجود المملكة القديمــة فــي فــن الهندسة والنحت والنقش-هو من اختراعهم واكتشافهم الخاص. لقد بــدءوا مــن

الصفر، ينطبق ذلك على الكتابة أيضا-أعظم أعجوبة تم استخراجها من أعماق التاريخ المصري. في النقوش الجدارية الموجودة في المقابر توجد نصوص إيضاحية وحوارات بين الشخصيات المصورة ذات قيمة أدبية كبيرة دون شك.
أحد الفنون الحقيقية والأصلية التي نشأت في المملكة القديمة كانت "التعاليم"-وهي إنشاء شعري يحتوي على نصوص حياتية كتبت اعتمادا على الخبرة الشخصية للمؤلفين وهي تدل على حكمتهم وفي بعض الأحيان على دهاءهم.
إن أقدم مؤلف لهذه التعاليم هو إمحوتيب، الوجيه الأكبر عند الملك جوسير. تأتي بعدها "تعاليم" ابن خوفو حورد جدف، أما أطول التعاليم فتعود إلى بتاحوتيب الوجيه عند الملك دجد كارد . على أية حال لقد عرفنا هذه التعاليم من خلال كتابات الأزمنة اللاحقة.

وصلت إلينا من المملكة القديمة وصوف كثيرة لنمط حياة وجهاء رفيعي المستوى عملوا عند الملوك (مينس، واشبتاح، حيرحوف، بتاحشبسس وآخرون)كتبت مع مراعاة التقاليد الفنية واحتوت على استشهادات من الوثائق الرسمية وبعض الإضافات الشعرية. أما في الأهرامات نفسها فيمكن أن نقرأ صلوات شعرية طويلة (يبلغ طولها أحيانا عشرات الأمتار) وتعويذات وأساطير وشعارات على شرف الحاكم، أقدمها يعود إلى زمن الملك أونيس.
إلا أن التطور اللامع للثقافة والحضارة في زمن المملكة القديمة كان يقع في تناقض حاد مع تطور العلاقات الاجتماعية الذي يجاريه.
أدت زيادة الإنتاج، الحملات الحربية ونظام الضرائب إلى تسريع عملية تبلور الطبقات المتباينة في المجتمع. من وجهة النظر التاريخية يعد ذلك تطورا في الواقع ولكن ما هو الطريق الذي أدى إلى ذلك؟.
تزايد عدد العبيد في البلاد على حساب الأسرى خلال حملات الفتح. لقد أجبروهم على العمل في أراضي الملك والكهنة والوجهاء. لقد فرض الملك ووجهاءه سيادتهم على الشعب المصري مستخدمين الوسائل الأيديولوجية التاريخية. وهكذا حرم الشعب شيئا فشيئا من حقوقه ولم يستطع إعادتها أبدا. خلال هذه الظروف لم

يكن من الغريب أبدا أن الملوك المصريين أجبروا مئات الآلاف من الناس على العمل في بناء الأهرامات بغض النظر عن كونهم أحرارا كانوا أم عبيدا. لم يكن الملك المصري طاغية فقط ، بل كان إلى جانب ذلك إله. تنص كتابات ذلك الوقت على أن الوجهاء يمنحون امتيازا خاصا إذا أعطوا الحق بتقبيل أرجل الملك "وليس الأرض تحت أقدامه". إن التناقض بين التركيز الهائل للسلطة والثروة في أيدي قمة المجتمع المصري وعامة الشعب المحروم من حقوقه لم يكن ليبقى دون تبعات، ذلك يؤكده انهيار المملكة القديمة. لقد بين التطور التاريخي اللاحق أن الحديث لم يكن فقط يدور حول الانحطاط السياسي لمصر، بل عن التفسخ الكامل لمجتمعها.

بعد اندثار المملكة القديمة هبطت على مصر ظلمات مدلهمة، حيث حكمها الملك حاوس بالإضافة إلى عدد غير معروف من الحكام الذين يعودون إلى أربع أسر مختلفة.

نهضت مصر من الظلمات (العصر الانتقالي) بعد مائتي عام طوال وذلك مع بداية الحقبة الثانية العظيمة في تاريخها-المملكة الوسطى (٢٠٧٠-١٧٩٠ ق.م). قام بتوحيد البلاد الملك منتوحوتيب مؤسس الأسرة السادسة بعد حرب دموية طويلة. إلى وقت قريب نسب المؤرخون هذا النجاح إلى ثلاث حكام مختلفين، ولكن من المحتمل أن تلك كانت عبارة عن أسماء مختلفة لمنتوحوتب، الذي سمي بها بشكل متسلسل مثبتا حكمه في المناطق التي فتحها الواحدة تلو الأخرى. بعده وصل إلى العرش اثنين عينهما بنفسه قاما بتثبيت دعائم قدرتهما، نظما عملية الحصول على مواد البناء من مقالع وادي الحمام وهكذا أحكما سيطرة مصر من جديد على سيناء والنوبة. خلال حكمهما ظهرت صناعة البرونز مما سمح بتحسين الأدوات الصناعية والزراعية والأسلحة. أصبحت مصر ثانية دولة عظمى وحسب ما يقال عن ذلك الزمان "حديقة خضراء مزهرة" ولأول مرة برقت أشعة المجد لحكم ملوك فيف الجدد في مصر العليا.

بغض النظر عن النجاحات التي حققوها انتهت فـترة حكـم منيتوحوتـب الأول والثاني والثالث بانتهاء هذه الأسرة. في حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م تقلد العرش القائد الحربي أمنمحيت (امنميس) الذي أسس الأسرة الحاكمة السابعة الجديدة. حكم هذا الأخير ١٣ سنة قبل أن يخلع بالقوة عن العرش.يختلف المؤرخون على أنه هـو السبب الذي أمن لمصر ازدهارا حقيقيا عن طريق الإنشاء الواسع لقنوات الـري واستصلاح أراضي زراعية جديدة. مع أن أمنمحيت كان قائدا بارعا إلا أنه أمتنع عن الفتوحات وعمل على تقوية حدود دولته، يحتمل أنه بسبب ذلك قتـل غـدرا (بمساعدة الحريم). بعد هذا الدرس أعطى خلفـاء أمنمحيـت انتباهـا خاصـا للفتوحات:

سينوسيرت الأول (سيسونخوسيس) احتل في النوبة مناجم ذهب جديدة. أمنمحيت الثاني (امينيميس) ضم إلى مصر فلسطين الحالية وجزءا من سوريا. سينوسيرت الثاني والثالث (سيسوستريس) أخضعا النوبة. وفقط امنمحيت الثـالث والرابـع (لاخاريس وامينيمس) لم يسجلا اسميهما في التاريخ كفاتحين، بل قامـا بأعمـال ري وبناء كبيرة. الحاكم الأخير من الأسرة السابعة كانت الملكة ســوبيكنيفرورا (سكميوفريس). الأربع سنوات التي حكمت خلالها كانت مقدمة لانحطاط جديـد. خلفت المملكة الوسطى وراءها نتاجات حضارية وثقافية من بينها البناء. قـامت أسرة منوحوتب بتزيين فيف بالمعابد والقصور إلا أنها جميعا أصبحت في الحطام أو هدمت بسبب إعادة البناء اللاحقة. من صروح منتوحوتب الأول بقيـت فقـط آثار لمعبد في منطقة دير البحرين حاليا (على الضفة اليسرى لنهر النيل مقـابل معبد الكرنك): هذا المعبد عبارة عن هرم غير كبير محاط بأعمدة مسقوفة تقـع خلفها فسحة نحتت في صخرة على شكل قوس محلى بأعمدة مع مقبرة تقع تحـت هذه الفسحة. من صروح سينوسيرت الأول بقي فقط بقايا معبد غير كبـير فـي الكرنك تم ترميمه من الخارج بشكل جميل عام ١٩٣٧-١٩٣٨ تحـت إشـراف المهندس المعماري أ. شيفريه.

قام حكام الأسرة السابعة ببناء مقر فخم وجديد للحكم غير بعيد عن ليشت الحالية في واحة الفيوم. لقد رأى هيرودوت المتاهة المحلية، التي قيَّمها عالياً أكثر من أي بناء في مصر واليونان. الآن أصبحنا لا نستطيع تحديد فيما إذ كان هذا الصرح قصراً مع دواوين للوجهاء أم معبداً، علماً أنه لم يتعرض إلى التدمير النهائي إلا في الحقبة الرومانية. يوجد بين الباحثين مناصرين لكلا الفرضيتين. كما يفترض أكثرية العلماء يتعلق اسم هذا الصرح باسم امِنمحيت الثالث، الذي يسمى باليونانية لاخارس. حسب فهم هيرودوت يتعلق اسم هذا الصرح باسم متاهة مشابهة مشهورة في جزيرة كريت وهي متاهة مينوس.في جوار العاصمة الجديدة أمر حكام الأسرة السابعة ببناء أهرامات خاصة بهم. يقع حطام هذه الأهرامات بالقرب من القرى الحالية التالية: ليشت، اللاحون، داشور، حواره ومسكونه.

يوجد تسع أهرامات علماً أن حكام هذه الأسرة ثمانية فقط، لكن أمنمحيت الثالث أمر ببناء هرمين (في الحواره والداشور). كانت تلك الأهرامات مبنية من القرميد وهي أصغر بكثير من أهرامات الأسرة الرابعة في الجيزة. لقد استمر الفن التعبيري في المملكة الوسطى كما كان عليه في المملكة القديمة، إلا أن الطابع المميز لهذه الحقبة كان إدراك حتمية انتهاء العالم الذي اعتبر سابقاً أبدياً وغير متغير. وجدت من هذه الحقبة تماثيل منتوحوتيب الأول، سينوسيرت الأول والثاني والثالث وامنمحيت الثالث بالإضافة إلى تماثيل أخرى كثيرة (أغلبها موجودة في متحف مصر بالقاهرة). مع أن هؤلاء الملوك ممثلين في وضعية الحكام القادرين إلا أنه ظهرت على وجوههم علائم لم تكن على التماثيل التي سبقتها فقد بدت عليهم علائم أناس مهتمين ومتجهمين. لقد حلت الواقعية مكان المثالية الرسمية. لم تَعُدْ التماثيل تُعدُّ معيبة إذا كانت تصور الحكام بآذان كبيرة أو ثياب عادية. مقارنة بالأسلوب الفني السابق، توجد نقوش جداريه تمثل الأسلوب وطريقة الحياة في هذه الحقبة، لذلك يمكن القولَ أنه ولد نموذج فني جديد أضاف إلى دقة

التعبير التقليدية نضارة في الألوان. كما أنهم توصلوا إلى مستوى رفيع في سك الذهب وتشغيل المجوهرات: الكنوز المستخرجة من مقبرة توت عنخ آمون وكنوز الداشور واللاحونه تعطي الانطباع عن أناقة هذا الفن.

ولكن من أكثر شواهد المملكة الوسطى-النصوص التي بقيت خالدة على ورق البردي. لأول مرة هنا نلتقي مع مؤلفات علمية في الرياضيات، وهذا يبرهن على أن المصريين في ذلك الزمن (وأيضا قبل ذلك دون شك) عرفوا نظام العد العشري، الكسور، طرق حساب المساحات والحجوم، سطح الكرة، حل معادلات بسيطة، علاقة حساب جذع الهرم ذو القاعدة المربعة. من أشهر أوراق البردي في هذا المجال "ورقة ريند" (العائدة إلى القرن السابع عشر قبل الميلاد والموجودة في لندن) و"ورقة موسكو" (العائدة إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد). توجد أيضا أوراق بردي طبية توضح المعرفة الواسعة للمصريين القدماء بالجراحة والعلاج بالعصارات النباتية (وفي الوقت نفسه العلاج بالتعويذات السحرية) مثلا "ورقة شميت" (حاليا في نيويورك) و"ورقة ايبرس" (حاليا في برلين). بعد ذلك تأتي أوراق البردي التي توضح مخططات المناجم والقلاع إلخ.

هناك مجموعة مميزة من هذه الأوراق تحتوي على "قائمة بالكلمات" تحصي "تسميات جميع الأشياء الهامة في السماء وعلى الأرض والماء".

يختلف الأدب الفني للمملكة الوسطى عن الفن السابق واللاحق. يتعرض هذا الأدب لفقدان الإيمان السابق بثبات وحتمية التنظيم الإجتماعي، الخبرة الحياتية المستقاه من فترة إنهيار الدولة، ويبين عدم جدوى وجود الإنسان، إمكانية وضرورة الصراع مع القدر وحتمية المعاناة. لقد أصبح الأدب أكثر واقعية وإنسانية وكثيرا ما طغت عليه صبغة التشاؤم. إلى هذا الأدب تنتمي "التعاليم" التقليدية والوصوفات الحياتية والفنون الأدبية الجديدة التي تعتبر من أهمها الأساطير والقصص عن الرحلات (مثل القصة المشهورة عن مغامرات سينوحيت) و"خطابات" مختلفة و"نبوءات". العديد من المؤلفات المحفوظة يسمح

بإلقاء نظرة ليس فقط على روح الإنسان آنذاك، بـــل وعلـــى عـــالم العلاقـــات الاجتماعية لديهم المجسدة بقوة فنية وتعبيرية دقيقة.

إحدى هذه الخطابات (زمن كتابتها ومؤلفها لم يحددان إلى الآن ولكـــن الحديـــث يروى بلسان أحد الوجهاء وأسمه ايبو فير) تلقي الضوء على وضع مصر بعـــد سقوط المملكة الوسطى عندما حكمت البلاد الدماء والفوضى بدل الحاكم الواحـد. يقول هذا الخطاب:

"في الحقيقة لقد قلبت البلاد وخربت كما يمر مشط الوصيفة في الشـــعر... فـــي الحقيقة أصبح الأغنياء يشتكون والفقراء يسعدون، في كل مدينة تســـمع صـــوت عال يقول: " اطردوا القادرين من بين أهلهم " في الحقيقة أصبحت لا تعرف أبناء الجنس النبيل. أطفال وزوجة النبيل ليسوا في وضع أفضل من ابن العبده السابقة. في الحقيقة أصبحت السيدات النبيلات الآن جاثيات على ركبهن كالخادمات يطحن الحبوب. تلك اللواتي كن يلبسن الأقمشة الرقيقة أصبحن الآن يضربن على أيـــة هفوة صغيرة... الآن لا نستطيع إزعاج الخادمة في حين تدعى السيدات النبيـلات إلى العبودية ... في الحقيقة رميت صكوك العبودية وفتحت الملفات الســـرية ... في الحقيقة خلعت دواوين الخدمات وسرقت منها اللوائح، لذلك يستطيع العبيد من الآن أن يصبحوا أسيادا. في الحقيقة قتل الوجهاء وسرقت منهم صكوك العبودية، في الحقيقة رميت كتب القانون وأغرقها الناس عند أطـــراف المدينـــة والفقـــراء الغاضبون يمزقوها على الطرقات كالمماسح. في الحقيقة لقد شمخ الفقراء.

انظروا لقد حدثت أمور لم تحدث من قبل في الأزمنة القديمة. لم يحدث أن خلـــع حاكم من قبل أناس بسطاء! انظروا كيف دفن الحاكم، لقد رمي التابوت: انظـــروا كان مخفيا في الهرم وأصبح الآن ممددا تحت السماء، انظروا إلى سر الأســـرار كيف هتك، لم تمتد الحدود إلى اللانهاية قط كما هو الآن (المقصـــود أن النـــاس تجاوزا حدودهم كثيرا) اليوم فراغ حقيقي:

تحطمت سكينة الملك خلال ساعة واحدة ...".

الآسيويون الذين احتلوا مصر بعد انهيار المملكة الوسطى كانوا عبارة عن مجموعة من القبائل التي كانت معظمها قبائل سامية أساسها العموريون والكنعانيون.

أطلق عليهم مانيفون اسم "الهيكسوس" وترجمها "الحكام الرعاة". التسمية المصرية الأولية لهم تعني "حكام المناطق الجبلية والصحراوية". لقد توغلوا في البلاد التي أضعفتها النزاعات والعصيانات وبعد قتال ملوك الأسرتين الثامنة والرابعة عشر (نعرف منهم حنجير، الذي بنى آخر هرم) أخضعوا البلاد لسيطرتهم.

حسب أخبار مانيفون التي نقلها عن يوسف فلافي كان الهجوم على المصريين صاعقاً إلى درجة أنهم لم يقاوموا أبداً وسلّموا ممفيس دون قتال.

تربع زعماء المحتلين على العرش المصري لأكثر من مائة عام–وهي أسر "الهكسوس" الخامسة عشر والسادسة عشر. لم يستطع الوقوف في وجه الاحتلال الهكسوسي الذي يعتبر كارثة على مصر سوى حكام مصر العليا في فيف الذين ينتمون إلى الأسرة السابعة عشر. تقريباً في أواسط القرن السادس عشر قبل الميلاد تمكن الملك كاموس من تنظيم عصيان مالبث أن تصاعد إلى حرب تحريرية. تابع الكفاح بعد ياحموس الأول "أموسيس" الذي استطاع عام ١٥٨٠ ق.م طرد الهكسوس وتوحيد مصر من جديد وأسس الأسرة الثامنة عشر. كان ذلك نهاية العصر الانتقالي الثاني وبداية المملكة الجديدة.

استمرت المملكة الجديدة حوالي ٥٠٠ سنة (تقريباً من عام ١٥٨٠إلى عام ١٠٩٠ ق.م) وكانت من أكثر حقب التاريخ المصري القديم ازدهاراً من النواحي الاقتصادية والثقافية. امتدت حدود الدولة المصرية من ليبيا حتى سوريا وإلى الجنوب حيث ضُمَّ جزء من النوبة السودانية حالياً. لقد امتد الملوك المصريين على بابل وآشور. زادت في البلاد قوى الإنتاج بشكل كبير، مدّت حرب الفتوحات البلاد بسيل من العبيد، زادت مساحة الحقول والحدائق بعد شق قنوات ري جديدة، تم تطوير المحراث واستُخْدِمَ البرونز على نطاق واسع.

إن المنشآت الملكية من حيث حجم العمل والوسائط المستهلكة لم تكـــن تنافســـها كبريات الأهرامات بل أفاقتها كإنتاج فني وإبداعي . لقد وصل فـــن التصويـــر، النحت والكتابة إلى قمم جديدة.

تسلح ياحموس الأول بأقوى سلاح هكسوسي–الا وهو العربات القتالية–وبتطويـــر هذا النوع من القوات تفوق عليهم. كما قاد عمليات نشيطة في إصـــلاح وترميـــم الاقتصاد والجهاز الإداري الحكومي.

بنتيجة الحروب التي قادها ياحموس الأول وسع حدود مملكته حتى سوريا وبســط السيادة المصرية على شمال النوبة. خلفه امنحوتيب الأول (امنوفيس) الذي وطــد هذه المكاسب، ومن ثم تابع الفتوحات ابنه تحوتموس الأول (توتموسيس)، الـــذي وصل إلى أعالي الفرات، أما تحوتموس الثاني فكان عليه إخماد العصيانات فـــي المناطق المحتلة وفي مصر نفسها وقد استطاع في النهاية أن ينهيها.

بعده وصلت إلى العرش زوجته حاتشبسوت الوصية على أبنها تحوتمس الثـــالث من زوجة أخرى. لم تنظم الملكة حملات عسكربة بل تجارية (إحداها إلى "البلاد السمراء" البعيدة وهي على الأغلب الصومال). حكم تحوتموس الثالث ٢٢عامـــاً شكلياً إذ شاركته الحكم حاتشبسوت ولكن بعد مماتها بدأ يحكم منفرداً ووضع حـداً لفترة الراحة المنصرمة–لقد أصبح الفاتح الأكبر على مر التـــاريخ. فـــي زمـــن تحوتموس الثالث وصلت مساحة المملكة المصرية إلى الحدود القصوى–من ليبيـا وحتى الفرات الأعلى وإلى الجنوب حتى العتبة الرابعة لنـــهر النيـــل. اســـتطاع خلفاؤه امنحوتيب الثاني والثالث الحفاظ على هذه المكاسب علماً أنه كان يتـــهددها خطرين من دولتين جبارتين الحثية والميتانية. توصل تحوتموس الرابع إلى اتفاق مع الميتانيين، حيث تزوج بابنة ملكهم ومع الحثيين عقد امنحوتيب الثالث اتفاقيـــة سلام. في المرحلة التي وصلت فيها مصر إلى القمة من حيث الجبروت نشـــئت فيها أزمة داخلية.

أعتمد كهنة الرب آمون الفيفيون على نفوذهم وأموالهم المتنامية في إنشاء دولـــة داخل دولة ودخلوا في نزاع مع امنحوتيب الرابع (حوالـــي عـــام ١٤٠٠ ق.م).

خلال صراعه من أجل السيادة السياسية على كامل البلاد استطاع الملك كسر شوكة الكهنة وحرَّمَ عبادة آمون وأدخل مكانه عبادة الرب آتون الذي يرمز له "بقرص الشمس"، كما توقف تقديم الأضاحي في المعابد على شرف الآلهة القديمة. بعد ذلك قام امنحوتيب الرابع "آمون الراضي" بتغيير اسمه إلى اخناتون "المفيد لآتون" وانتقل إلى عاصمة جديدة اختياتون (بين فيف وممفيس، حالياً قرب قرية التيل المعروفة بتسميتها الشعبية العمارنه). لكن كهنة الرب آمون لم يتوقفوا. يمكن معرفة الوسائل التي اتبعوها في كفاحهم من خلال مصائر الملوك آنذاك. نحن لا نعرف أي شيء بدقة، ولكن اخناتون قتل على الأغلب بمؤامرة من داخل القصر وبعد سنتين قتل خلفه في أوضاع مثيرة الريبة.

بعده وصل إلى العرش الشاب توت عنخ آمون، الذي قام بتغيير اسمه وانتقل من إختاتون إلى فيف، إلا أنه ما لبث أن توفي وهو شاباً. بعده مباشرة توفي بشكل مريب خلفه إيبيه.

ما بقي من إصلاحات اخناتون قضى عليه الملك الأخير من الأسرة الثامنة عشر، المقرب من أخناتون ومن بعده النصير المتحمس لكهنة الرب آمون القائد الحربي الأعلى حورمحيب.

ملوك الأسرة التاسعة عشر (الذين حكموا في الفترة ١٣١٤-١٢٠٠ ق.م) أتوا كما يعتقد من مدينة جانيت (تاينس) الواقعة في مصر العليا. الأول منهم اختاره حورمحيب خلفاً له.

لقد كان رمسيس الأول (رمسيسس) مقاتلاً خبيراً ومنظِّماً جيداً. لقد كانت البلد التي أصبحت ضعيفة محتاجة إلى مثل هذا الحاكم بالذات، لكنه كان قد أصبح كهلاً وتوفي بعد سنتين . مع ذلك حقق خلفه سيتي الأول (سيتوس) كل ما علق عليه من آمال: لقد قطع هجوم الليبيين وبعد أربع حملات على الشمال أوقف زحف الحثيين. بعد أن استقرت الأوضاع أصبح يحكم البلاد بشكل مشترك مع ابنه، الذي تقلد العرش تحت اسم رمسيس الثاني وحكم مدة ٦٦ عاماً. لقد أعطى حسب التقاليد لقب "العظيم" مع أن حملاته لم تتوج جميعها بالنجاح (على سبيل

المثال المعركة الواقعة قرب قادش، التي تكلمنا عنها سابقاً) ولم تكن كل الصروح المنسوبة إليه جميعها من صنع يديه (على كثير من هذه الصروح أمر بإزالة أسماء البناة ووضع اسمه). على الرغم من ذلك يظل الواقع واقعاً. لقد خضعت له مساحة هائلة–من سوريا حتى ليبيا وجنوباً حتى العتبة الرابعة لنهر النيل. لقد بنى معابد ومدناً أكثر من أي حاكم سبقه (كان لديه على ما يبدو ست زوجات و ١١١ ولداً).

جميع الحكام الذين وصلوا إلى العرش لم يكونوا عظماء مثله. صحيح أن خلفه مير نيبتاح أحرز نصراً على ليبيا وعلى "شعوب البحر" الذين هددوا الدلتا وأسر منهم مجموعات كبيرة، إلا أن الملوك اللاحقين تاهوا في ضباب الأحداث المتقطعة: سيتي الثاني، أمِنميس، سابتاح. آخر ملوك هذه الأسرة كانت الملكة تار اوسيرت (توسريس).

الأسرة العشرون التي حكمت بين عامي (١٢٠٠–١٠٨٥ ق.م) اسسها سيناح الذي حكم لفترة قصيرة لكنه استطاع أن يعلن عن نفسه: "لقد أعدت النظام إلى البلاد التي مزقتها الخلافات سابقاً... لقد نظفت عرش مصر العظيم"، خلفه رمسيس الثالث الذي استطاع أن يصمد في وجه هجوم جديد "لشعوب البحر" لكنه لم يستطيع المحافظة على السلام داخِل البلد.

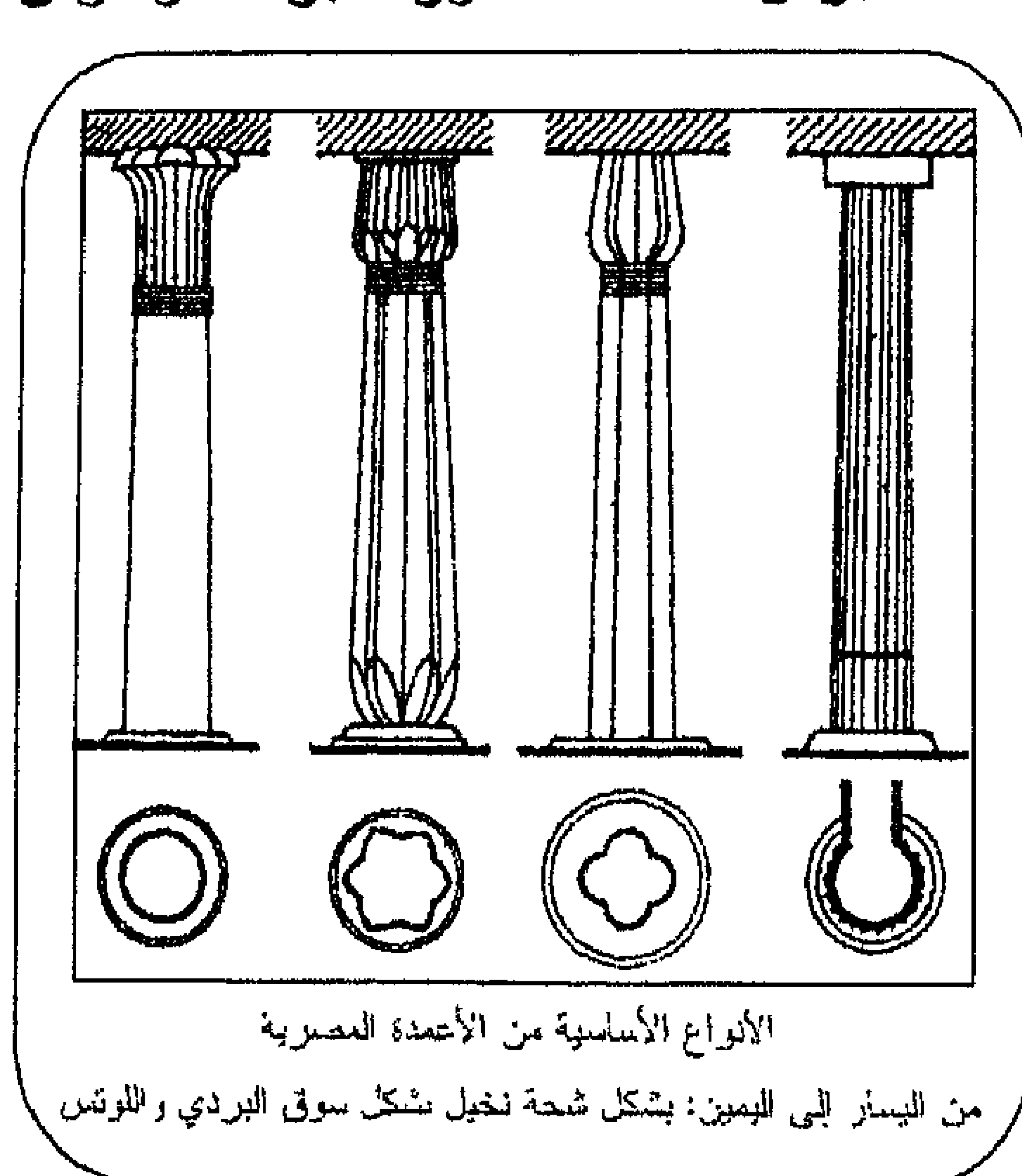
إذ تمرد الشعب المحروم، وحيكت الدسائس في القصر من قبل الكهنة والمقربين وقُتل الملك في النهاية على يد سيدات من الحريم. في العام التاسع والعشرين لحكمه حدث أول واشهر إضراب في التاريخ.

الحرفيون العاملون في مدفن مدينة فيف وهم بشكل أساسي من الحجارين والنجارين اتفقوا فيما بينهم وتركوا العمل "تغلبوا على خمسة أسوار حجرية" تفصلهم عن مساكن السادة وتجمعوا أمام المعبد، الذي اختبئ فيه الموالون الخائفون وطالبوا الملك بالعدالة: "لم نأكل منذ ١٨ يوماً لقد أوصلنا إلى هنا الجوع والعطش، ليس لدينا ثياباً، لا يوجد سمك ولا يوجد خضار... في الحقيقة يمارس علينا الظلم في هذه الأماكن المقدسة". (من المحتمل أن ذلك لم يكن الحدث الوحيد

من هذا النوع ويمكننا أن نتصور تماما ما ينتظر هؤلاء الحرفين في مثل هذه الحالات. ليست لدينا سوى معطيات غير مباشرة عن ذلك ، وبشكل رئيسي من وصف الحالة الحياتية لأنصار النظام في ذلك الوقت والذين يفتخرون: "لقد أدخلت الرعب في الحشود ... أجبرت العاصين على الندم... أخضعت الذين لم يطيعوا..."). معلوماتنا قليلة جدا عن الحكام اللاحقين من هذه السلالة. ما نعلمه أنهم جميعا حملوا اسم رمسيس وأنه خلال حكم كل منهم هزت مصر حركات التمرد والعصيان في الأراضي المحتلة وهجوم الأعداء والإنشقاقات داخل القصر الملكي. أجبر الحاكم الأخير من الأسرة العشرين رمسيس السادس على قبول كتابة اسم الكاهن الأعظم حير يحور في القائمة الملكية بالتالي يصبح خليفة الملك رمسيس على العرش ابن هذا الكاهن.

لقد تلاشت الأسرة العشرون كما يتلاشى ضباب المساء فوق النيل وحلت محلها مملكة جديدة.

لم يبن ملوك المملكة الجديدة أهرامات، لقد تم دفنهم في مقابر تحت أرضية في منطقة وادي الملوك في الجزء الغربي من فيف. حاليا تعرفنا على ٦٢ مقبرة ولكن قسم منها يعود إلى أقارب الملك والوجهاء (ولم تدفن هناك الملكات، بل إلى الجنوب في وادي الملكات). بعض هذه المقابر واسعة كالقصور:مقبرة تحوتموس الثالث مؤلفة من ٩ غرف، مقبرة امنحوتيب الثاني من ١٠ غرف، وفي مقبرة رمسيس الثاني أكثر من ٢٠ غرفة، في مقبرة رمسيس الثالث ٢٢ غرفة، طول ممرات مقبرة الملكة حاتشيبسوت أكثر من ٢٠٠ م، أكبر مقبرة هي لسيتي الأول وفيها ٦ سلالم، أربع قاعات بأعمدة، ١٦ غرفة وعدة مئات من



الأنواع الأساسية من الأعمدة المصرية
من اليسار إلى اليمين: بشكل شجرة نخيل بشكل سوق البردي واللوتس

الأمتار المربعة من الجدران المزينة بالنقوش. هذه المقابر مكافئة للأهرامات بالفعل من حيث كونها نتاج الأيدي الإنسانية.

مقبرة توت عنخ آمون المشهورة–نسبيا غير كبيرة ومتواضعة ولكن لم تعبث بها أيدي اللصوص القدماء (لقد دخل اللصوص إلى عمق المقبرة ولكن من البديهي أن شيئا ما أخافهم). عدا ممر الدخول القصير تحتوي هذه المقبرة على أربع غرف زينت جدران إحداها وهي غرفة الدفن جزئيا بالكتابات . أما الكنوز التي كانت في هذه المقبرة فأول من أكتشفها هو فارد كاتير وهي محفوظة في القاهرة (باستثناء تابوت مطلي بالذهب مع مومياء أعيد إلى حيث وجد بأمر من الحكومة المصرية). هذه الكنوز تحتل في المتحف المصري مكانا أكبر من باقي الآثار التي وجدت والعائدة إلى حقبة المملكة الحديثة. من بين هذه الكنوز–تماثيل ذهبية وأخرى مذهبة، كم هائل من المجوهرات، شعارات الحكم الملكي، أوعية من رخام الألبستر الفاخر، أسلحة مرصعة بالمجوهرات الثمينة، كنبايات ملكية وعلب ضيافة فخمة مرصعة بالجواهر، أقنعة ملكية ذهبية ومذهبة ... إلخ.

إن كل من هذه القطع ينطوي على قيمة عالية جدا. إن قيمتها المادية التي لا تقارن أبدا مع القيمة الفنية والتاريخية هائلة: وزن الذهب الذي وجد في هذه المقبرة بلغ ١,٢ طن علما أن توت عنخ آمون كما نعرف كان حاكما عاديا. إذا ما هي الكنوز التي كانت في مقابر الحكام الأقوياء المشهورين مثل سيتي الأول أو رمسيس الثاني ؟ أو خوفو، خفرع ومنقرع؟.

لقد كانت مقابر فراعنة المملكة الحديثة كما هو مفترض مخفية عن عيون الناس (وخاصة ذوات الأيدي الطويلة) ومموهة بشكل ممتاز. وهذا هو سبب بناء المعابد الخاصة بتحضير قداس هؤلاء الملوك منفصلة ولكن غير بعيدة عن أماكن الدفن.

عند حدود مدفن مدينة فيف وتحت صخرة منقسمة بالقرب من دير البحري حاليا أمرت الملكة حاتشيبسوت ببناء معبد لتحضير قداسها قبل الدفن. أنشأ المعماري سينوت هذا المعبد على ثلاثة مصاطب اصطناعية. على واجهته صفين من الأعمدة تدهش الزوار بحداثتها (قام بتجديدها علماء الآثار البولونيون). أكبر معبد

من هذا النوع أمر ببناءه رمسيس الثاني وبقاياه مازالت موجودة حتى الآن. كان هذا المعبد أكبر بمرتين من معبد سيتي الأول ورمسيس الثالث. توجد حتى هذا الحين العشرات من الأعمدة الهائلة،

وفي وسط الساحة التي تشكلها هذه الأعمدة يوجد تمثال ممدد مكسور لرمسيس يصل ارتفاعه إلى سبعة عشر مترا أما وزنه فيبلغ أكثر من مائة وعشرة أطنان.

من أكثر هذه المعابد جمالا هي تلك التي حفظت بشكل جيد والقائمة في الجزء الشرقي من مدينة فيف البائدة–في الأقصر والكرنك.

بني معبد الأقصر خلال حكم امنحوتيب الثالث ورمسيس الثاني، وهو يتألف من فسحتين محاطتين بأعمدة ومتصلتين بصف من الأعمدة الكبيرة بالإضافة إلى بناء مسقوف فيه مجموعة من الغرف وأماكن للعبادة. بغض النظر عن أبعاده الهائلة فقد بقي دائما في ظل معبد الكرنك. كان يحتفل فيه فقط بعيد رأس السنة كان معبد الكرنك حقيقة "مدينة للآلهة" أستغرق بناءه ألفي عام:ظهرت أوائل صروحه في زمن المملكة الوسطى وآخرها في زمن أسرة بتومي الحاكمة، وأضخمها في زمن تحوتموس الثالث ورمسيس الثاني، حتى أن الأباطرة الرومان كان لهم نصيبا في تزينيه. يوجد في هذا المجمع معابد الرب آمون وزوجته موت وابنيهما حونس وأيضا معابد الرب مونت والربة معات والرب بتاح وآخرون. لقد تعرض هذا المجمع على مر السنين إلى التدمير ولكن اتخذت في الوقت الحالي الإجراءات الكفيلة بحمايته.

أول نخاس بني فيه يذكرنا بجدار القلعة. يصل عرضه إلى ١١٣م وارتفاعه ٤٣ إلى م وسماكته ١٥م . يؤدي إليه طريق يوجد على جانبيه ٢٤ تمثالا لأبي الهول ولكن برؤوس خراف: تمتد خلفها فسحة مع معابد لسيتس الثاني ورمسيس الثالث وصفوف من الأعمدة، تماثيل لأبي الهول وتمثال هائل لرمسيس الثاني على هيئة أوسيريس. خلف النخاس الثاني يوجد مشهد ليس له مثيل على وجه البسيطة– غابة حجرية تحتوي على ١٣٢ عمودا تنتصب على مساحة تتسع ل ٩٠٠ سيارة.

مجموع النخاسات في هذا المجمع عشرة أمام وخلف كل منها توجد معـــابد ذات مداخل فرعية وقاعات بأعمدة، طرقات على جانبيها تماثيل لأبي الهول وصفـوف من التماثيل متساوية الارتفاع، جدران مهدمة وغير مهدمة نقشت عليها كتابـــات هيروغليفية طول الإشارة الواحدة منها أكثر من متر، ومثل هذه الإشارات أكـــثر من ٢٥٠٠٠٠. كل شيء هنا هائل الضخامة: مسلة الملكة حاتشبسوت أكبر مسلة في العالم، البحيرة المقدسة تشغل مساحة ملعب كرة قـــدم، الجعـل الغرانيتـي لأمنحوتيب الثالث يزن مع قاعدته ٥ طن.

مقارنة بمعبد آمون يبدو معبد مونت ومعبد موت كالكنيسة القروية الصغيرة أمـام مجمع كنسي.

ومع ذلك فإن كلا من هذين المعبدين يشغل مساحة أكبر مـــن مســاحة المجمـع الكنسي في براتيسلافا وكوشتيسكلي مع بعضهما.

بعد مشاهدة معبد الكرنك يمكننا التوجه لرؤية صروح تاريخيـــة أخــرى: معبـد وقصر رمسيس الثالث في مدينة آبو (على الضفة الغربية لنـــهر النيـل مقـابل الأقصر)، معبد سيتي الأول ذو النقوش المشهورة في ابيدوس القديمـــة (الواقعــة على مسافة ١٥٠ كم إلى الشمال من الأقصر) ، المعبد الصخري لرمسيس الثاني في أبو سمبل (٢٨٠ كم جنوب أسوان) ، الذي فكك عام ١٩٦٣-١٩٦٨م إلـــى كتل ونقل إلى ضفة بحيرة ناصر، المشكلة بعد بناء السد العالي في أسوان. فـــي أي مكان نلاحظ ميلا شديدا للملوك المصريين القدماء إلى الأبعاد العملاقة.

ليست العملقة الميزة الوحيدة في عمارة ومنحوتات المملكة الحديثـــة. إن أعظـم المنحوتات الفنية هي تلك المتسمة بالإنسانية والتي أصبحت أقرب إلى الحياة.

يظهر ذلك من التمثال النصفي لحاتشبسوت ، التي تبدو بنفس الوقت ملكة وامرأة لم تغير قسماتها الدقيقة المسحة الملكية. أيضا في تمثال تحوتموس الثالث المشكل برقبة قصيرة جدا وأنف طويل (وهو الواقع كما أكدته دراسة الموميـــاء العــائدة له)، كما أن تمثال الملكة تيي زوجة امنحوتيب الثالث يخلد غطرستها وعنجهيتها.

لقد سرعت إصلاحات اخناتون التطور الإيجابي، إذ أنها حررت الفن من كثـــير

من قيود الماضي. في هذه المرحلة بالذات وصل فن النحت المصري إلى أكبر واقعية وصدق. لم يخف النحاتون من تمثيل اخناتون على شكل إنسان بوجه بشع وبطن مترهل، وإذ مثلوا زوجته نفرتيتي على أنها أجمل امرأة فإنهم لم يمالقوها.
لقد كانت المملكة الحديثة حديثة بأدبها وعلمها وفنها. تؤكد اوراق البردي الطبية على توسع المعارف والخبرة العلمية خاصة في الجراحة. تبين هذه النصوص أن المصريين عرفوا وسائل فعالة جدا ضد التقرحات، إلا أن هذه النصوص لم تكن معزولة عن التناقضات بين الطب العقلاني والسحري:
لقد كان الطبيب هنا عالما بالغيب ومنجما. ظهرت أعمال جديدة في الرياضيات وتعاليم جديدة "تدعوا إلى وضوح التفكير، إعطاء المعارف إلى غير المطلع وتعليمه كل ما يوجد على وجه البسيطة". تعود آخر هذه التعاليم إلى زمن رمسيس السادس. وصلت الأساطير التقليدية واليوميات والقصص القصيرة عن الملوك والوجهاء إلى مستوى أدبي وفني عال. أما الشعر فقد أغنته الأناشيد الدينية التي يترنمون بها على شرف الآلهة (منها "نشيد الشمس" العظيم لاخناتون الذي يبلغ أكثر من مائة سطر) والخرافات والأغاني الشعبية (القديمة والحديثة). وصلت إلينا من زمن الأسرة التاسعة عشر أولى الأشعار الوجدانية التي بدونها لما كان الشعر شعرا. هناك العديد من الكتابات الملكية التي يمكن ردها إلى النتاج الأدبي وقد اعتبرت بنفس الوقت وثائق تاريخية لكنها مكتوبة مثل الأناشيد، علما أن بعضها يفهم في الوقت الحاضر على أنها قصص فيها روح الدعابة.
"لقد تم توسيع الحدود المصرية" يكتب أحد الرمسيسات الذي كان يفقد في الحرب مساحة بعد أخرى – "كانت المستوطنات مليئة بالحبوب" يكتب رمسيس آخر حدث خلال فترة حكمه هذا تمرد شعبي بسبب الجوع. "منشأ الهي" و "الوارث القانوني للعرش الأرضين" يفتخر جميع الملوك وأكثرهم افتخارا من اغتصب كرسي العرش. إضافة إلى ذلك ينصب الجميع أنفسهم آلهة ويعدون الناس بأن يحكموهم إلى الأبد. تعتبر قصيدة بينتاور قمة شعر المديح وهي عبارة عن أغان تمجد انتصار رمسيس الثاني على قادش،لم يوجد حكاما على وجه الأرض خلفوا

وراءهم نصبا تذكارية عملاقة أكبر من هذه أو أجبروا الشعراء علـــى قرضـــهم مديح مهيب وجليل. ذلك "الغرور الفارغ" للملوك وصل إلى أوجـــه فـــي حقبـــة المملكة الحديثة.

ضاعت أخبار آخر السلالة العشرين في متاهات التاريخ حتى أنه لم يبقى شـاهدا واحد يدل على كيفية حدوث ذلك.

منح رمسيس اللقب الملكي لحيريحوي الكاهن الأعلى للرب آمون والذي أســـس أسرة "الكهنة الملوك" لكن مانيفون لسبب ما لم يعترف بهذه الأسرة الحاكمة.

برأيه أن الأسرة الحاكمة الإحدى والعشرون "مؤلفة من سبعة ملوك من تـــانيس" حكموا مصر السفلى فقط الأسرة الثانية والعشرون أسسها في منتصـــف القـــرن العاشر قبل الميلاد الحاكم الليبي الأصل شيشونك الأول(حسب التوراة-سوســاكيم فاتح أورشليم) الذي أختار مقره في مدينة بوباستيس حاليا في الدلتا بالقرب مـــن الزقازيق. لقد استطاع أن يجعل من أبيه الكاهن الأعلى للرب آمون فـــي فيـــف وبذلك وحد مصر لفترة من الزمن، لكن خلفاء شيشونك الأول-ملوك الأسر الثانية والعشرون والثالثة والعشرون والرابعة والعشرون كانوا ضعافا وغير كثر.

نتيجة للحروب انهارت مصر وفي نهاية القرن الثامن قبل الميلاد أصبحت لقمـــة سائغة في يد ملك النوبة بيانجي-كان مقره مدينة ناباتا (قرب عتبة النيل الرابعـــة غير بعيدة عن ميروية الحالية في السودان). قام خلفه شاباك بتأســـيس الأســـرة الحاكمه الخامسة والعشرين التي سماها اليونان "الاسرة الإثيوبية" (من الترجمـــة اليونانية للنوبة).

إن نهضة مصر خلال حكم الأسرة النوبية التي شبت على الثقافة المصريـــة تـــم إيقافها من قبل الآشوريين الذين فتحوا مصر عام ٦٧٠ قبل الميلاد. توجد شـــهادة للملك الآشوري أسرحادون يقول فيها أنه خلال هجومه الثاني "خلال نصف يـــوم دمرت وسطوت" على ممفيس، بعد ذلك حطم ابنه آشور بنيبعل الملـــك الأثيوبـــي تحاركي وفي عام ٦٦٧ ق.م احتل فيف. في مدينة ساي (باليونانية سايس قـــرب قرية سل الحجر حاليا) حافظ الملك نيخو الأول على بعض الاستقلالية متظـــاهرا

بالخضوع للآشوريين. لقد جهز الظروف الضرورية لهزيمة ملكهم. ابنه بساميتيح الأول في عام ٦٦٣ ق.م استغل الصعوبات الداخلية القائمة في آشوريا وأعاد لمصر استقلالها.

قام بتأسيس الأسرة الحاكمة السادسة والعشرين التي تألفت من خلفاءه نيخو الثاني، بساميتيح الثاني واحيبرا (آبري)، ياحموس الثاني (أماسيس) وبساميتيح الثالث. وهكذا بعد الحكام الغرباء وصل إلى الحكم ثانية ملوك من أصل مصري.

لقد حكموا بروح التقاليد المصرية، اهتموا بالزراعة شجعوا تطوير التجارة وصناعة السفن، أنشؤوا جيشا وعادوا إلى السياسة الخارجية النشطة. أمر نيخو الثاني بشق قناة بين البحر الأحمر ونهر النيل، بأمره قام التجار الفينيقيون بالدوران حول أفريقيا، قام بساميتيح الثاني بتقوية الجيش بفرقة من المرتزقة اليونانيون، عقد ياحموس الثاني اتحادا مع الملك اليوناني بوليقراط من جزيرة ساموس قدم بموجبه امتيازا للتجار اليونانيين القاطنين في نافكراتيس. حكم ملوك هذه الأسرة حوالي ١٤٠ سنة وقد أطلق المؤرخون على هذه الحقبة "عصر النهضة الساسية (نسبة لمدينة ساي) " (٦٦٣-٥٢٥ ق.م).

لقد نهضت الحقبة الساسية بالإبداع الفني أيضا. في السعي الدؤوب للتغلب على فترة الركود التي حلت خلال حكم الملوك الغرباء للأراضي المصرية عاد الحرفيون المهرة إلى التقاليد الوطنية وبالذات إلى الإرث الفني للمملكة القديمة. تشهد تماثيل هذه الفترة على المحاولات الناجحة للتغلب على المحاكاة البسيطة للنماذج: ونفس الأمر بالنسبة لفن النقش البارز والرسم.

هناك نهضة جديدة بالكتابة، إذ أنه في هذه الحقبة بالذات نشأت إلى جانب الكتابتين الهيروغليفية والهيراتية كتابة جديدة-الديموتية. وصلتنا مجموعة من الوثائق الرسمية والإنتاج الفني الأدبي (حتى القصص التاريخية) مكتوبة على ورق البردي بالديموتية.

لقد أعطى الملوك الساسيون اهتماما خاصا لترميم النصب المعمارية القديمة وبالدرجة الأولى أهرامات الجيزة وصقارى. غالبا ما تقارن النهضة الساسية مع

النهضة الأوربية مع وجود فارق: أن هذه النهضة لم تصبح نقطة انطلاق لإشعاع حضاري جديد، بل نقطة النهاية.

في عام ٥٢٥ ق.م دخل مصر على رأس جيش هائل الملك الفارسي قمبيز بعد أن اكتسح الشرق الأوسط بالكامل تقريبا. في المعركة التي حدثت قرب بيلوسي (فرامة حاليا) في الدلتا هزم الملك بساميتيح الثالث، ثم أحتل ممفيس مباشرة. أخذ قمبيز لقب فرعون وأصبحت مصر مسرحا للطغاة الفرس. الملوك الفارسيون، الذين شكلوا الأسرة الحاكمة السابعة والعشرين حسب ترتيب مانيفون سرقوا مصر بلا رحمة. لقد دافع المصريون عن أنفسهم، ولكن جميع عصياناتهم وتمردهم سحقت بشدة من قبل الفرس. لقد أغرقوا بالدماء العصيان الكبير عام ٤٨٦ ق.م الذي اشتعل بعد هزيمة الفرس أمام اليونانيون عند مارثون وأيضا العصيان الذي قام عام ٤٦٠ ق.م والذي أرسل الأسطول اليوناني لمؤازرته.

وهكذا أتى الوقت الذي أراد فيه اليونانيون تصفية الحسابات القديمة مع الفرس، في عام ٣٣٢ ق.م تحققت آمال المصريون وبعد عدة انتصارات دخل الإسكندر المقدوني إلى مصر. لقد استقبلوه استقبال المحرر واستسلم الطاغية الفارسي دون قتال. قام كهنة معبد الرب بتاح الرئيسي في ممفيس بتقليد الإسكندر التاج المزدوج لمصر العليا والسفلى. أما كاهن واحة سيف فنصبه ابنا للرب آمون . وهكذا أصبح الإسكندر ملكا مصريا وحصلت مصر على حاكم جديد.

لم يبق الإسكندر لفترة طويلة في مصر، لكنه كسب تأيد وود كل من كانت له معه مصلحة. لقد حكم البلاد وفق التقاليد المصرية، التي أظهر لها احتراما خاصا . أعاد الألقاب للوجهاء والملكيات للمعابد وأمر بترميم كل ما دمره الفرس. في الفرع الغربي لنهر النيل أسس مدينة ساحلية بمرفأ وسماها على اسمه. قدم أضحية للثور الممفيسي المقدس آبيس، الذي قتل الفرس سابقه . لقد كان سلوكه كالملوك المصريين تماما. بعد أن وطد حكمه أوكل قيادة البلد لقادته المحاربين واتجه نحو الشرق لاحتلال بلاد فارس وهذا ما حصل بالفعل. عاد الإسكندر المقدوني إلى مصر في تابوت ذهبي.

مع حكم الإسكندر لمصر بدأت مرحلة التغييرات العظيمة. لقد كانت المملكة الحديثة استمرارا للوسطى والوسطى استمرارا للقديمة. الآن يأخذ التطور التاريخي للبلد منحى آخر. من بلد محاط بالصحارى تحولت مصر إلى دولة متوسطية ذات أسطول بحري ضخم، من بلد فقد القدرة العسكرية إلى البلد الأقوى.

في بنيته الاقتصادية والاجتماعية الجامدة حدثت تغيرات بنيوية اقترب بفضلها من اليونان المتقدمة.

وفوق ذلك أصبحت مصر مركزاً ثقافيًا لامعًا، يونانياً أكثر ماهو مصري. كما أن مصر تغيرت عرقيا، إذ أن مدنها وقراها أصبحت مليئة باليونانيين، الذين اختلطوا جزئيا بالسكان المحليين وظهرت بالنتيجة شريحة من السكان المصريين–اليونانيين. على أية حال حدث ذلك كله زمن خلفاء الإسكندر الذين كانوا بالنسبة لمصر "فراعنة" وبالنسبة لباقي العالم ملوك إلينيون، (الإلينية–هي مرحلة انتشار الثقافة اليونانية والشرقية في العالم القديم).

بعد موت الاسكندر عام ٣٢٣ ق.م استحوذ على الحكم في مصر القائد العسكري بتوليمي: لقد حكم في البدء باسم الإسكندر الكبير (فيليب اريدي) والإسكندر الثاني الذي ولد بعد موت أبيه. وعندما مات هذان الأخيران–حكم مصر بمفرده وباسمه.

بعد صراعه على العرش مع منافسيه أحكم سيطرته على مصر ثم بسطها على الكثير من دول شرق المتوسط.

في عام ٣٠٥ ق.م نصب نفسه ملكا وأسس أسرة حكمت مصر لأكثر من ٢٥٠ سنة. اتخذ اسما له من أجل أنصاره من المصريين سيتيب–إن–رع ميريامون (المختار من قبل ريح ومحب آمون) أما في التاريخ فدخل باسم بتموليمي الأول سوتير "المنقذ" خلال حكم الخليفة الأول والثاني كانت مصر الدولة الأبرز والأكثر أزدهارا في العصر الإليني، خلال حكم خليفته الثالث اهتز الوضع العالمي والوضع الداخلي في مصر بسبب الصراع بين أفراد الأسرة على العرش، أما الخلفاء اللاحقون فلم يستطيعوا المحافظة على الأراضي التي أحتلها أجدادهم .

الممثل الأخير عن هذه الأسرة كانت الملكة كليوباترا السابعة وهي الشخصية الأكثر شهرة بعد رمسيس الثاني العظيم واخناتون.

لقد حاولت كيلوباترا بجميع الوسائل المتاحة لديها كملكة وامرأة أن تحصل على استقلال مصر، كما أنها لم تتردد في الاعتداء على حياة أخويها وحكامها المحليين بسبب إعاقتهم لأفكارها. كانت محبة لسيزار في البدء ومن ثم لأنطونيو، حاولت قتل اوغوست باستخدام الأسطول، الجيش ومفاتن المرأة، عندما لم ينجح كل ذلك معها انتحرت عام ٣٠ ق.م.

بموتها انتهت مصر من على الخارطة كدولة مستقلة، اوغوست المنتصر حول مصر إلى مقاطعة رومانية.

خلال فترة حكم أسرة بتوليمي لم تعد مصر "مصر القديمة" مع أنها كانت تستطيع آنئذ الافتخار بقوتها ومجدها كما في فترة حكم الملوك القدماء.

من وجهة النظر الثقافية كانت مصر تتحول إلى مصر اليونانية لأن الثقافة المصرية لم تستطع إيجاد السبل لاختراق التقاليد المقيدة لها.

في تلك الحقبة عندما وصل إقليدس وأرخميدس إلى ذلك المستوى من التطور في علم الرياضيات والذي مازال يستخدم إلى الوقت الحالي بقي علماء الرياضيات المصريون يستخدمون الطرق الرياضية القديمة. في الوقت الذي ارتقى فيه علم الطب التشريحي على يد هيروفيل وايرسيترات كان الأطباء المصريون يعالجون بالتعويذات السحرية القديمة . على صعيد الأدب والشعر استطاع المصريون في ذلك الوقت مجاراة الشعر الهجائي لـ "كاليماخ" والشعر الموزون لـ فيوكريت. كما وصلتنا من تلك الفترة بعض القصص القصيرة على أوراق البردي.

قام خلفاء بتوليمي ببناء الكثير من المعابد على شرف الآلهة المصرية القديمة مثل معبد الربة ايسيدا على جزيرة فيليه معبد الرب حور في إيدفا، معبد الرب حنوم في أيسنه، معبد الرب حاتور في الدنديره، معبد سيبيك وحورور "حور العظيم" في كوم اومبو.

يظهر في عمارة هذه المعابد الأثر اليوناني الواضح، أما النقوش البارزة التي تزينها فتبين الهبوط الإبداعي للحرفين المصريين مقارنة بالحرفيين القدماء.

في عصر السيادة الرومانية انغمست مصر القديمة التي تنوء بحمل تاريخها ذو الثلاثة آلاف عام في ظلمة القرون كالسفينة المحطمة. كانت هناك فترات ازدهار اقتصادي ولكن بالنسبة للمستوطنين الرومان. كانت هناك عمليات تمرد ونضال ولكن ليس من أجل مصر، بل ضد الاستغلال. بقيت مصر تحت السيادة الرومانية حتى سنة ٣٩٥ م.

عند تقسيم الإمبراطورية الرومانية كانت مصر من نصيب الإمبراطور البيزنطي إلى أن فتحها العرب عام ٦٤٠-٦٤٢م.

الجزء السادس

الديانة - المومياء - المقابر

بعد هذه النظرة السريعة والشاملة على التاريخ المصري نعود إلى الأهرامات موضوع الكتاب الأساسي لنرى سبب بناءها.

"هذه الصروح العملاقة ولدت من غرور الفراعنة وهوسهم"- نقرأ عند بعض المؤلفين: "كان على هذه الأهرامات أن تبدي للعيان أي حكم مطلق ركز في يد الملك ". وتقرأ عند مؤلفين آخرين:" هذه النصب التذكارية لآلهة مصر القديمة ظهرت نتيجة الفائض الإنتاجي الكبير ".

يوجد في كتابات الجميع شيء من الحقيقة . ولكن بعض الملوك لم يبنوا الأهرامات لأنفسهم علما أنهم كانوا بنفس القدرة وبنفس الغرور والهوس . نعم التصرف مع الثروة ليس بهذه البساطة : مصر رمسيس الثاني كانت بدون شك أغنى من مصر جوسير أو خندجير . ولكن بغض النظر عن ذلك لم يخلف رمسيس وراءه هرما. الخروج من هذا المأزق الناشئ عن هذه الإجابات الناقصة والاعتراضات غير المعلنة وجده الباحثون بعد أدركوا أن الأهرامات كانت مدافن الحكام الذين اعتبروا أنفسهم أربابا. أي أن الأهرامات صروحا ذات طبيعة دينية . لقد وصل العلماء بتاريخ مصر القديمة إلى هذا المخرج بعد أن عرفوا الاتجاه إلى أكثر البيئات سرية في حياة مصر القديمة - إلى البيئة الدينية وفوق ذلك إلى أكثر أركانها باطنية - إلى التصورات عن الحياة بعد ما الموت.

بالطبع الأهرامات - نتاج اقتصادي الأساس وبنية فوقية سياسية لمصر القديمة - هذا لا شك به. لكن مفتاح فهمها موجود في الديانة المصرية .

تبدو لنا الديانة المصرية وكأنها مجموعة من التصورات المنقطعة النظير - إنها تصورات خيالية ، متاهية ، وفي بعض الأحيان بدون معنى إلى درجة أننا نصاب أحيانا بالهلوسة عند دراستها .

تعامل الآشوريون والفرس مع هذه الديانة باشمئزاز شديد ، اليـــهود أدانوهـا ، الرومان استهزءوا بها ، لكنها بهرت اليونـــان . مــع أن اليونـــانيين احــترموا المصريين أكثر من أي شعب في العالم، إلا انهم لم يفهموا كيــف كــان هــؤلاء الحكماء والملوك يعبدون الثيران ، القطط، التماسيح، الخراف ..الخ ويعتبرونهم أربابا.

إنهم لم يعرفوا الكثير مما عرفناه نحن عن تصورات المصريــين القدمــاء عــن الحياة ما بعد الموت. هذه التصورات التي تشرح سبب تأليه الملوك والحيوانـات. لقد بقي عالم الآلهة والعبادات المصرية لفترة طويلة بعد فك الرموز الهيروغليفية متاهة من الألغاز. شامبوليون الذي درس بشكل خاص الديانة المصرية أعطــى شروحا خاطئة في كثير من الأحيان; ففي ضوء المعطيات التي تم الحصول عليها لاحقا لم تصمد شروحاته وشروحات لاحقيه أمام التدقيق العلمي . خلال ذلك لــم يحتج شامبوليون وما تبعه من العلماء بنقــص المراجــع لأن غالبيــة الكتابــات المصرية كانت نصوصا دينية . ولكن لم يفهم من هذه النصوص سوى الكلمــات وليس المعنى . أحد العلماء بمصر القديمة أورد هذه المقارنة :" أنا أعلم ما معنى روستبيف وأعرف أين تقع بريتان وأعلم من كان شاتوبريان ولكـــن مــا معنــى الروسبتين البريتاني وما معنى لياشوتوبريان يجب أن يشرحها لـــي النــادل ". عندما فهم العلماء في النهاية مغزى الكلمات الموجودة في النصـــوص الدينيـة. وصلوا إلى استنتاج أن المصريين القدماء عبدوا مجموعة من الأرباب العليــا . الذين كانت لهم أسماء مختلفة وبعضهم سمي صباحا ومساء بشكل مختلف . حتى الآن توجد في هذه النصوص أماكن مستعصية على الفهم بسبب تراكم الرمــوز والتلميحات غير المفهومة. كانت فيها عبارات ورسائل يحتمل أنـــها لــم تكــن مفهومة حتى من قبل المصريين أنفسهم . المشكلة في أنها نشأت نتيجــة إعــادة كتابة نماذج النصوص الدينية التي عمرها آلاف السنين ميكانيكيا (بالحفر). ربمـا كانت متعلقة بمراسم وطقوس الدفن ولم يدققها أحد . في إحدى الأمكنة ســقطت

كلمة، في مكان آخر لم تكتب الإشارة بشكل صحيح. واضح أن الكاتب لم يكن يفهم ما يكتب .

سنورد على سبيل المثال ثلاثة مقاطع مفهومة تماما من نصوص دينية يدور الحديث فيها عن الإله العلوي (مع الشروحات المكملة للباحث ز. جابا).

كتب النص الأول كهنة من ممفيس :" في[التمثيل] الرمزي للرب آتوم يوجد [في الواقع] شيء ما مشابه لمعنى [القلب] وشيء ما مشابه لكلمة [اللسان] . لكن بتاح العظيم الذي أعطى[الحياة]لجميع الأرباب أي أعطاهم روحهم ، أعطاهم إياها عن طريق جوهره الذي نشأ عنه حور . من حيث جوهره هو مطابق لبتاح..... أربابه التسعة تقف أمامه كالأسنان والشفاه، المسؤولة عن بذرة وصنعة آتوم، لأن مجموعة الأرباب التسعة نشأت من بذرة آتوم وأصابعه. لكن مجموعة الأرباب التسعة من حيث الجوهر تعتبر تماما كما تعتبر الأسنان والشفاه في هذه الثغور ، التي سمت جميع الأسماء باسمها . وقد نشأت عن هذه الأسماء[كلمات مثل] الرب شو والرب تيفنوت ....وهكذا عرف وأقر أن قوته أعظم من قوة جميع الأرباب الآخرين ".

وهكذا اعتبر كهنة ممفيس أن الرب الأعلى خالق الأرباب الأخرى والناس والأشياء هو بتاح . في الوقت الذي اعتبر فيه كهنة فيف أن الرب الأعلى هو آمون :" ذلك هو الذي في البدر . آمون الذي نشأ أولا والذي لا يدرك جوهره أحد. لم يكن هناك ربا يمكن أن يظهر قبله . لم يكن معه بنفس الوقت أي رب ...لم يكن محسوسا بمادة يمكن أن تعطيه اسما . لم يكن له أبا كان يمكن أن يبدعه فيقول " هذا ما كنته أنا ". جميع الأرباب ظهرت لاحقا بعد أن وضع بنفسه البداية ".

أما إذا صدقنا كهنة أون ، فإن مبدع كل شيء ومبدع نفسه هو الرب الأعلى آتوم وحسب أخناتون الرب الأعلى كان قرص الشمس آتون .

وفقـا لتـأكيد كهنـة معبـد الرب حنـوم في ايسـنه " صنـع حـوم رباعيـات الأرجل مـن تنفس ثغوره ،

الأرباب والآلهة المصرية

من اليسار إلى اليمين: رع، أنوبيس، نوت، حنوم

وزفر لتنتشر النباتات في المروج ، وخلق الثيران لتلقيح الأبقار وأحيا المـروج والقطعان، خلق الطيور لتدور في السماء وتركض على الأرض وغمر الأسـماك عميقا تحت الماء ومع ذلك أعطى غلاصمها الحياة ، وخلق الزواحف لتعيش فـي الجحور . الناس ، القطعان ، الطيور ، الزواحف، السلاطعين. كلها مـن صنـع يديه وسوف تبقى مخلوقاته إلى الأبد . لقد خلقهم جميعا علـى قـرص فخـاري ويدعى أبوهم لأنه هو الذي خلقهم في البدء."

كيف يمكن أن تنشأ عند البشر هذه التصورات ؟ كيف استطاعوا اقتراحها علـى الآخرين ؟ ، كيف استطاع الآخرون أن يؤمنوا بكـل ذلـك ؟ ، كيـف تمكـن المؤمنون المصريون من استيعاب كل هذه التناقضات والتعقيـدات ؟ ، وكيـف يمكن أن يفهمها اليوم غير المؤمنين من غير المصريين ؟.

" في الحقيقة يفصلنا عن المصريين القدماء هوة روحية هائلـة - كتـب العـالم المصري زكريا غنيم - ولكن إذا أردنا فهم وظيفـة ومعنـى النصـب الأثريـة المصرية ...يجب علينا أن نمد جسرا فوق هذه الهوة ".

عادة يتم البدء في تفسير الديانة المصرية بكلمات هيرودوت . لقد كان أقرب منـا بألفين وخمسمائة عام . رآها وهي تمارس وترك عنها معلومات تفصيلية. لكننـا سنكون حذرين: في زمنه كانت هذه الديانة واقعة في طور متأخر مـن التطـور وكانت جامدة إلى انه لم يبق من جوهرها سوى الشكل . ذلك الجوهر لم يـدرك

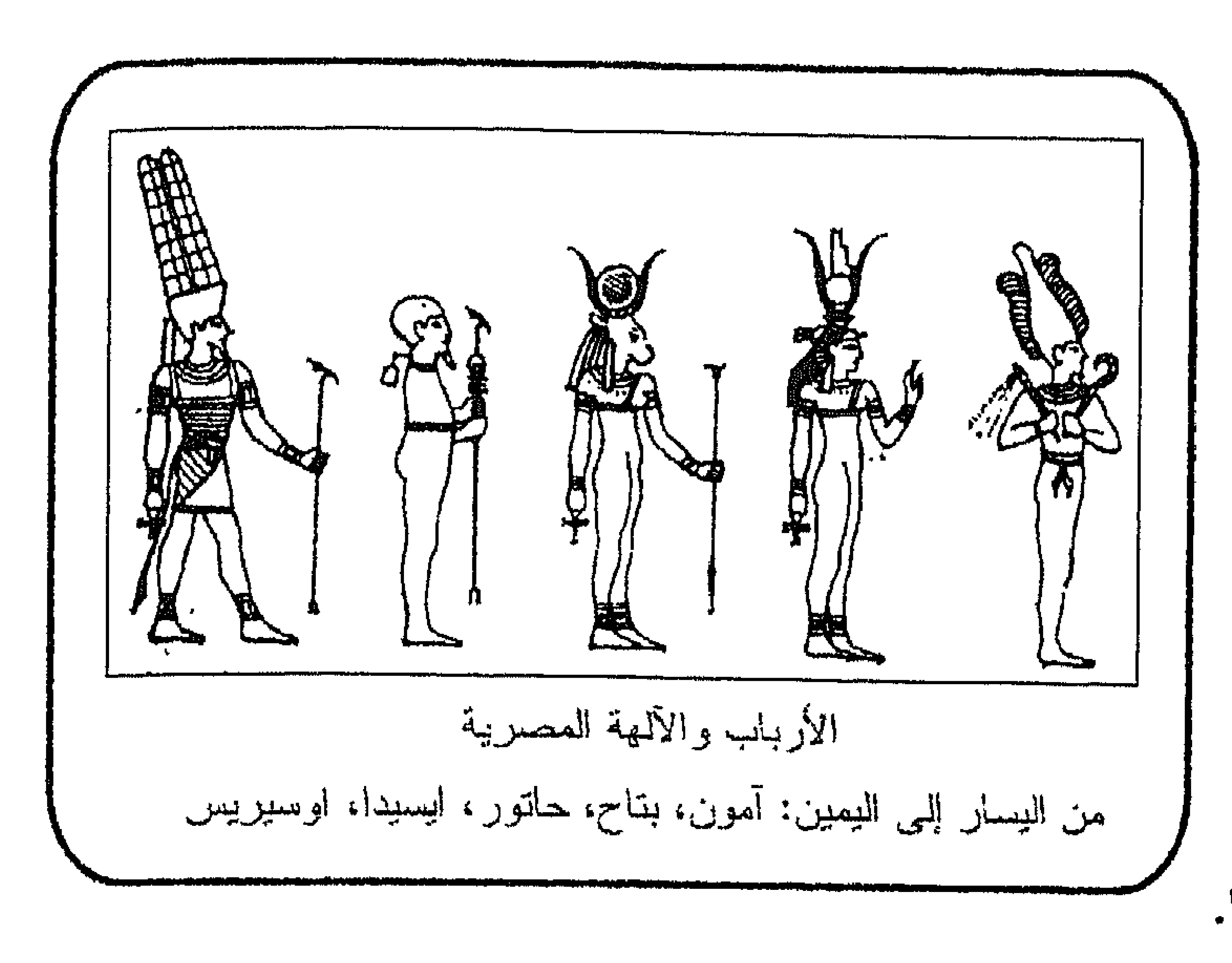
معناه الأولي الكهنة أنفسهم فكيف بعامة الناس (طبعا كهنة العصور المتـــأخرة) .
في هذه الظروف الكثير لم يعرفه هيرودوت وحصل على كثير من المعلومـــات المغلوطة . حسب أقوال هيرودوت المصريون :" من أكثر الشـــعوب خضوعـا للآلهة ". فقد اكتشف عندهم أكبر عدد منها وكانت عندهم أفخم المعابد وكانوا من أكثر الناس احتفالا بالطقوس الدينية ومراعاة لمناسكها.
ما أدهش هيرودوت هو أن ليس جميع المصريين يحترمون نفس الآلهــة ، إذ أن الممارسات الدينية تتعلق بعبادة الحيوانات.
" تؤخذ جثث القطط إلى مدينة بوباستيس حيث تحفظ وتدفن في حجر مقدسة . أما الكلاب فيدفن كل منها في مدينته في مدافن مقدسة . كانت البواشق تنقـــل إلـى مدينة بوتو.
في بعض المناطق في مصر كانت تعتبر التماسيح مقدسة وفي منــاطق أخـرى كانت لا تعتبر كذلك بل ويتعاملون معها بعداء شديد . سكان فيف ومنطقة بحـيرة ميريدوف يعتبرون التماسيح مقدسة . يوجد في كل من هذه المناطق تمساح وضع في أذنيه زوج من الحلقات المصنوعة من الزجاج والذهب . أما قائمتاه الأماميتان فملبستان بالأساور . يقدم للتمساح طعام مقدس خاص. وطالما هو على قيد الحياة يتم الاعتناء به وبعد موته يحفظ ويدفن في الحجر المقدسة . سكان مدينة ايليفانتينا على العكس لايعتبرون التمساح مقدسا ويستخدمون لحمه كطعام لهم.
يعتبر فرس النهر في منطقة بابريميت مقدسا ولا يعتبر كذلك في باقي المنــاطق المصرية . أيضا تقدس ثعالب الماء التي تعيش في نهر النيل إضافة إلى ســمك الحنكليس والليبيدوت. يقول المصريون أن هذه الأسماك مهداة لنهر النيل .
من الطيور يقدس المصريون الوز وأبو منجل ".
هذه القائمة المقدسة من الحيوانات بغض النظر عن تنوعها فهي ليست كاملة .
في مدينة بوباستيس حيث وجدت مقبرة تحتوي على هياكل عظمية لقطط مقدســة عبدت اللبوة الإلهية . في تيس (تين) عبد الذئب الإلهي . في بوتو عبدت الكوبـرا المؤلهة . في فيف عبد الخروف المقدس . في مينديس عبد اللقلق المقدس . فـــي

بيرميدجيد (أوكسير نيخ) عبدت السمكة المقدسة . في دنديرا عبدت البقرة المؤلهة ...الخ. كان المصريون يظهرون تشريفا إلهيا للأبقار والخراف ففي ممفيس كانوا يبجلون الثيران المقدسة . التي تعرفنا على توابيتها المكتشفة في صقارى من قبل مارييت . لدينا معلومات كثيرة عن عبادة الثيران . لقد كانت من أكثر العبـــادات بذخا واحتفالية .

كان آبيس ثور مدينة ممفيس يعتبر " خادم الرب بتاح ". ورمزا للخصب . كـــان يعيش في زريبة مقدسة تقع في المعبد الرئيسي مباشرة ، حيث يعتني بـــه كهنـــة مختصين. بعد موت الثور يحنط ويدفن مع مراعاة مراسم احتفالية معقدة خـــلال حضور جماهيري كثيف . بعد ذلك يذهب الكهنة للبحث عن خليفته . يتم التعرف على " آبيس حديث الولادة " من عدة علامات " ثور أسود علـــى جبهتـــه بقعـــة بيضاء مثلثة الشكل ، تحت لسانه زائدة على شكل جعل ، على ظهره بقعة يذكـــر شكلها بالنسر . على ذيله صوف بلونين و ...إلخ عدد هـــذه العلامـــات حوالـــي الثلاثين . في النهاية عندما كانوا يجدون هذا الثور وهو عمل صعب بلا شـــك، كانوا يرافقونه باحتفال إلى الزريبة المقدسة بعد أن تكون قد نظفت ، حيث يعيش مع مجموعة بقرات منتقاة بشكل خاص حتى موته . آخر هذه الثيران عاش حتـى اللحظة التي رفع فيها الصليب فوق مصر .

لكن عبادة الحيوانات كانت جزءا من العبادة الشـــاملة للطبيعـــة . لقـــد أظـــهر المصريون القدماء مثل هذا الاحترام للأشجار والنباتات . أعظم تشريف حـــازت عليه نبتة اللوتس . فصلت بعض المناطق الخاصة على أنها أحراج مقدسة.

نفس التعظيم أظهره المصريون للماء . لقد اعتبروا الأمطار دموع من عيون الرب رع أو " بكاء الربة ايسيدا ".



الأرباب والآلهة المصرية

من اليسار إلى اليمين: آمون، بتاح، حاتور، ايسيدا، اوسيريس

أنشئت بالقرب من المعابد " بحيرات مقدسة ". كانت المراسم الإلهية تعطي قوة الحياة للنيل ." النهر الذي يحيي كل شيء يمر فيه يستحق أن يمنح الحياة ". لقد اعتبروا الأرض وقوة خصبها إلها-" أبو جيبا ". من الطبيعة اللاعضوية عظموا الحجارة المدببة التي نشأت منها على الأغلب فكرة المسلات . انعكست عبادة الطبيعة على تشكيل المعابد المصرية . أعطوا الأعمدة شكل أشجار النخيل وسوق اللوتس أو البردي ، زينت الأجزاء السفلية من الجدران بالنقوش النباتية الفاخرة . أما داخل المعابد فكانت فيها مسحة من النيل أثناء الليل . أله المصريون أيضا الأجرام السماوية وأولها الشمس . التي انتشرت عبادتها بين الشعوب القديمة . ليس في مصر وحدها بل على امتداد بلاد الشرق.

يمكن إعطاء شرح مقبول عن نشأة وانتشار كل العبادات . نبدأ بالشمس : لقد رأوا فيها من جهة نارا مهددة وكارثية ومحيره على الجميع أن يخافها ومن جهة أخرى – منبع الضوء والدفء الضروري لكل ما هو حي على الأرض . بالتالي هي تستحق العبادة على سبيل الشكر . أما ما يخص عبادة الحيوانات فالبعض ذكر ضرورة تمجيد التماسيح والأفاعي لأنها خطرة ، والبعض أله البقر والقطط لأنها كانت مفيدة . والبعض كرم الطيور والصراصير لأنها غير ضارة . المشكلة الأكثر تعقيدا هي العدد الكبير من الآلهة عند المصريين.

قام علماء مصر القديمة بحل هذه المشكلة كما يلي:

إن القبائل المتنقلة التي كانت تحط برحالها تدريجيا على ضفاف النيل حملت معها تصوراتها الدينية الخاصة : وكان أكثر ما ألهوه النباتات والحيوانات . بعض هذه العبادات اندثر والبعض الآخر استمر إلى ما بعد تشكل المستوطنات الثابتة . وحتى إلى ما بعد اتحاد مصر كلها. بهذا الشكل وعلى عتبة الحقبة التاريخية كان عدد العبادات كبيرا وزاد مع الوقت . غالبا ما كانت نفس الأرباب تحمل أسماء مختلفة على سبيل المثال إله الشمس " شمس الشروق " يدعى خبرير ،" الشمس في كبد السماء " يدعى رع ، " الشمس قبل الغروب " يدعى آتوم . كما دعي الإله الذي يحمي أماكن الدفن في ممفيس وفيف بأسماء مختلفة. من الصعب معرفة عدد الآلهة التي ابتدعها المصريون القدماء . رمسيس الثاني الذي عقد معاهدة سلام مع الحثيين أقسم " بألف من بالآلهة المصرية " وهو في هذه المرة لم يبالغ . في الدراسات التفصيلية عن الديانة المصرية على سبيل المثال في كتاب و. بيدج " آلهة المصريين القدماء "(لندن ١٩٠٤م) يمكننا أن نعد (٢٥٠٠) اسم للآلهة. من المثير أن نذكر هنا أنه في المراكز الدينية الكبيرة وجد عدد غير كبير نسبيا من الآلهة في البدء . الزيادة اللاحقة بعدد الآلهة اهتم بها الكهنة الذين أرادوا مد معابدهم بآلهة مسؤولة عن جميع الوظائف الأساسية فأنشئوا مجموعات الآلهة " المجموعة التساعية " ،

" المجموعة الثمانية " ..الخ.

ولدت فكرة المجموعة التساعية في اون . وقف على رأس هذه المجموعة إله الشمس ومبدع كل ما هو موجود آتوم يليه أولاده شوم (إله الضوء والهواء) وتيفنوت (إله الندى والمطر) بعدهم أتى أحفاده غيب (إله الأرض) ونوت (إلهة السماء)، وبعدهم أتى زوج من أحفاد الأحفاد اوسيريس، وايسيدا، وسيت، ونيفتيدا . هذه الأزواج من الآلهة كانت حسب رغبة الكهنة (وبالتالي الحكام) مقترنة فيما بينها بعلاقة زوجية . الأعظم من هذه الأنسال كان حور ابن اوسيريس وايسيدا.

مجموعة مدينة ابيدوس كانت مؤلفة من تسعة أرباب ، ومجموعة غرموبول من ثمانية ، مجموعة فيف من خمسة عشر إلها . اكتفت معظم المعابد بالثالوث الإلهي التقليدي .

كان أرباب مختلف المناطق متساوون في الحقوق ، ولكن الإله في العاصمة كان يملك عادة أجمل وأغنى معبد ويصبح تدريجيا الإله الرئيسي أو الأعلى في البلد كلها. لقد ظهرت نزعات مشابهة على مستوى مصر بالكامل ، ففي الطور الأول من تاريخ المملكة القديمة ، عندما أصبحت ممفيس عاصمة مصر الموحدة . احتل الإله الممفيسي بتاح موقعا بارزا ثم احتل هذا الموقع الإله رع تحت ضغط كهنة معبد أون . في المملكة الحديثة عندما انتقلت العاصمة إلى فيف احتل الرب آمون مكان الرب الأعلى .

في القرون الأخيرة التي سبقت تقويمنا الميلادي ساد الإله الإسكندري سيرابيس الذي ابتدعه بتوليمي الأول ، حيث وحد الهين مصريين (أوسيريس وآبيس) وثلاثة آلهة يونانيين (زنيس، اسكليبي وديونيس). في أواسط القرن الرابع عشر قبل الميلاد حصلت مصر على إله وحيد بدل جميع الأرباب الموجودة بعد إصلاحات أختانون . مع أن عبادة هذا الرب كانت مرتبطة بالعبادة التقليدية للشمس ، إلا أن هذا الرب لم يصمد في النهاية . لقد كانت الديانة المصرية منذ البدء سياسية حتى في تلك الحقبة ، عندما حلت مكانها الديانة المسيحية .

لقد انهارت الديانة المصرية بسرعة مذهلة بعد أن فقدت قاعدتها في الوسط الشعبي نتيجة التأثير اليوناني . لم تفقد الآلهة المصرية تماما ارتباطها المقترن بالظواهر الطبيعية . لقد عبد المصريون هذه الآلهة في صور جميع الحيوانات أو بعضها وفي صور النباتات ...الخ وهكذا صوروها ومثلوها . لم تصور هذه الأرباب بشكل إنساني إلا في وقت متأخر وبشكل أساسي نصف إنساني . لقد كانت تماثيلهم ورسوماتهم من إبداع الخيال الذي لا يعيقه وصل جسم إنسان برأس صقر ، أسد أو تمساح أو الاستعاضة عن رأس الإنسان بصرصور أو تجميله بقرون خروف . إلا أن ذلك هو شاهد على قصور الخيال من الناحية

الفنية لأن هذه التصويرات والمنحوتات لم تتغير على مدى آلاف السنين وهي تشابه بعضها البعض كتشابه قطرتي الماء . أحيانا نجد أن شكل بعض الأرباب غير متوقع ويصعب شرحه . على سبيل المثال صور المصريون إله الشمس على شكل قرص أحمر اللون : هذا بسيط وواضح . أحيانا كانوا يطوقون هذا القرص بجسم حية الكوبرا أو يرسمونه مع جناحي الحدأة . أيضا من السهل فهم ذلك لأن الكوبرا كانت الآلهة التي تحرس مصر السفلى . أما أنثى الحدأة فكانت الإلهة التي تحرس مصر العليا . مثلوا هذا القرص على شكل صقر طائر . أيضا يمكن أن يفسر ذلك دون جهد . أولا: الشمس شاهقة في العلو والصقر يطير أعلى من جميع الطيور التي تعيش في مصر .

ثانيا : كان الصقر الرمز القديم لإله الشمس والضوء حور . الذي كان مطابقا لإله الشمس رع.

ولكن لماذا مثلوه على شكل جعل واعتبروه مماثلا له ؟ فلنحاول فهم هذه المسألة.

أولا: الشمس عبارة عن كرة تتحرك في قبة السماء وفي الأرض تتحرك كرة يدفعها الجعل أمامه. إذا كانت الشمس تتحرك في قبة السماء يجب أن توجد قوة تحركها وعلى الأرض عندما تتحرك الكرة آنفة الذكر فإن الجعل هو الذي يحركها . من هنا يتبع أن سبب حركة كرة الشمس هو أيضا الجعل. أو إذا أردتم قوة الجعل. هذا الفارق بين الجرم السماوي الناري والكريه المتدحرجة لم يحير المصريين. *[1]

هناك رسومات أخرى تمثل الشمس على شكل طفل صغير جالس على عجل.

يجب أن نذكر هنا أنه بالإضافة إلى النظرية التي وضعها علماء التاريخ المصري عن قوة الجعل المحركة لقرص الشمس وضعوا نظريات أخرى أكثر

---

[1]* ملاحظة المترجم: أعتقد أن التشابه بين قرص الشمس والجعل عند المصريين القدماء يكمن في أن قرص الشمس يحمل الحياة لجميع الكائنات في أية بقعة يشرق فيها أما الجعل فهو يحمل معه الحياة أينما ذهب لأن هذه الكريه التي يدفعها الجعل أمامه يصنعها بنفسه من الروث ليضع بيوضه فيها ثم يغلقها ويظل مرافقا لها حتى تفقس هذه البيوض وتخرج من الكريه حياة جديدة.

تعقيدا . حسب النظرية الأكثر انتشارا فإنه كان يوجد تحت تصرف إله الشمس رخين اثنين ، حيث سبح في السماء من الغرب إلى الشرق على شكل "رخ نهاري " وسبح تحت الأرض من الغرب إلى الشرق على شكل " رخ ليلي". خلال ذلك صاحبه مختلف الأرباب أما هو نفسه فكان كل ساعة يغير شكله: في الساعة الأولى من السباحة كان طفلا واقفا. في الساعة الثانية - فتيا جالسا على العرش . في الساعة الثالثة - رخا على زهرة لوتس وهكذا. لبعض الوقت كان له شكل إنسان بجسمين على نمط التوائم بأربع رؤوس خراف..بالفعل كان الخيال المصري الديني غير محدود.

كما نعلم كان الملوك المصريون أربابا -خلال الحياة وبعد الموت " يحولون التماسيح. الأفاعي ، الصراصير ، الشمس ، الكائنات الخيالية المبتكرة إلى أرباب . فلماذا لا يحولون ملوكهم إلى أرباب ؟ . إن هذا التصريح صحيح تماما ، ولكن ليست هذه هي المسألة . إن الإجابة على السؤال السابق بالموافقة كان من الممكن أن يمحو الفوارق النوعية الموجودة هنا .

إن تأليه الحكام كان عليه أن يقوي ويرفع شخصيتهم مع الجهاز الحكومي بالكامل (بما فيه الجهاز الإداري – الاقتصادي - وجهاز جمع الإتاوات).

الملك الذي كان إلها يجب أن يطاع كإله. كأن يأمر بحفر القنوات ، بالخدمة في الجيش ، بإعطاء جزء من المحصول ...الخ. في هذه الظروف كان الملك حاكما في الحياة وبعد الممات. إن عدم إطاعة الأوامر هو مخالفة للقوانين الأرضية والسماوية. التمرد ضد الملك هو تمرد ضد الإله وهذا ينتج عنه عواقب وخيمة في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى . إن أكثر ما نعلمه عن الديانة المصرية هو ذلك الجانب الخاص بالحياة بعد الموت.

بالنسبة لهذا الموضوع لدينا مجموعة لا تحصى من الشواهد والنصب التذكارية الفنية العائدة إلى جميع أحقاب التاريخ المصري. وفقا لهذه المجموعة تشكلت لدينا التصورات الأساسية عن الحياة بعد الموت عند الشعب المصري القديم في حقبة ما قبل التاريخ.

لقد اعتقد المصريون القدماء أن الموت لا يعني نهاية الوجود الإنساني بل هو انتقال إلى عالم آخر . لم يكونوا الوحيدين الذين اعتقدوا بذلك ولم ينبع هذا الاعتقاد من عندهم - التعطش إلى الحياة والخوف من الموت هو سمة كل الناس . لقد كان لدى المصريين القدماء تصورات خاصة عما يتضمنه ذلك العالم الآخر . عن حياة الإنسان في ذلك العالم وخاصة أن الإنسان المتوفى بغض النظر عن نهايته يمكنه متابعة الحياة. الأهم أن الإنسان يعيش إلى الأبد بسعادة وشكل أفضل مما هو عليه في الأرض . لقد تصور المصريون القدماء أن حياة الإنسان بعد موته هي استمرار لحياته على الأرض لقد أنشئوا عالما يدخله الإنسان خلف عتبة الموت.على مثال ونموذج عالمنا هذا.

لكن كل ما فيه كان أفضل إذا ما قورن بما في العالم الحالي : تعطي الحقول محصولا أغنى ، كانت السنابل بطول قامة الإنسان . كانت تنتظر الإنسان في ذلك العالم أكوام من الطعام والشراب . من عمل بشقاء في هذا العالم ، يقوم بعمل سهل أو لا يعمل أبدا في ذلك العالم . لكل شخص خادم أو عدة خدم. في مملكة العالم الآخر لا يوجد لصوص ولا محاربين، وهناك يسود السلام الأبدي. الفلاح يبقى فلاحا والنجار نجارا والكاتب كاتبا. ولكن كلا منهم سيعيش أفضل . لقد كان الوجهاء والكهنة أكثر غنى في ذلك العالم . مع أن الإنسان يمكن أن يتعرض إلى الأخطار في ذلك العالم ، إلا أن قوته تصبح أكبر حتى يتمكن من التغلب على هذه الأخطار.

كان عالم ما بعد الموت ناتجا عن إعادة تشكيل غير عادية للعالم الحقيقي . كما أن الأموات يتحولون إلى أرواح ، وهذا العالم يقع تحت عالمنا أي في القعر (جهنم). وصل المصريون إلى هذه التصورات في زمن المملكة الوسطى . قبل ذلك على الأغلب وضعوا عالم ما بعد الموت فوق عالمنا . سبحوا مع إله الشمس في المحيط السماوي أو عاشوا على النجوم المتلألئة. توجد شواهد مؤكدة على أن هذه التصورات القديمة استخدمت فقط من أجل الملوك لتجهيزهم للحياة الأخرى ما بعد الموت . إن حل المصريين لمسألة الحياة ما بعد الموت تبدو حاليا مشابهة

بعض الشيء لما هو في الديانات اليهودية ، المسيحية ، الإسلامية (والاعتقادات الأخرى التي لم تخضع لتأثير المصريين القدماء). من المحتمل أنه انطلاقا من أن الإنسان يتمتع بقدرات فيزيائية وعقلية ، وصلوا إلى استنتاج أن الجوهر يتألف من أساسين- مادي ومعنوي . اعتبروا أن الجوهر المادي هو جسم الإنسان والجوهر المعنوي هو الذي يطلق عليه في الاصطلاحات الدينية " الروح". وسموه " آح ". " با ". و" كا ". وفق اعتقادهم يتلاشى مع الموت الأساسي المادي . أما الأساس المعنوي الذي ينتمي إليه اسم الإنسان أيضا فلا يمسه الموت . بالتالي يمكن لروح الإنسان أن تعيش إلى الأبد إذا توفرت الشروط المناسبة لذلك .

" آح "، " با " ، " كا " - عبارة عن مفاهيم معقدة جدا ليس لها عندنا مكافئات دقيقة لأنها لا تتطابق مع نظام تصوراتنا . حتى أن العلماء بمصر القديمة وتاريخها لا يستطيعون الوصول إلى رأي موحد عند التعرض لها .

" با " يحتمل أنها تعني " الروح الصافية ". أي ذلك الجزء من الأساس المعنوي للإنسان الذي يستطيع في أي وقت أن يغادر الجسد الميت والقبر ويتحرك بشكل حر حيث يشاء .

" آح " كانت تمثل القوى الروحية للإنسان وكانت على ما يبدو مرتبطة بشكل وثيق مع جسده .

" كا " كانت الأهم من بين هذه المفاهيم الثلاث ومن أجل وصفها سنستخدم شروح عدة باحثين معتبرين في هذا المجال.

(غ. ماسبيرو) رأى فيها " المثيل الروحي " للإنسان.

(جي . غ. بريستد) رأى فيها الجني الحارس .

(أ . ايرمان) رأى فيها " القوة الحياتية ".

(غ . شتيندروف) رأى فيها " الروح المتيقظة ".

(أ. هـ. غاردنر) رأى فيها " جوهر الروح ".

(يا . تشورين) رأى أن هذا المفهوم يتطابق أحيانا مع مفهومنا " الذاتية " أو " الفردية " وأحيانا " الروح "، " الميزة "، وأحيانا أخرى " القدر "، " الوضع " وعلى الأغلب كان المعنى الأوسع لهذا المفهوم .. " الروح الحارسة للإنسان ".

هذه " الأنا الثانية " رافقت الإنسان طيلة فترة حياته وبعد مماته ، طالبت بتقديم الأضاحي لها على شكل منتجات غذائية وشراب (وإلا فسوف تموت أيضا).

في بعض الأحيان لم يفصل المصريون بين هذه المفاهيم الثلاثة وخاصة " با " و" كا ". المفهوم " كا " غالبا ما كان يقصد من استعماله المعنى الرمزي له.

" بيت كا " كان أحد تسميات المدفن : الخادم" كا " هو الكاهن الذي كان يقوم بتنفيذ طقوس الدفن . " التوجه إلى كا الذاتية " تعني الموت.

لقد اعتبر المصريون أن الشرط الأساسي للحياة ما بعد الموت هو حفظ جسد الميت : لكي يستطيع الإنسان بعد موته العيش في جوهره الذاتي المعنوي . يجب أن يكون جوهره المادي محفوظا .

لا نعلم كيف توصل المصريون إلى هذه القناعة . يحتمل أن ما دلهم عليها اكتشافهم لعدد من الجثث المحفوظة بشكل جيد في الرمال الجافة. حسب الأبحاث الأثرية كان هذا الاعتقاد موجودا لديهم في حقبة ما قبل التاريخ . من هنا نشأ بالنتيجة الاهتمام المتزايد بجسد الميت ، الذي ظهر بشكلين :

أولا: بتحنيط الجثث. ثانيا: بوضع الأموات في صناديق محكمة الإغلاق لحفظها من الضياع واللصوص.

في الحالتين ركز المصريون انتباههم إلى حفظ جسد الميت لأنه إذا حدث شيء ما لهذا الجسد فإن " كا " و " با " و" آح " الخاصة به ستفقد الأساس المادي لوجودها ويمكن أن يموت الإنسان في جوهره المعنوي . أي يموت نهائيا.

وهكذا فإن المقابر المصرية الفاخرة المرتفعة التكاليف لا تعبر فقط عن الاحترام لمرتبة الميت الذي نصادفه عند غالبية الشعوب. بل كانت بسبب التصورات المعقدة للمصريين عن الحياة ما بعد الموت .

إن هذه التصورات وما يتعلق بها من عبادات أكثر تعقيدا تعود إلى أسطورة أوسيريس و ايسيدا. هذه الأسطورة قديمة جدا لكنها اكتسبت الشكل الأدبي في عهد المملكة الوسطى . عرف الأوربيون هذه الأسطورة قبل فك رموز الكتابة الهيروغليفية من كتابات بلوتارخ " عن اوسيريس و ايسيدا "(تقريبا في بداية القرن الثاني الميلادي). لدينا الآن النسخة الأصلية منه وهي تمثل واحدة من أحداث الرواية المشهورة عن صراع الأرباب حور و سيت من أجل السيطرة على العالم.

إن هذه القصة التي وصلت إلينا محفوظة بهذا الشكل ذات قيمة كبيرة جدا . إنها تبين الآلهة المصرية في عالم آخر تماما مختلف عن عالم الصلوات والأناشيد التي عرفناهم بها.

على سبيل المثال : عندما يهدد الرب سيت مجموعة الأرباب التسعة بأنهم إذا لم يسمحوا له بمجادلة الرب حور فإنه سيضربهم جميعا . لم يثار أحد منهم من جراء ذلك وعلى الأرجح لم يخف أحدا منهم من ذلك التهديد الفارغ. الخداع وقطع الأيدي والرؤوس و قلع الأعين ...الخ. هي أعمال اعتيادية للآلهة المصرية بين بعضهم البعض . لكن ما يهمنا هو شيء آخر مع أن كل ما قيل يصف الحكام المصريين كما يصف الآلهة المصرية . لان الخرافة كما هو معلوم تعكس الصورة الحقيقية للعالم . كما نعلم كان اوسيريس عضوا في مجموعة الآلهة " التسعة العظمى " بالإضافة إلى أنه ابن إله الأرض جيبا وإلهة السماء نوت وابن حفيد آتوم.

أصبح اوسيريس الحاكم الأول في مصر كونه أخرج الناس من الحالة الحيوانية وأكسبهم أعمال الزراعة والحرف و حولهم إلى شعب متحضر . لقد حسد سيت أخاه اوسيريس على شخصيته وقدرته . حاول مرارا كسب رعية أخيه وفي النهاية قرر قتله.

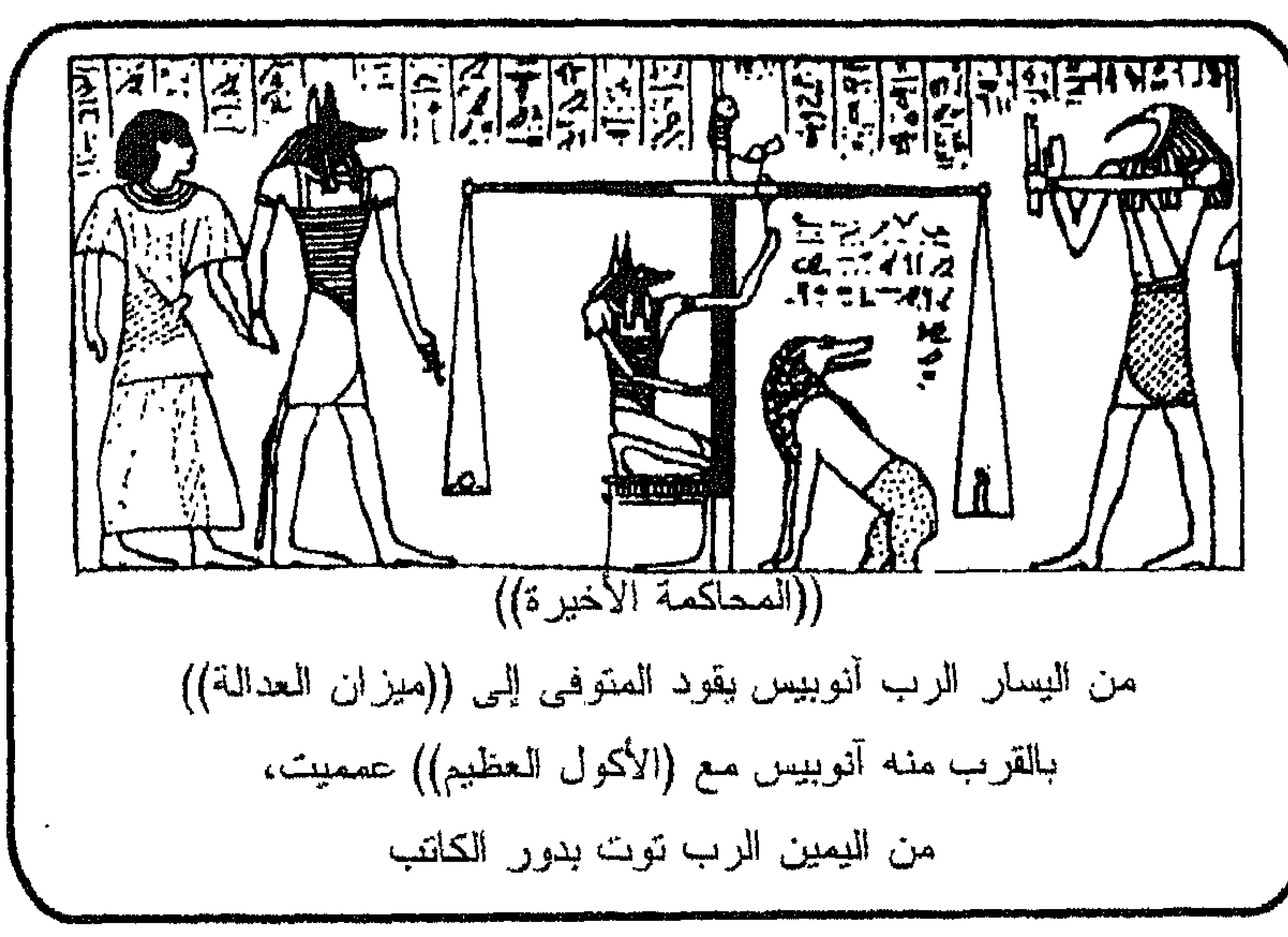
أقام سيت وليمة على شرف أوسيريس وعندما أصبح الجميع مضطربين من الشراب راهن أخاه بأنه لا يستطيع أن يدخل في صندوق كبير . ما إن تمدد

أوسيريس في الصندوق حتى أغلق عليه سيت الغطاء ودقه بمسامير وبمساعدة أعوانه رماه في النيل حيث حمله التيار إلى البحر .
علمت ايستيدا عن هذه الجريمة وبحثت طويلا حتى وجدت اوسيريس الميت .
عندها قام سيت بتقطيع جسد اوسيريس إلى قطع صغيرة ونشرها في جميع أنحاء مصر . لكن ايسيدا بحثت طويلا إلى أن جمعت أجزاء الجسد ودفنته بعد إقامة المراسم والطقوس . قبل ذلك استطاعت بقوة تعويذاتها أن تصل جميع الأجزاء بعضها ببعض لفترة غير طويلة ونفخت فيها الحياة لكي يجامعها اوسيريس ويترك لها خلفا . لقد أصبح الرب حور هذا الخلف . وبعد صراع طويل ومد وجزر انتصر بالنهاية على سيت وحكم العالم كخليفة قانوني لأوسيريس .
أوسيريس لم ينسى أيضا: فقد أرسل الرب الأكبر آتوم - رع الإله انوبيس حارس الأموات والمدافن لكي يحفظ اوسيريس ويتم المراسم التي تضمن لأوسيريس حياة أبدية . بعد الانتهاء من المراسم هبط اوسيريس أو بشكل أدق هبطت روحه إلى جهنم وأصبح ملك الأموات ." في الحقيقة يعيش اوسيريس كما تعيش أنت ". نقرأ هذه الكتابة على المئات من المدافن المصرية ." في الحقيقة كما لم يمت اوسيريس . لن تمت أنت. في الحقيقة كما لم يفنى اوسيريس لن تفنى أنت ". لآلاف السنين شكلت هذه الأسطورة لدى المصريين أساسا لتحنيط الأجساد وتأمين حياة أبدية لها. بالنسبة للملوك المصريين شكلت هذه الأسطورة الحجة الأساسية التي تخولهم تسمية أنفسهم " أربابا يحكمون إلى الأبد ". لقد اعتبروا أنفسهم تجسيدا للرب حور على الأرض وللرب اوسيروس في العالم الآخر.
لم يكن تحنيط الموتى منتشرا فقط في مصر . ولكنه لم يتم في تلك الأزمنة الغابرة بهذا الانتشار والنجاح إلا بمصر . لقد حفظت العديد من المومياء المصرية التي يزيد عمرها عن خمسة آلاف عام ولكن يمكن تحديد كل شيء فيها . أي نعرف أن أمامنا جسد إنساني . أما المومياء التي عمرها ثلاثة آلاف عام فيمكننا أن نتعرف فيها حتى على معالم الوجه.

يوجد في متاحف العالم الآن آلاف من المومياء التي عانت لأكثر من ألف عـــام من " صيادي المومياء ". في العصور القديمة كان يبحث عن المومياء من أجـــل الجواهر الثمينة وطلاسم الوقاية (الحجابات) التي كانت مخفية فـــي العصابـــات (التي تلف بها المومياء) . في القرون الوسطى وبداية العصر الحديث بحث عنها من أجل القوة السحرية التي ستنتقل إليهم لتحميهم من الحسد والإصابة بالعين.

في القرن المنصرم بيعت في صيدليات أوربا قطع من المومياء لعلاج أمـــراض الجلد وحالات الكسور . إن الانحفاظ المدهش للمومياء المصرية يثـير الانبـــهار الكامل . المحنطون الحاليون رغم توفير الشروط المناســبة والاهتمـــام بالجســد المحنط إلا أن هذا الجسد لا يصمد لأكثر من جيلين أو ثلاث .

يحاولون دون جدوى معرفة المواد التي استخدمها المحنطون القدمـــاء ولكـــن لا توجد حتى الآن مخطوطة واحدة تشير إلى ذلك . أما علماء الآثار المصرية فـــلا يستطيعون تقديم سوى معطيات قليلة جدا من أوراق البردي التي وجدهـــا رينـــد وإيبيرس . حيث يشار إلى أن المحنطين استخدموا " ماء من آبو" (اليناتنينـــا) . " محـــاليل قلويـــة "، " سكاكين حجريـــة نوبيـــة (أثيوبيـــة) "....الخ. ولكن كل هـــذا لا يكفـــــي لمساعدة المحنطين الحاليين.


((المحاكمة الأخيرة))

من اليسار الرب آنوبيس يقود المتوفى إلى ((ميزان العدالة))

بالقرب منه آنوبيس مع ((الأكول العظيم)) عمميت،

من اليمين الرب توت بدور الكاتب

لقد تمتع كيميائيو مصر القديمة دون شك بعلوم رفيعة المستوى . حرص وحلول علماء الكيمياء الحاليون على معرفتها لكن السبب الرئيسي لانحفاظ الأجساد المحنطة ليس فقط الوسائل الكيميائية المجهولة . بل الظروف المناخية لمصر أيضا وخاصة الهواء الجاف الذي تحمصه الشمس وهذا ما يعيق تكاثر الميكروبات . الجثث التي وجدت في الحفر الرملية على أطراف الصحراء حفظت أيضا بشكل جيد كما الأجساد المحنطة وفي بعض الأحيان أفضل منها.

أكثر المعطيات تفصيلا عن التحنيط في مصر القديمة حصلنا عليها من هيرودوت في الوقت الذي وصل فيه هذا الفن إلى القمة . " كان يوجد لذلك أخصائيون يمارسون التحنيط – يكتب هيرودوت في كتابه الثاني "التاريخ"– عندما يحمل إليهم الميت يعرضون على أقربائه اختيار الرسومات التزيينية للمتوفين . خلال ذلك يستعرض المحنطون طرق التحنيط وكلفتها ويبدؤون بأغلى طريقة ويذكرون بأنها استخدمت لتحنيط فلان من الناس . بعد ذلك يعرضون طريقة أخرى أسهل وأرخص من الأولى وفي النهاية يعرضون الطريقة الأرخص . ثم يسألون أقرباء الموتى عن طريقة التحنيط التي اختاروها . إذا كان السعر مناسبا يعود الأقرباء إلى بيوتهم أما المحنطون فينكبون على عملهم مباشرة " . يكون التحنيط بالطريقة الأولى بغاية الإتقان." في البدء يقومون بإخراج المخ من المنخرين بواسطة خطاف . بهذه الطريقة يخرجون جزءا من المخ . يخرج الجزء المتبقي عن طريق حقن عقاقير مذيبة في أحد المنخرين . بعد ذلك بواسطة حجر أثيوبي حاد يشقون أسفل البطن من طرف الورك ويخرجون المحتويات الداخلية للبطن. ينظف تجويف البطن ويغسل بخمر النخيل. ثم ينظف مرة أخرى بمواد عطرية . في النهاية يملئون الجوف الداخلي بمادة المر ومختلف العطور ثم يخيطونه، بعد ذلك يضعونه لمدة ٧٠ يوما في ماء الرماد (محلول قلوي).إبقاء الجثة لأكثر من ٧٠ يوما في هذا الماء لا يجوز. بعد انقضاء هذه المدة، تغسل الجثة من الخارج وتلف برباط شريطي وتدهن بالصمغ، بعد ذلك يعود الأقارب بالجثة، حيث

يضعونها في تابوت خشبي على شاكلة جسم الإنسان، ثم يوضع التابوت في مدفن العائلة على الواقف، بهذا الشكل يحنط الأغنياء موتاهم.
إذا اختار أقارب المتوفى الطريقة الثانية بسبب ارتفاع كلفة التحنيط بالطريقة الأولى فإن المحنطون يقومون بالعمل كما يلي: بواسطة أنبوب يقومون بحقن زيت شجر الأرز في جوف بطن المتوفى ولكن دون شق البطن وإخراج محتوياته، يحقن هذا الزيت من خلال الفتحة الشرجية ثم تغلق حتى لا يخرج الزيت منها. يوضع الجسد في ماء الرماد لعدد محدد من الأيام، في اليوم الأخير يخرجون الزيت المحقون من البطن، يؤثر هذا الزيت بقوة إلى درجة أنه يحلل محتويات البطن التي تخرج معه، أما ماء الرماد فيحلل اللحوم فلا يبقى من المتوفى سوى جلدة على عظم ويعاد الجسد إلى أهله، أما طريقة التحنيط الثالثة التي يحنط بها الفقراء فتتم كما يلي: يصب في جوف البطن عصير الفجل الحار (البري) ويوضع الجسد في ماء الرماد لمدة ٧٠ يوما، بعد ذلك يعاد الجسد إلى أهله".

مع أن الحديث حول هذا الموضوع يثير الاشمئزاز قليلا، إلا أنه لابد من القول أن المصرين استخدموا خلال عملية التحنيط العديد من التقنيات، فمثلا كانوا يحلقون شعر الرأس بشكل قصير للرجال أما شعر النساء فيبقون عليه. عند التحنيط بالطريقة الأولى كانوا يعصبون الشعر أما بالطريقة الثانية فكانوا يصمغونه. كانوا أيضا يخيطون الأعين ولكي يتمكن الميت من الرؤية كانوا يضعون في المحجرين أحجارا كريمة. لكي لا يتفلطح الجسد المفرغ من محتوياته الداخلية كانوا يملؤونه بالرمال واللفائف القماشيه المشبعة بالقطران. كانت محتويات الجسم الداخلية تحفظ في كانوبات (جرار) (كانوبوس-التسمية اليونانية للمدينة الساحلية التي تقع مكان أبو قير حاليا، والتي كان تجار الآثار يشحنون من مرفأها هذه الجرار إلى أوربا). كان عدد الجرار التي تحفظ فيها هذه المحتويات أربع-الطحال، الرئتين، المعدة والأمعاء كل منها يوضع في جرة منفصلة وكان لكل جرة غطاء على شكل أحد الأبناء الأربعة للرب حور. لم

يعبث أحد بقلب المتوفى، اعتقادا منهم أنه كان يتحكم بالحياة الجسمية والروحية للإنسان "لقد كان له إلها داخليا خاصا"، بالتالي لم يكن المتوفى ليستطيع العيش بدونه في مملكة اوسيريس.

من الموت حتى الدفن كان يمضي حسب شهادة هيرودوت ٧٠ يوما وهي مدة لم تكن مخصصة فقط لنقع الجسد في ماءات الصوديوم، حسب المراجع المصرية كانت هذه نفس المدة التي استغرقها جسد اوسيريس حتى عاد إلى الحياة الجديدة. لقد حددت هذه المدة من قبل الآلهة أنفسهم وهي تقابل الفترة بين طلوع وأفول النجم سيريوس فوق مصر.

لم تكن عملية التحنيط مجرد عملية كيميائية، لقد كان لها في الوقت نفسه مراسم دينية خاصة.

بالإضافة إلى المحنطين كان يشارك بهذه العملية ممثلو الاختصاصات الكهنوتية المختلفة: "كتاب الآلهة"، "مساعدو انونيس"، "مراقبو عملية التحنيط" وقبل كل شيء "الكهنة المقرؤون"، اللذين يتلون فوق المتوفى نصوصا من الكتب المقدسة الخاصة بهذه المراسم. لقد أعطي لف أو تعصيب الجسد انتباها خاصا: كان طول هذه العصابات يصل أحيانا إلى مئات الأمتار وبين مختلف العصابات كانت توضع الحجابات. كانوا يضعون فوق القلب جعلا حجريا "الجعل القلبي"، وكانت تلبس الأصابع بأنابيب قصيرة، أما الوجه فكان يغطى بقناع يأخذ شكل الوجه تماما ويعطيه بغض النظر عن التقليد ملامح خاصة (في بعض الأحيان كان يمثل الصورة الحقيقية للوجه). من بين الحجابات التي كانت توضع في العصابات كان يجب أن يوضع بالتأكيد "دعامة الثبات (المقاومة) "، (بالمصرية جيد)، و" (رمز الحياة) آنخ الذي حفظ شكله حتى الآن على الصليب القبطي).

بعد كل ما ذكر يوضع المتوفى في التابوت، على الأصح في أول تابوت له نفس شكل المومياء،يوضع هذا التابوت في تابوت ثاني ثم يوضع هذا الأخير في تابوت ثالث ويوضع الثالث في تابوت رابع ثم توضع جميعها في تابوت حجري يكون قد تم تجهيزه في المدفن. لم يكن هذا التحنيط رخيص الكلفة: فقد كانت

الحجابات وأقنعة الوجوه غالية الثمن، الكتابات التي كانت تزين كل تابوت كانت أيضا غالية الثمن إضافة إلى الكلفة المرتفعة لعملية الدفن نفسها. الطريقة الأولى في التحنيط كان يستخدمها الوجهاء والأغنياء، أما الطريقة الأرخص فكانت للمستخدمين الفقراء.

عندما نتحدث عن المومياء لابد من التذكير بأن المصرين كانوا يحنطون التماسيح، الأفاعي، الطيور، الثيران (توجد في ممفيس حتى الآن الطاولة التي كانوا يحنطون عليها) المقدسة.

لقد بينت الصور الشعاعية لعدد من المومياء التي حفظت بشكل جيد أنه في بعض الأحيان لم يكن داخل المومياء أي شيء وهي من المحتمل رمز تذكاري لأناس غرقوا في النيل أو قتلوا في المعارك أو أنها مزيفة-لخداع لصوص المدافن. لقد كان اهتمام المصرين القدماء بالحفاظ على الجسد غير محدود.

المومياء العائدة لحكام المملكتين القديمة والوسطى لم تحفظ، لكننا نعرف العديد من مومياء الفراعنة العائدة للملكة الحديثة، بما فيها بعض الحكام العظماء والمشهورين مثل تحوتموس الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني وميرنيبتاح.

لقد وجدت المومياء المذكورة خلال أحداث درامية في أيلول عام ١٨٨١م عندما اعتقلت مصلحة حماية الآثار زعيم لصوص المقابر عبد الرسول من قرية قرنة والذي اعترف بمكان إخفاء هذه المومياء . أربعين من المومياء المحفوظة بشكل جيد للملوك وأقربائهم وجدها أميل بروغش مساعد ماسبيرو عندما نزل في سرداب عميق بالقرب من دير البحري . توجد جميعها الآن في متحف القاهرة .

بعد أن تم تحميل القارب بالمومياء الملكية أبحر إلى بولاق - يكتب ماسبيرو عن هذه الرحلة -

" وهنا أصبحنا شاهدين على منظر غير اعتيادي . بين الأقصر وكوفت رافق المركب المئات من الفلاحين على كلا الضفتين . أسدلت النساء شعورهن ومسحن وجوههن بالطين ووصل غناؤهن الحزين إلى مسامعنا من البعيد . أما الرجال

فكانوا يطلقون النار من أسلحتهم على شرف أجدادهم الملوك....لا زالت مصر ترى في ملوكها أربابا حية ".

أيعقل أن المصريين لا زالوا يرون في الفراعنة أربابا ؟

في القاهرة غير ماسبيرو وجهة نظره هذه .

لقد رفض رجل الجمارك في الميناء السماح بمرور الحمل إذ أنه لم يعرف وفق أية قائمة في التعريفة الجمركية سيأخذ الضريبة . شرح ماسبيرو أن هذه مومياء الفراعنة القديمة .

" اللعنة على الفراعنة ومومياءها! لا يوجد عندنا ضريبة عليها !".

بعد أن حصل على بعض البقشيش وافق رجل الجمارك على معاينة الحمولة . وضمها إلى القائمة التي اعتبرها مناسبة جدا: سنأخذ عليها كما نأخذ على الأسماك المجففة.

وهكذا بطريقة التحنيط تم الحفاظ على الأساس المادي للجسد . الذي يعتبر ضروريا لاستمرار وجود الأساس المعنوي. بعد مضي سبعين يوما على الموت يقدم المتوفى على الحياة الجديدة حيث يمكنه التوجه إلى البلاد الخالدة .

حتى يستطيع المصري العبور إلى ذلك العالم كان عليه أن يتغلب على مجموعة من العوائق التي تكثر فيها المنعطفات والتضاريس الوعرة ، الفخاخ المموهة وعند كل خطوة يتهدده موت آخر . من أيام المملكة القديمة حيث كان هذا الطريق يؤدي إلى النجوم وصل إلينا ما يمكن اعتباره مصدرا للمعلومات " نصوص الأهرامات ".

إذا صدقنا هذه النصوص نرى أن هذا الدرب كان صعبا حتى على الملك اونيس مع أننا نعلم مسبقا أنه سيصل إلى غايته.

" كانت السماء تمطر . النجوم تنطفئ ، القواسون يركضون باضطراب ، عظام الآلهة ترتجف . الأشخاص البارزون صامتون وهم يراقبون كيف يصعد أونيس . روحه نفسها إله أعظم من كل الآلهة ".

أما تصورات المصريين من المملكة الوسطى عن هذا الـــدرب فقــد أصبحــت معروفة لنا من خلال " نصوص التوابيت "، التي يوجد في بعضها كتابات تصـف " كلا الطريقين ". أي إلى النجوم أو إلى جهنم ، مع خريطة تمثل العالم الآخر.

أكثر المعطيات التي وصلتنا عن هذا الموضوع أتت من المملكة الحديثة : مثـل " كتاب الأموات ". " كتاب العوائق " ، " كتاب السراديب تحت أرضيـــه " و " كتاب حول ما يوجد في العالم الآخر" .

هذه الكتب لا تصف فقط العوائق والصعاب ، التي ينبغي على المتوفى اجتيازهـا ، بل توجد بها إشارات ونصائح عن كيفية التغلب عليها ، بالإضافة إلـــى ذلـك توجد بها الأناشيد التي ينبغي إنشادها أمام هذا الرب أو ذاك لنيل رضاه؛ ألقـــاب جميع الأرباب بحيث لا يخطئ مرة واحدة أثناء خطابه معهم ، إرشــــادات عــن كيفية قتل التماسيح والأفاعي التي تعيش تحت الأرض ، قائمة بأســـماء حــراس جميع البوابات ، إذا عرفها المتوفى يستطيع محاورتهم مثلما يحاور أعز أصدقاءه الطيبين، قائمة بجميع نقاط ضعفهم.

يوجد بها تعويذات سحرية يستطيع المتوفى أن ينتصر بواسطتها على أعداءه وأن يلتجئ إلى أي شخص يريد.

نقرأ في " كتاب الأموات " الذي أصدره ليبسيوس عام ١٨٤٢م في الجزء ١٢٥.

- دعه يذهب - يقولون لي .
- من أنت ؟- يقولون لي.
- ما اسمك ؟
- أنا الذي ينمو تحت اللوتس والذي يقع في شجرة الزيتون ، هذا هو اسمي.
- اذهب فورا ! - يقولون لي . لقد مررت في مدينة الزيتون الشمالية .
- ماذا رأيت هناك ؟.
- فخذ وساق .
- ماذا قلت لهما ؟
- لقد رأيت ابتهاجا في معسكر العدو.

- ماذا أعطوك ؟

- شعلة من النار وبلوره.

- ماذا فعلت بها ؟

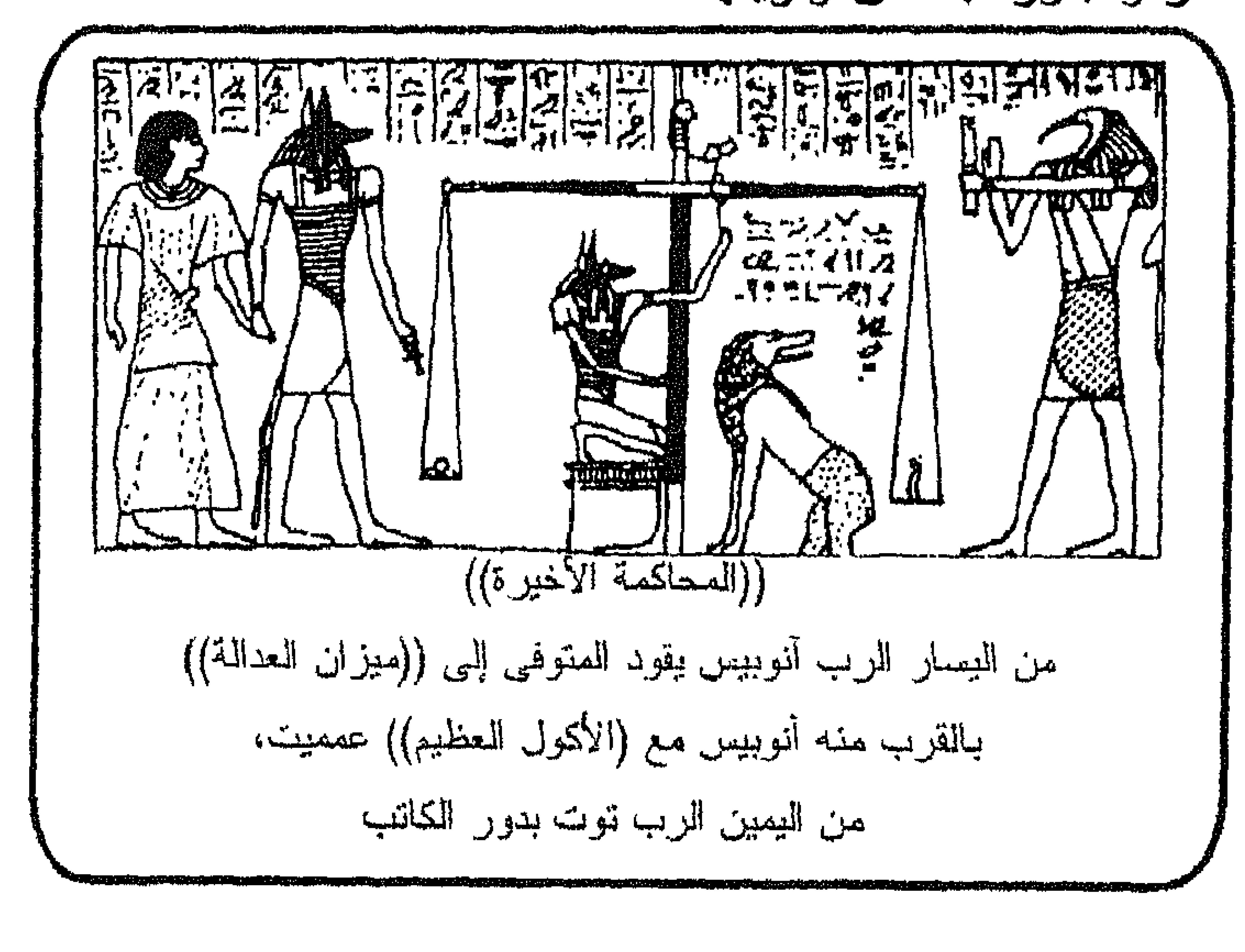
- لقد واريتها على ضفة بحيرة الحقيقة كالأشياء المسائية.

- ماذا وجدت هناك على ضفة بحيرة الحقيقة ؟

- قضيب من رمل الصوان اسمه " معطي التنفس ".

- ماذا فعلت بالنار والبلورة بعد أن واريتهما ؟

- هتفت ، لقد نبشتهما ، لقد أطفأت النار ، لقد كسرت البلورة ، لقد أنشأت البحيرة ".



((المحاكمة الأخيرة))

من اليسار الرب آنوبيس يقود المتوفى إلى ((ميزان العدالة))

بالقرب منه أنوبيس مع ((الأكول العظيم)) عمميت،

من اليمين الرب توت بدور الكاتب

إذا أنهى المتوفى المصري هذا الطريق بنجاح . إذا عرف أسماء جميع المطريات فوق كل البوابات وسمحوا له بالمرور . إذا عرف أسماء عتبات كل البوابات وسمحوا له بالمرور . إذا عرف أسماء الجهتين اليمينية واليسارية من جميع البوابات وسمحوا له بالمرور ..الخ. فإنه يصل إلى قصر الحقيقتين " مكان المحاكمة الأخيرة ".

في منتصف القصر جلس على العرش الرب اوسيريس ، على جانبيه وقفت الآلهتين ايسيدا ، ونيفتيدا، وأمامهم مجلس مشكل من اثنين وأربعين إلـها؛ إلـه الشمس رع كان يحتل مكان القاضي الأعلى في هذا المجلس . كان يوجد تحت تصرف هذا المجلس " كاشف الكذب " على شكل ميزان بكفتين. في إحدى كفتي

الميزان يوضع قلب المتوفى وفي الكفة الأخرى - ريشة نعامة من إلهة الحقيقة والعدالة معات . عند إحدى كفتي الميزان وقف إله العدل وفن,الكتابة توت برأس آبيس ، عند الكفة الأخرى جلس المخلوق الخرافي عمميت ، الذي له جسم ضبع وفرس نهر بلبادة أسد وفم تمساح . ترجمة اسم هذا المخلوق تعني " الأكول ".
يدخل المتوفى إلى القاعة برفقة إله الأموات وحارس المدافن انوبيس ، الذي كان له جسم آدمي ورأس ابن آوى . بعد إقامة المراسم المطلوبة تبدأ المحاكمة.
يدخل المتوفى إلى محكمة الاستجواب : حيث يكون أعضاء المجلس قضاة ومستجوبين بآن واحد (من البديهي أن هذا النظام القضائي كان موجودا في مصر القديمة). لكن الميزان يضمن " موضوعية وعدالة " الاستجواب. عندما يكون الجواب كذبا ترتفع كفة قلب المتوفى نحو الأعلى لأنها أخف من كفة الحقيقة . كل عضو من أعضاء المجلس يطرح سؤالا واحدا يجيب عليه المتوفى بفضل الكاهن الذي لقنه الإجابات الصحيحة بشكل مسبق . يقوم الرب توت بوزن مجموع " مع " و " ضد " ثم يقوم اوسيريس (أو رع) بالنطق بالحكم. إذا كان الحكم لمصلحة المتوفى فإنه يدخل مملكة اوسيريس واذا كان ضده فإنه يصبح لقمة في فم المخلوق الخرافي الأكول.
إن الأسئلة والأجوبة في" المحاكمة الأخيرة " تعتبر مثالا على " طريقة الحياة" عند المصريين القدماء . كانت الإجابات دائما سلبية . لنورد البعض منها :" أنا لم أسبب الشر للناس . أنا لم أعذب الحيوانات . أنا لم أقتل القطعان الخاصة بالأضاحي . أنا لم أقم بأي تصرف أحمق في مكان مقدس . أنا لم أحاول معرفة ما ينبغي أن يظل سرا . أنا لم أكفر بالإله . أنا لم أذنب أمام الآلهة. أنا لم أقم بقهر الفقراء . أنا لم أغتب عبدا أمام سيده . أنا لم أرسل قاتلا إلى أحد كي يقتله . أنا لم أجرح أحدا . أنا لم أبدل بمكيال الحب . أنا لم أبدل بمقياس مسح الحقول . أنا لم أجبر كفة الميزان على الرجحان للخداع . أنا لم أخلص طفلا حليبه . أنا لم أحجز المياه في قناة الري والتي يجب أن تتدفق إلى حقل الغير . أنا لم أطفئ نار

الأضاحي في الوقت الذي يجب أن تكون فيه مشتعلة . أنا لم أستول على قطعان من حقول الآلهة . أنا لم أقف في وجه قدر الآلهة ".

كل ذلك على المتوفى أن يقوله مرتين: أول مرة يقول النص بالكامل وفي المرة الثانية – يقوله مجيبا على أسئلة القضاة . في كل مرة عليه أن يصيح في النهاية " أنا نظيف ".

إذا تم كل شيء على ما يرام في قصر الحقيقتين يمثل الميت أمام اوسيريس فيسمح له بالحياة في مملكته من جديد . لكن هذا لا يعني أن جميع الاختبارات قد انتهت . مع أن الميت يستطيع العيش هناك بشكل أفضل من العيش في هذا العالم، لكن كان عليه أن ينتبه إلى نفسه . في ذلك العالم كانت الأسود أعظم وأكثر رعبا والتماسيح أضخم أنيابا وأشد افتراسا . الأفاعي والعقارب أشد سمية. لذلك كان أقارب المتوفى يضعون معه في التابوت كتابا يدله على كيفية الدفاع عن النفس . لقد كان هناك مكان للإعدام يذكر بالمسلخ حيث تقطع رؤوس أعداء الآلهة . كان يمكن أن يصل الميت إلى هناك بلا قصد وبدون ذنب. في حال قطع رأسه هناك (أو إذا ألحق الأذى بمومياءه)كانوا يضعون معه في القبر رأسا احتياطيا من الحجر الكلسي . كما أنه يمكن أن يفقد في ذلك العالم ذاكرته الأرضية وحتى يمكن أن ينسى أسمه . بالتالي يصبح غير موجود كفرد . من أجل ذلك يوضع بين عصائب المومياء قلب حجري على شكل جعل.

إذا لم يتسنى للمتوفى تفادي هذه الأخطار والأخطار الأخرى الكثيرة يمكن أن يموت بغض النظر عن كون مومياء جسده بقيت محفوظة بحالة جيدة . هذا الموت الثاني يعتبر نهائيا وبنتيجته يفقد الشخص كينونته بشكل كامل .

لم تكن مملكة أوسيريس جنة بمعنى أنها لم تحرر الإنسان من ضرورة العمل . يمكن للمراقب إرسال المتوفى لخبز الخبز أو لنقل الرمال من ضفة إلى الضفة الأخرى . أي أن المراقب كان أقوى من المتوفى العادي .

في هذه الحالة كانوا يضعون في القبر ممثلا أو عبدا على شكل تمثال يصيح عندما يأمر المراقب " أنا هنا "ويقوم بالعمل عوضا عن المتوفى . في كل قبر

يمكن أن نرى العديد من هذه التماثيل . عندما يريد المتوفى أن يفتخر أمام المتوفين الآخرين بعدد عبيده الكبير ، كان يدخر لكل يوم من السنة تمثالا أو أكثر . لدينا الآن عشرات الآلاف من هذه التماثيل (غير التماثيل المقلدة بشكل ممتاز) المصنوعة من الحجر ، الفخار ، الخزف ، الخشب ، والكثير من هذه التماثيل عبارة عن إبداع حقيقي.

بما أن الميت (أو بشكل أدق " كا " الخاصة به) سيعيش في مملكة أوسيريس كانت الثياب ضرورية له كي لا يسير عاريا بالإضافة إلى وعاء (قصعة) كي لا يأكل من الأرض وفراش كي لا ينام في الغبار ؛ كما كان يلزمه الطعام والشراب . كل هذه المتطلبات كان يجب أن تلبى وفق العادات الأرضية . السيد النبيل لم يمكنه إلا أن يتميز عن الفلاح . والقائد الحربي عن المقاتل البسيط . السيدة الأولى في الحريم – عن الخادمة، الملك – عن جميع أتباعه.

بالإضافة إلى ذلك كان يجب على كل ميت أن يملك إمكانية زيارة أسرته وأقاربه وإلا فحياته في ذلك العالم لن تكون ذات قيمة . مع أنه كان روحا إلا أن جميع متطلباته كانت يجب أن تلبى ماديا عن طريق لوازم الدفن وتقديم الأضاحي . فقط عند ذلك تستطيع الروح استخدام جوهرها اللامادي . إذا نقص شيء ما من عنده كان يستطيع بلفظ التعاويذ السحرية أن يحيي الرسومات التي تمثل الأضاحي المقدسة . والتي تزين مدفنه ولعدد غير محدود من المرات. بهذا الشكل كان يستطيع العيش إلى الأبد .

إن العناية بالجنازة ، أدوات الدفن وتقديم الأضاحي كان واجبا مقدسا يقع على عاتق أولاد وأقارب المتوفى . ولكن هذا الواجب المرتفع التكاليف كان عادة مخففا : كان الإنسان خلال الحياة يجهز لنفسه مدفنا ويشتري القسم الأكبر من أدوات الدفن وفي وصيته كان يخصص جزءا من ممتلكاته لتغطية نفقات الأضاحي . إن كل هذا الاهتمام كان يؤكد كلمات المؤلف اليوناني " تذهب حياة المصري على التحضير لموته ".

طبيعي أنه كان يوجد دائما في مصر عدد كاف من الناس الذين لا يعتقـــدون أن الحياة هي فقط تحضير للموت . كما علمنا من شهاداتهم المكتوبة . سعى بعضهم إلى " التقرب من الحكام ". آخرون " اهتموا بمضاعفـــة أملاكـــهم ". آخـــرون " حاولوا ألا يعملوا أكثر مما هو مسموح به ". أو " العيش بهدوء حتى ١١٠سنوات ". لقد انقاد كثيرون لنصائح مذهب الاستمتاع بالحياة، " انصرف إلى المســـرات ولا تفكر بالمشاغل "– نقرأ في مؤلف مكتوب في أزمنـــة المملكـــة القديمـــة . " استخدم ثروتك للمرح ولا تحرم نفسك شيئا "– نقرأ على ورقة بردي من العصر الانتقالي الأول ." امرح واطرد من رأسك فكرة أنك ستصبح يوما ما روحا براقة "! ابتهج طالما أنك هنا ! لن تأخذ أي شيء رائع معك إلى ذلك العالم ولا يوجـــد طريقا للعودة من هناك ". نقرأ في قصيدة شعرية من زمن المملكة الوسطى.

على الرغم من نير الاستبداد الديني الجائر وضغط مختلـــف أنـــواع الواجبـــات والحرمان من الحقوق الأساسية . فقد اعتبر المصريون أن هدف الحياة هو الحياة نفسها .

ولكن أيا كانت آراء المصريين بهذا العالم أو ذاك فإنهم على أية حـــال حـــاولوا تأمين بقاءهم بعد الموت . على الأقل من كانت لديه الوسائل المادية لذلك.

لا نعلم عن بيوت المصريين إلا من خلال الرسومات . لم تفنـــى فقـــط أكـــواخ الفقراء وبيوت الطبقة الوسطى ، بل والقصور الملكية.

اليونانيون الذين عرفوا عادات المصريين جيدا سجلوا بدهشة أنهم لـــم يكونـــوا يهتمون ببيوتهم كاهتمامهم بمقابرهم وبهذا تميزوا عن بقية الشعوب .

نحن نصدق ذلك لأن عادة إنشاء القبور الفاخرة لا زالت عند الأقباط والمسيحيين وحتى المسلمين.

إن مراسم تجهيز المتوفى إلى مسيرته بعد الموت موجودة عند العديد من الشعوب القديمة . ولكن عدا أضرحة الحكام اكتفى الجميع بهدايا متواضعة.

أما المصريون فقد أهدوا المتوفين ثروات حقيقية . لقد كانت مقابرهم كنوزا من الصحون الثمينة والمزهريات المصنوعة من الألباستر ، تماثيل وحلي من الصخر الأرجواني وأدوات ترف من الذهب والأحجار الكريمة .

الفصل الثالث

الجزء السابع

آخر الألغاز

تأسس منذ زمن غير بعيد علم جديد يبحث عن السبب الحقيقي لبناء الأهرامات ويعطي تحليلا رياضيا لأبعادها المختلفة.

يعتبر جون تايلور مؤسس هذا العلم وهو صاحب كتاب (الهرم الأكبر : لماذا ومن بناه ؟). لقد كان بائع كتب في جامعة لندن وأصدر كتابه عام ١٨٥٩ بعد ثلاثين عاما من التحضير . حيث اعتمد على نتائج قياسات غريفس و فير و بيرنغ وبشكل خاص اعتمد على معرفته بالكتاب المقدس والرياضيات. لم يقم بزيارة لمصر أبدا وحسب قناعته لم يكن الهرم الأكبر مدفنا وبناته لم يكونوا المصريين. نشأ هذا الهرم (قبل حوالي ٢٤٠٠ عام قبل ميلاد السيد المسيح) كما حسب على أساس الكتاب المقدس، (أي بعد ١٦٠٠ عام من خلق الرب لسيدنا آدم).

في الحقيقة كان وضع العلوم الرياضية، الفلكية، المعمارية والعلوم الأخرى في ذلك الحين على مستوى منخفض لم يكونوا قادرين معه على إنشاء هذا الهرم (بالتالي كان لابد للإله من مساعدتهم عن طريق إلهامهم وإرشادهم إلى هذه العلوم). ولكن بما أن المصريين كانوا عبدة أصنام (يشك في أن يكون الإله قد منحهم هذا العطف). كما نعلم من التاريخ المصري (كانت هذه البلد خاضعة لحكام الرعاة القادمين من الشرق)، الذين ينتمون (إلى شعب الله المختار)، (وهؤلاء قاموا ببناء الهرم الأكبر).

وهكذا كان الهرم الأكبر من إبداع الإله أو على الأقل من إبداع الإلهام الإلهي، ومن وجهة النظر هذه يجب أن يدرس.

لم يهتم تايلور بالأهرامات الأخرى، اهتم فقط بالهرم الأكبر وحـــده. لـم يـهتم بالصروح المجاورة أي بالمعبدين السفلي والعلوي، لم يهتم بأي شيء آخر فـي جوار الهرم الأكبر.

لم يزعجه التناقض الذي يتلخص بأنه عندما قام (حكام الرعاة)، أي الهكسـوس بغزو مصر كان هذا الهرم وفق حساباته ينتصب هناك منذ قرون عدة.

كان واضحا بالنسبة له أيضا أن هذا الهرم لم يكن مدفنا لملك وثنـي مـا، إذ أن الإله لا يهبط بمستواه ليساعد الوثنين في بناء كهذا. ماذا يستطيع أن يقول تـايلور عن حجرة الدفن وتابوت الوثنيين: اللذان فتحا وسرقا ؟ ألا يعتبر ذلك دليلا علـى وجود شخص ما مدفون هناك ؟ لكن تايلور رفض أيضا هذا البرهان. لقد كـان لهذا الصرح وظيفة أخرى أعلى من ذلك بكثير، لقد أظهر الرب في الهرم (أسس العلوم الرياضية والهندسية حتى تحفظ على مر العصور لأولئك القادرين علـى فهمها واستخدامها).

على هذه النقطة ركز تايلور انتباهه.

المسألة الأولى التي وضعها تايلور أمامه في دراسة هذا الـهرم تتلخـص فـي معرفة واحدات القياس التي استخدمها البناءون. بما أن تايلور لم يعرف أي شيء عن مقاييس الطول المصرية ، كان عليه أن يصممها أي يخترعـها. فـي عـام ١٨٦٤م أصدر بحثا يتطرق إلى هذا الموضوع (معركة من أجل السـتاندارت).

لقد توصل تايلور إلى نتائج مثيرة، حيث اخترع ما يسمى (البوصة الهرمية)التـي تنحرف بمقدار واحد بالألف عن البوصة الإنكليزية والتي تساوي (٢,٥٤سم)، بعد ذلك أوجد (الذراع الهرمي)، الذي يساوي ٢٥بوصة هرمية أو ٢٥,٠٢٥بوصـة إنكليزية. المعطيات التي حسب على أساسها (وحدات القياس الهرمية) تختلف عن الطول الحقيقي لحروف الهرم من ٢,١-٢,٣م وعن الارتفـاع الحقيقـي للـهرم بمقدار ٢,٥م.

لقد استطاع تايلور أن يبرهن من خلال هذه المعطيات أن (محيط قـاعدة الـهرم يساوي محيط الدائرة التي قطرها يساوي ارتفاع الهرم). كـانت تلـك الخطـوة

الأولى إلى مجموعة من الاكتشافات الخيالية . تبين أن بناة الهرم عرفوا العدد π ، والتناسب الذهبي وطريقة حساب محيط الدائرة ومساحتها.

عند تايلور كما هو الحال عند أي مؤسس لعلم جديد كان يوجد علماء قبله تطرقوا إلى هذا المجال مثل يولي هونوري و توراني رونين اللذين عاشا في القرنين الرابع والخامس للميلاد واعتبرا أن بناة الأهرامات كانوا يهود ، المسعودي الذي عاش في القرنين التاسع والعاشر للميلاد . وفقاً لكتابات هذا الأخير أمر الملك سوريد بإبقاء كتابات في الأهرامات تشير إلى ما توصل إليه الكهنة في العلم والحكمة .

لا شك أن تايلور أخذ الكثير عن سابقيه من العلماء . لكن من المحتمل أنه لم يعرف شيئاً من فريدريك روبير وهو أول من أكد أن بناة الأهرامات كانوا يعرفون " التناسب الذهبي" (وهو عبارة عن نسبة قطعتين تنسب فيها القطعة الأقصر إلى الأطول . بالإضافة إلى نسبة طول القطعة الأطول إلى مجموع القطعتين) . مع أن اكتشاف التناسب الذهبي ينسب فقط إلى فيثاغورث . معظم الذين أتوا بعد تايلور تركوا تربة الديانة المسيحية . والبعض منهم سمى الهرم الأكبر " الكتاب المقدس الحجري " ، الذي يمكن أن تقرأ منه الحكمة ، ماضي ومستقبل البشرية وأطلقوا عليه اسم " تقويم أقدار الإنسانية " . وهكذا رجحوا دراسة الهرم الأكبر على كل العلوم . فلماذا يُدرس التاريخ والاقتصاد والفلسفة والتطور الاجتماعي ....الخ. إذاً كان كل شيء مكتوب بشكل ما في الهرم الأكبر ، يمكن حساب أشياء كثيرة: من أبعاده ، من التناسبات بين هذه الأبعاد ومن زوايا ميل الممرات وتوضع الحجرات . من المعنى الرمزي لبعض الردهات ، من مكان اكتشافها إلخ.

هناك من حسب بشكل دقيق بعض الحوادث الماضية : مثلاً مقتل سيزار عام ٤٤ ق.م ، حرق جان دارك عام ١٤٣١م، موت نابليون عام ١٨٢١م(وميلاده ١٧٦٩م) ؛ الاعتداء على لينكولن عام ١٨٦٥م وتواريخ أخرى.

هناك ج . هارفي العقيد الاحتياط في الجيش البريطاني مؤلف كتاب " الهرم الأكبر " تنبأ عام ١٩٢٢م " بتدمير جزء كبير من أوربا ومن القارات الأخرى أيضاً ". قام شميت بتحديد البوصة الهرمية على أنها تساوي ١,٠٠١ من البوصة الإنكليزية ثم قام بعدد من الحسابات : مثلاً محيط قاعدة الهرم يساوي ٣٦٢٥٤ بوصة حربية . إذا أخذنا ارتفاع الهرم بالبوصات وضربناه بـ ٠,٩ نحصل على بُعد الشمس عن الأرض مقدراً بالأميال .

تقسم اليابسة والمحيطات على الكرة الأرضية إلى جزأين متساويين بواسطة خط الزوال (خط منتصف النهار) الذي يقع عليه الهرم الأكبر .

تشير الدلائل إلى أن المصريين عرفوا ما يسمى " بالعام النجمي ". في عام ١٨٨٥م أخبر مفتش معمل التبغ في عودونين أ. ياروليميك الأكاديمية الملكية للعلوم في فيينا أنه وجد في الهرم الأكبر " التناسب الذهبي ". وفي عام ١٨٩٠م أعلن للعالم عن اكتشاف جديد -" السلسلة الذهبية " (وهي متوالية عددية فيها العدد التالي يساوي مجموع العددين السابقين). لقد توصل إلى هذه السلسلة بتحليل أبعاد الهرم حيث استطاع أن يحصل على ١١ حداً من هذه السلسلة (١،٢،٣،٥،٨،١٣،٢١،٣٤،٥٥،٨٩،١٤٤). من الواضح أن الحد الأخير من السلسلة ١٤٤ يمثل ارتفاع الهرم عند الانتهاء من بنائه . بالمناسبة لم يستطع ياروليميك أن يضيف أي حد آخر إلى هذه السلسلة.

في عام ١٩٠٢ م ذكر م . ب . توستفورت في كتابه " الكاهن الحكيم " أن الهرم الأكبر كان تقويماً شمسياً لأنه بظله كان يبين أوقات السنة ، الشهور ، الأسابيع والأيام ." بواسطة ظل الهرم ومقدار تناقصه على مدار اليوم استطاعوا تحديد السنة الشمسية بخطأ لا يتجاوز ٠,٢٤٢١٩ من اليوم ".

في عام ١٩٢١ م أصدر ف. نويتلينغ الأسير الألماني الذي تعرف في أستراليا على أعمال شميث كتابه " الأعداد الكونية لهرم خوفو - المفتاح الرياضي للقوانين الكونية ".

لقد برهن أنه باستخدام " الذراع المصري " فإن طـــول حـــرف الـــهرم ســـيبلغ ٣٦٥٥٤٠٩٠٣٧٧٧ وحدة طول " وهذا ما يقابل طول مدة العام الشمســـي بدقـــة فائقة تصل إلى واحد بالمليار من اليوم ".

أما بوهارت فقد أشار إلى أنه في هرم ساحور في أبو صير نسبة نصف محيـــط القاعدة إلى الارتفاع يساوي العدد النيبري "e" (٢,٧١٨٢٨) .

أورد شميث أن ارتفاع الهرم مضروباً بألف يساوي تقريباً المسافة بين القاهرة ومكة على خط نظر واحد ، أي ١٤٩٠كم .

الجزء الثامن

أهرامات خوفو خفرع ومنقرع

تحت المجهر

لقد كانت الكتابات والمؤلفات المختلفة عن الأهرامات تثير الحيرة تـارة والشـك تارة أخرى لدى الإنسان لما فيها من الغموض والإبهام . لكن التسارع الكبير فـي الاكتشافات العلمية في عصرنا هذا أدى إلى رفد جميع فروع العلـم بالتقنيـات المتقدمة التي تسهل عملية البحث العلمي ومن هذه الفروع علـم آثـار مصـر القديمة.

في منصف الثمانينات وبعد الحصول على إذن من مديريـة الآثـار والمتـاحف المصرية، وصل إلى مصر فريق مختص من الولايات المتحدة الأمريكية لإجراء دراسات دقيقة على الأهرامات الثلاث الكبرى، خوفو، خفرع، منقرع.

لقد أثبت أن توضع الأهرامات بالنسبة لبعضها البعض لم يكن عشوائيا. لقد كانت رؤوس الأهرامات الثلاثة واقعة تماما على مستقيم واحد، ليس هذا فحسب، بل إن هذا المستقيم كان يوازي إبرة البوصلة بدقة لا متناهية، أي يوازي خط شـمال- جنوب مغناطيسي.

في تلك الحقبة التي بنيت خلالها الأهرامات لم تكن البوصلة معروفـة، فكيـف استطاعوا أن يبنوا هذه الصروح العملاقة مع المراعاة التامة لهذا الشرط الدقيـق، أي التوازي بين المستقيم المار بالرؤوس الثلاث مع شمال جنوب مغناطيسـي؟ أم أن ذلك كان محض الصدفة؟.

إذا لم يكن الأمر صدفة (وهو الأصح على الأغلب)، فلماذا اختـار المصريـون القدماء هذا التوضع ولأي غرض؟.

لم تكن الإجابة على هذا السؤال ممكنة دون الهام موفق ونظرة علمية ثاقبة.

وضعت ثلاثة نماذج زجاجية مصغرة عن تلك الأهرامات على طاولة بعد أن وجهت كما الأهرامات الحقيقية وتمت مراعاة التناسب في الأبعاد.

المطلوب الآن تمثيل حجر الدفن في هذه النماذج الثلاثة. لذلك وضعت ثلاثة قواعد صغيرة ضمن هذه النماذج: ارتفاع القاعدة الأولى يتناسب مع ارتفاع حجرة الدفن في الهرم الأول، ارتفاع الثانية يقابل موضعا أعلى من حجرة الدفن في الهرم الثاني وارتفاع الثالثة يقابل موضعا أخفض من مكان حجرة الدفن في الهرم الثالث.

وضعت قطعة صغيرة من اللحم فوق كل من هذه القواعد وتركت لعدة أيام.عند تحليل هذه القطع تبين أن القطعة الأولى سليمة والقطعتين الأخريين قد تحللتا بفعل البكتيريا.

إذن اختيار مكان حجرة الدفن لم يكن عشوائيا. ولكن ما هو تأثير هذا الموضع على الأشياء الأخرى؟. وضعت رقاقة فولاذية ذات مواصفات ميكانيكية منخفضة فوق القاعدة الأولى لعدة أيام، وعندما فحصت تحت المجهر الإلكتروني تبين أن بنيتها المجهرية تحسنت كثيرا، إذ أن حبيبات الكربون توزعت بشكل منتظم وأصبحت ملساء، مما أكسب هذه الرقاقة مواصفات ميكانيكية عالية الجودة.

ترى ما هو السبب في ذلك؟.

بمساعدة الحاسب الإلكتروني تبين أن التعليل الوحيد لهذه الظاهرة هو أن وجوه الهرم تجمع طاقة كونية مجهولة الماهية وتركزها في منطقة غير واقعة في مركز ثقل الهرم (على مبدأ العدسات المقربة). هذه المنطقة ترتفع عن القاعدة بمقدار ارتفاع حجرة دفن الملك في الهرم. أطلق العلماء على هذه الطاقة المجهولة اسم X .

تبين أيضا أن الهرم هو المجسم الهندسي الوحيد النى يستطيع جمع هذه الطاقة، وبالتالي يمكن أن يكون هذا سببا لاختيار المهندسين المصريين القدماء للهرم ولم يختاروا شكلا أسطوانيا أو موشوريا أو قبة.

هذه الطاقة هي سبب انحفاظ جسم الملك لآلاف السنين بشكل ممتاز، إذ أن البكتيريا التي قد تبقى أو يلتقطها الجسد بعد التحنيط تقتل بواسطتها.

مجموعة أخرى من هذا الفريق العلمي درست قضية استناد الألواح الحجرية إلى بعضها البعض دون أي فراغ فيما بينها.

إذا لم تكن سطوح الاستناد مشغله يدويا أو بوسائل خاصة، يحتمل أنهم استخدموا مادة ربط (مثل الإسمنت حاليا) بين الألواح الحجرية.

للتأكد من ذلك أخذ العلماء الثلاثة عينات: الأولى من السطح الفاصل بين حجرين والثانية والثالثة من فوق السطح الفاصل ومن تحته.

بتحليل هذه العينات تبين أن العينة تحتوي على شعره آدمية وتركيبها الكيميائي يختلف عن تركيب العينتين العلوية والسفلية، بالتالي هذه العينة ما هي إلا مجموعة مواد شكلت خليطا يربط بين الألواح الحجرية.

الشيء المثير للدهشة في هذا التحليل لم يكن الشعرة الآدمية، بل احتواء هذه العينة على مواد مشعة! وفلذات الحديد.

بالتنقيب في المواقع وفي المناطق المجاورة للهرم لم يتم العثور على أية مواد مشعة.

المكان الوحيد والأقرب الذي توجد فيه هذه المواد هي منطقة حلوان التي تبعد مسافة ٤٠ كم عن الجيزة.

إن احتواء مادة الربط على مواد مشعة فسر سبب عدم تمكن سبر الأهرامات الثلاث بواسطة الأقمار الصناعية، إذ أن هذه المواد شكلت حاجزا يقوم بالتشويش على الأمواج المرسلة من القمر الصناعي، وبذلك ظهرت مكان هذه الأهرامات على الصور الملتقطة بقع سوداء.

لماذا يكلف مهندسوا الأهرامات أنفسهم بجلب الرمال من هذه المسافة لتحضير مجبول الربط ؟.

أيعقل أنهم كانوا على علم بتأثير هذه المادة أو بوجودها أصلا ؟ الله وحده يعلم.

على أية حال تلخصت نتائج هذه الدراسة بما يلي:

١-الهرم هو مدفن للفرعون على الأقل.
٢-حجرة الدفن يجب أن تكون سرية حتى لا يعبث اللصوص بممتلكات الفرعون الثمينة ولكي يظل جسده بحالة جيدة لتتمكن روحه من العيش إلى الأبد.

لتأمين حماية هذه الحجرة اتخذ المهندسون القدماء إجراءات هندسية وتقنية رفيعة المستوى:

١-تم وضع هذه الغرفة في مكان تتركز فيه طاقة قاتلة للخلايا الحية (بالتالي للإنسان إذا ما أطال المكوث فيها).
٢-أنشأوا في الأهرامات سراديب ومتاهات وفخاخ للتضليل والخداع والإيقاع بلصوص المدافن.
٣-استخدمت مادة ربط تحتوي على مواد مشعة تشكل سدا في وجه أجهزة الاستشعار عن بعد.

لقد أدهشت هذه الصروح القديمة البشر على مر التاريخ والعصور وهي لا زالت تدهش إنسان عصر التكنولوجيا والفضاء والحواسيب بما يجده فيها يوما بعد يوم من الأعاجيب.

تمت بعون الله.

الفهرس



أسرار الأهرامات

هذا الكتاب

يحتوي على

١- عرض مقتضب لتاريخ مصر القديمة .
٢- فك اللغة الهيروغليفية .
٣- الديانة المصرية القديمة وطرق التحنيط .
٤- الإعتقاد بالحياة مابعد الموت ومايجري خلالها .
٥- بعض الغرائب عن الآثارات المصرية .